

رُوحُ الْحَيَاةِ

الرُّؤْيَا الْكَوْنِيَّةُ لِإِبْنَاءِ النُّورِ



تَأَلَّفَ: شَمْسُ الدِّينِ الْمُحْسِنِ

رُوحِ الْحَيَاةِ

الرؤية الكونية لأبناء النور

تأليف
شمس الدين المحسن

ضمن مشروع
تحفيز الأذهان في نقد الأديان

طُبِعَ في دار استفق الإلكترونية
الاتحاد الأوروبي

الطبعة الإلكترونية الثانية : 2026

© جميع الحقوق محفوظة للمؤلف ومسجلة في المكتبة الملكية

لا يجوز إعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي وسيلة كانت، إلكترونية أو مطبوعة، دون إذن مسبق من المؤلف. ويُسمح بالاعتباس لأغراض البحث أو الدراسة مع ذكر المصدر واسم المؤلف.

© 2026 All rights reserved | Independently published in the European Union



إهداء..

مِنْكَ وَإِلَيْكَ وَبِكَ يَا أُمَّ جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ،
يَا سِرَّ الذَّاهِبِ وَالْآتِ، يَا مَظْهَرَ ذَاتِي وَوُجُودِي،
يَا حَضْرَةَ غَيْبِي وَشُهُودِي.. أَشْهَدُ أَنَّكَ فَوْقَ جَمِيعِ الْإِدْرَاكَاتِ،
فَالْمُدْرِكُ وَالْمُدْرَكُ أَنْتَ، وَكَذَا الْإِدْرَاكُ
يَا أُمَّ جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ.
أَهْدِي إِلَيْكَ بَعْضاً مِنْ عَطَايَاكَ،
وَأَنَا الْخَلِيقَةُ فِي الْبَدَنِ، وَالذَّرَّةُ فِي الْمَحِيطِ، وَالْقَطْرَةُ فِي بَحْرِ وَجُودِكَ الْعَظِيمِ.
وَأَنْتَ هِيَ رُوحُ الْحَيَاةِ؛ وَمَنْبَعُ الْفَيْضِ وَالْوُجُودِ.
فَتَبَارَكْتَ أَيَّتُهَا الْأُمُّ الْمُقَدَّسَةُ.

شكر وعرفان..

الشُّكْرُ الْأَوْفَى وَالْإِمْتِنَانُ الْأَصْفَى لِـ «رُوحِ الْحَيَاةِ»، مَنَبَعِ الْإِلَهَامِ وَيَنْبُوعِ
الْمَعْرِفَةِ. كَمَا أَنِّي، وَمِنْ أَعْمَاقِ رُوحِي وَكِانِي، وَمِنْ صَمِيمِ وُجُودِي وَوَجْدَانِي،
أُقَدِّمُ شُكْرًا لِكُلِّ مَنْ سَأَلَنِي يَوْمًا سُؤْلًا يَبْحَثُ فِيهِ عَنْ كَشْفِ حَقِيقَةٍ أَوْ بَيَانِ
مَعْنَى؛ فَلَقَدْ كَانَتْ تِلْكَ الْأَسْئَلَةُ مَقَادِحَ لِلْفِكْرِ، وَمَفَاتِيحَ لِلتَّأَمُّلِ. وَقَدْ كَانَ فِي
الْإِجَابَةِ عَلَيْهَا مَنَفَعَةٌ مُتَبَادَلَةٌ، تَفْعَلُ بِهَا ذَهْنِي وَاسْتِنَارَ بِهَا وَعْيِي، وَنَفَعْتُ بِهَا
مَنْ سَأَلَ. فَإِلَى كُلِّ سَائِلٍ وَمُسْتَفْهِمٍ كَانَ سَبَبًا فِي إِيقَادِ شُعْلَةِ الْفِكْرِ عِنْدِي..

السَّلَامُ وَالْمَحَبَّةُ وَالشُّكْرُ وَالْإِمْتِنَانُ.

توطئة: رؤية حفزتي لنشر الكتاب

كنتُ مُثَقَّلًا بالتعب، فَأَوَيْتُ إِلَى فراشي أَطْلُبُ شيئاً من السكينة. فغفوتُ، وإذا بالألم الأولى، روح الحياة، تُقبل عليّ في رؤيا بهية، وقد تجسدت في حلة نورانية من مكنونات عقلي الباطن¹ وما يحمله من صورة لروح الحياة، نفاطبتني بصوتٍ يفيض عتاباً وسلاماً: «أيها البارُّ، لِمَ هذا العقوق؟ ولمَ بعد الصفاء هذا الجفاء؟ ولمَ بعد الوصالِ هذا الانقطاع؟»

فرفعتُ إليها بصري، فرأيتُ نوراً منها يخالط نوراً مني، فقلتُ: «يا ربةَ الحُسْن، يا أمَّ جميع الموجودات، يا سرَ الذاهب والآتِ، ويا نبغَ الحياة، لقد ناديتُ القومَ فما سمعوا، وإن سمعوا فما فهموا، وإن فهموا سرعان ما نسوا. أريهم نورَكَ فيؤثرون الظلال، وأفتح لهم الأبوابَ فيلوذون بالمغاليق، وتضلُّهم شياطينُ الدين وأوهامُ المتاجرين بالمقدس.»

فتبسَّمتُ ابتسامةً يختلط فيها الحزنُ بالأمل، ثم أنشدتُ أبياتاً للمكرون السنجاري²:

لَبَّيْتُ لَمَّا دَعَتْنِي رَبَّةُ الْحُجْبِ وَغَبْتُ عَنِّي بِهَا مِنْ شِدَّةِ الطَّرَبِ

وَأَحْضَرْتَنِي مِنْ غَيْبِي لِتَشْهَدَنِي بِجَمَالِهَا فِي حِجَابٍ غَيْرِ مُحْتَجِبٍ

¹ العقل الباطن (Subconscious Mind): مفهوم يعبر عن مستودع نفسي لا واع، يحفظ الأفكار، والخبرات، والذكريات، والمحفزات المخبوءة دون إدراك مباشر من العقل الواعي. والمقصود به في هذا السياق: ذلك الجانب العميق في النفس الذي يعمل كـ "قناة اتصال" أو "مرآة" تنعكس عليها صور الوجود وتجلّي من خلالها "روح الحياة" للذات الإنسانية في حالات التصفية الروحية كالرؤى والمشاهدات.

² المكرون السنجاري (583 - 638 هـ / 1187 - 1240 م): هو الأمير عز الدين الحسن بن يوسف المكرون السنجاري، سليل أمراء جبل سنجار (في العراق والساحل الشامي). كان قائداً عسكرياً بارزاً، وفيلسوفاً متصوفاً، وشاعراً مبدعاً تتضح أشعاره بفكرة "وحدة الوجود" والمحايثة والشهود العرفاني. يُعد من أعلام الفكر العرفاني الذين كرسوا شعرهم لبيان سريان المعنى والمطلق في صور المادة والموجودات.

مَشْهُودَةٌ لَا يَرَاهَا فِي الْأَنَامِ بِهَا خَلَقْتُ، وَقَدْ شُوهِدَتْ فِي كُلِّ مُرْتَقَبٍ
مَوْصُوفَةٌ لَمْ أَصِفْ إِلَّا وَصِفْتُهَا وَهِيَ الْعَلِيَّةُ عَنْ نَظْمِي وَعَنْ خُطْبِي

ثم قالت: «لا تيأس من بني الإنسان، فكم من بذرة نامت سنين في باطن الأرض ثم
أزهرت، وكم من كلمة ظن أنها ضاعت في الريح، فإذا بها تُبعث يوماً في قلبٍ مُهَيَّأٍ
لسماعها. امض في طريقك، فإن للحقِّ مواقيتَ وآجالاً، ولكلِّ فجرٍ ساعةٌ مقدَّرةٌ، وإن
طال انتظارها.»

فاستيقظتُ من نومي، وما زال صدى كلماتها يتردد في نفسي، كأنما كانت الرؤيا عهداً
جديداً بيني وبين روح الحياة.

مقدمة الكتاب: نحو رؤية كونية لأبناء النور

إلى العقول الحرة التي لم تركز يوماً إلى التسليم المطلق للموروث، وإلى الباحثين عن الحقيقة وسط العقبات الكؤود، وإلى أولئك الذين نظروا وراء الظاهر والمألوف ومدّوا أبصارهم نحو الأفق البعيد؛ إليكم جميعاً، يا أبناء النور وطلاب المعرفة، سلاماً ومحبة.

على امتداد التاريخ البشري، لم يكن الإنسان يبحث عن المعرفة وحدها، بل كان يبحث أيضاً عن المعنى الكامن وراء وجوده في هذا الكون العظيم. أراد أن يعرف من أين جاء، ولماذا وُجد، وإلى أين يمضي، وكيف ينبغي أن يعيش، وما الذي يجعل حياته جديرة بأن تُعاش. ومنذ فجر الحضارات، ظهرت محاولات لا حصر لها للإجابة عن هذه الأسئلة الكبرى؛ فأنشأت الأديان عقائدها، وبنّت الفلسفات تصوراتها، وشيّدت الأمم منظوماتها الفكرية والأخلاقية. ومع ذلك ظل الإنسان، في كل عصر، يعود إلى الأسئلة ذاتها؛ لأنها جزء من بنيته العميقة التي لا تهدأ.

وفي عصرنا الحاضر، ورغم ما حققته البشرية من تقدم علمي ومعرفي غير مسبوق، ما زال كثير من الناس يعيشون حالة من التشتت والاعتراب وفقدان المعنى. لقد تعلم الإنسان كيف يفكك الذرة، لكنه لم يتعلم بعد كيف يسبر أغوار نفسه. واستطاع أن يستكشف أعماق الفضاء، لكنه ما زال حائراً أمام أسئلة الوعي والوجود والمصير.

ولطالما أحسست، وأنا أتأمل ثنائيات هذا العالم، أن الإنسان المعاصر يعيش في فجوة يصعب احتماؤها؛ إذ تتجاوزه مسارات متناقضة. فمن جهة، تقف أديان تقدم أجوبة جاهزة عن أسئلة الوجود، لكنها كثيراً ما تسلب الإنسان حق التساؤل، وتدفعه إلى

الارتهان للموروث والتفسيرات السطحية والخرافية، وتضعه أمام خيار واحد: إما أن يؤمن بكل شيء، وإما أن يفقد كل شيء.

ومن جهة أخرى، تقف رؤية مادية تمنحه أدوات العقل والتحليل، لكنها تجرده من المعنى والغاية، وتختزل وجوده إلى ذرة تائهة في كونٍ أصم لا يبالي بوجوده ولا بأسئلته.

وبين هذين الاتجاهين بقيت أسئلة الإنسان الكبرى معلقة، وبقيت الحاجة قائمة إلى رؤية كونية تحاول الجمع بين حرية العقل وعمق المعنى، دون الارتهان إلى الموروث من جهة، أو الوقوع في الاختزال المادي من جهة أخرى. رؤية لا تقوم على الخوف بل على الامتنان، ولا على الطاعة العمياء بل على الوعي، ولا على احتكار الحقيقة بل على السعي الدائم إليها. ومن هنا جاء هذا الكتاب: «روح الحياة: الرؤية الكونية لأبناء النور».

لم أكتب هذا السفر لأضيف رأياً عابراً إلى سوق الآراء، أو لأبني مذهباً فكرياً مغلقاً، ولا لأؤسس ديناً جديداً يطالب الناس بالتسليم المطلق والطاعة العمياء؛ بل كتبت لأنني رأيت فراغاً شاسعاً يفصل الإنسان المعاصر عما يُقدّم له من أجوبة وجودية جاهزة. إنه فراغ يمتد بين العقل والمعنى، وبين المعرفة والحكمة، وبين الحرية والمسؤولية، لينتهي بالإنسان مغترباً عن ذاته وعن الكون من حوله.

ولم يولد هذا الكتاب من إلهام مفاجئ أو خاطر عابر، بل هو ثمرة سنوات طويلة من التأمل والبحث والمخاض الفكري. إنه يمثل عصارة ومراجعة فكرية شاملة لما طرحته سابقاً في مقالاتي وحلقاتي الصوتية المتفرقة؛ تلك التي تبلورت أسسها وتعززت أبعادها بفعل الأسئلة والنقاشات التي كانت ترد إليّ، فتوقظ في الذهن مسارات جديدة

للتفكير، وتحوّل الإجابات من ردود عابرة إلى نوافذ أوسع لفهم الإنسان والوجود. وقد جمعت شتات تلك الرؤى وصهرتها في بناء فكري واحد أكثر وضوحاً وترابطاً، يسهل على القارئ تتبعه واستيعاب أبعاده المتكاملة.

إن «رؤية روح الحياة» ليست مجرد نظرية تبحث في أصل الكون، ولا معالجة لمسألة فلسفية معزولة، بل هي محاولة لجمع خيوط متفرقة طالما عولجت بمعزلٍ عن بعضها البعض. إنها إطار معرفي وأخلاقي شامل يتناول أصل الوجود، وطبيعة الإنسان، وبنية العقل، وكيفية تشكّل المعتقدات، ومعاني الأخلاق، وأسس المجتمع، والسياسة، والحرية الفكرية، وقيمة الامتنان، ودور الوعي الفردي والجمعي في ارتقاء الحضارة. وقد صيغ هذا كله بأسلوب واضح ومبسّط ومركّز، ليعين الإنسان على فهم موقعه في هذا الوجود، ويمنحه الشجاعة لمواجهة أسئلة الحياة الكبرى دون خوف، ولبناء شخصيته على أساس من الوعي لا التقليد، والفهم لا التلقين.

وأطمح أن تسهم هذه الرؤية الكونية في بناء إنسان أكثر اتزاناً ووعياً؛ إنسان لا تحركه المخاوف الموروثة ولا الأوهام المفروضة، بل يقوده عقل متسائل، وقلب منفتح، وإرادة مسؤولة. كما أرجو أن تضع هذه الرؤية لبنّةً في تأسيس مجتمع مستنير يقوم على التفكير الحر، واحترام الإنسان، وتقدير المعرفة، وإعلاء قيمة الحوار فوق التعصب، والبحث فوق الجمود، والحقيقة فوق الخرافة. فالأهم لا تنهض بالقوة المادية وحدها، ولا بوفرة الثروات، ولا بالتقدم العلمي والتقني فحسب؛ وإنما تنهض أولاً حين تمتلك رؤية واضحة للإنسان والحياة. وحين يفقد المجتمع هذه الرؤية، تتشظى جهوده وتتفرق مقاصده مهما امتلك من أسباب القوة المادية.

إنني لا أزعّم أن هذا الكتاب يمتلك الحقيقة النهائية، ولا أدّعي أنه يغلق أبواب البحث، بل على العكس من ذلك؛ فغايتة أن يفتح آفاقاً أوسع للتأمل، وأن يمنح القارئ الشجاعة الفكرية لمساءلة الأفكار وفحص المسلمات دون وجل. فإذا استطاع أن يمنح باحثاً قدراً من الوضوح، أو يخفف حيرة سائح إلى الحقيقة، أو يعين قارئاً على بناء علاقة أعمق مع نفسه ومع الوجود، فأحسب أن الجهد الذي بُذل فيه قد بلغ غايته.

لذا أدعوك، أيها القارئ الكريم، إلى أن تدخل هذه الرحلة بعقلٍ منفتح لا مستسلم، وبروح الباحث لا المقلّد. لا أطلب منك الإيمان الأعمى بكل ما تقرأ، بل أطلب أن تمنح نفسك فرصة حرة للتدبر والتفكير؛ فالحقيقة لا تخشى النقد، والمعرفة الحية لا تنمو ولا تزدهر إلا في فضاء التساؤل والبحث الحر المستمر.

شمس الدين المحسن (شمس المحسن)

مِنْ رَهَابِ أُمَّتِ الْأَرْضِ - 2026

الفصل الأول

من العَماء إلى الصادر الاول

تنويه وتنبيه لا بد منه:

إن المعاني الكبرى لا تستقر في الوجدان من وهلة واحدة، بل تحتاج إلى تدرج وتأصيل لتجذر في العقل. لذا، قد يلاحظ المتأمل في فصول هذا الكتاب تعمداً لأسلوب الإجمال يتبعه التفصيل، وتكراراً وظيفياً مقصوداً لبعض المفاهيم المحورية المتعلقة بـ «روح الحياة» وتجلياتها. لقد اعتمدتُ في بسط هذا الطرح على هذه المنهجية حرصاً على تركيز المعلومات وترسيخ هذه الرؤية الكونية في الأذهان، وتحديدًا للقارئ الكريم الذي يتلقى هكذا اطروحة لأول مرة ولم يسبق له مواكبة مسارها المتدرج في حلقاتنا السابقة. فقد صُغنا هذا السفر ليكون دليلاً وتأسيساً متيناً يضمن استيعاب المفاهيم بيسر وعمق، لتركز المعرفة وتكتمل الرؤية.

في البدء لم تكن الكلمة

تقول الأديان الإبراهيمية إن الخلق بدأ بالكلمة. ففي التوراة: «وقال الله: ليكن نور، فكان نور». وفي الإسلام: «إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون». وهكذا تُقدّم الكلمة بوصفها الشرارة الأولى التي انطلق منها الوجود.

أما رؤية «روح الحياة» فتختلف عن ذلك جملةً وتفصيلاً. فنحن لا نرى أن الكلمات أو المفاهيم أو الأسماء كانت موجودة في الأصل الأول، ولا نرى أن التكوّن الكوني بدأ بلغة أو أمر أو خطاب.

في البدء لم تكن كلمة؛ إذ لم يكن ثمة معنى، بل كان ثمة فيضٌ من الذات وإلى الذات. الكلمات لا تقوم إلا بين مخاطب ومخاطب مختلفين. أما حين يكون الأمر متعلقاً بالذات وحدها، فلا يكون هناك «أنا» و«آخر»، ولا حاجة إلى لغة أو كلام. فكيف تكون هناك كلمة في الأصل الأول، ولم يكن هناك شيء منفصل عن روح الحياة حتى تتخاطبه؟

لهذا فإن روح الحياة، في حالتها الأولى، لم تكن تتخاطب بالكلمات، وإنما تفاعلت بذاتها ولذاتها. فما حدث في البداية لم يكن أمراً موجهاً إلى موجود آخر، بل انبثاقاً جوهرياً من الداخل. لم تكن بحاجة إلى أن تقول لنفسها «كن»، لأن الفعل والذات وما ينبثق عنهما كان أصلاً واحداً.

وقبل أن تولد الكلمات وتتشكل المعاني، كان الوجود ينبثق من جوهره، حياً، سابقاً ومتجاوزاً لكل تسمية ووصف. فلم يكن هناك «معنى» بالمعنى الوظيفي الذي نعرفه؛ لأن المعنى يتطلب علاقة بين دال ومدلول، وبين عاقل ومعقول. أما في تلك المرحلة فلم تكن هناك لغة تُقال، ولا أوامر تُطلق، ولا عاقل يقف خارج روح الحياة ليتلقى أمراً.

ولذلك لا معنى لأمر «كن» هنا؛ فالأمر لا يكون إلا بين حقيقتين منفصلتين. أما هنا فلم تكن هناك ثنائية بين أمر ومأمور، وإنما كانت روح الحياة هي الحقيقة الواحدة التي تفاعلت بذاتها ولذاتها، فانبثق عنها الصادر الأول.

في حالة العماء³ التام لم يكن هناك اسم ولا وصف ولا صورة يمكن لعقل أن يحيط بها. كانت هناك حقيقة كامنة، وطاقة حية في ذاتها، لا يوجد سواها. ولهذا فإن الانبثاق الأول هو انبثاق ذاتي؛ أي إن الوجود كان فيضاً تلقائياً وحركة جوهرية نابعة من داخله، حيث الفعل والفاعل والمفعول في أصل الحقيقة شيء واحد.

فالوجود لم يُخلق استجابةً لغاية خارجية، وإنما تحقق لأنه هو؛ وانبثق لأنه يحمل في ذاته إمكانية الانبثاق. لقد ظهرت روح الحياة من ذاتها وفي ذاتها، وكان الصادر الأول هو أول ظهور لما كان كامناً فيها، والبذرة الأولى القابلة لكل صورة وكل تشكل.

³ العماء (Al-Ama): مصطلح ميتافيزيقي وعرفاني يشير في أصله اللغوي إلى "الغمام الكثيف" أو "الخفاء التام". أما في المفهوم الفلسفي والوجودي، فهو طور الكُمون المطلق والظلمة البدنية التي سبقت خلق الأكوان؛ حيث كانت "العجينة الكونية الأولى" (الهيولى) في حالة وحدة مطلقة وغير متميزة. وفي سياق رؤية «روح الحياة»، يمثل العماء "الرحم الكوني الأول" الذي انطوت فيه كل المعاني والبذور الكامنة في حالة سكون صامت، مستعدة للانفجار والانبثاق إلى نور الوجود والتشكل فور سريان الإرادة المحركة فيها.

يمكن أن نسمي ذلك انفجاراً أو انبثاقاً أو ولادة أولى أو بداية كونية كبرى. غير أن هذه الأسماء أو التسميات لا تغير من الحقيقة شيئاً، وإنما تعبر عن حدود إدراكنا ومحاولة تقريب ما يتجاوز اللغة.

ومن ذلك التفاعل الأول بدأ التمدد والتوسع، وتحولت الإمكانيات الكامنة إلى صور وأشكال ومسارات. فظهرت البنى الأولى للوجود، وتشكلت القوانين، وظهر كل ما ندركه اليوم بل وكل ما لا يزال خافياً عنا.

ومن حيث المادة يمكن أن نسمي هذا الامتداد المتشعب «شجرة الحياة» لأنها الصورة التي تفرعت منها الموجودات وتنوعت صورها. ومن حيث الحقيقة الكلية التي ظهر بها هذا الوجود وقام فيها، نسميها «روح الحياة».

وهنا لا أقصد بكلمة «الروح» معناها التقليدي الذي ورثته الأديان والفلسفات عبر العصور، ولا ذلك المفهوم الذي ارتبط بالأشباح أو الأرواح الفردية أو الكيانات الغيبية المتصورة في الخيلة الدينية. وإنما أقصد بها حقيقة أخرى ينبغي أن تفهم من خلال ذاتها ومن طبيعتها الخاصة، لا من الدلالات التاريخية التي التصقت بالكلمة عبر القرون السابقة. إنها روح كلية، حية، قديمة بقدم الوجود نفسه. وليست شخصاً جالساً على عرش في جهة من الجهات، ولا كياناً منفصلاً عن الكون يدير شؤونه من خارجه، بل هي حقيقة الوجود الحية نفسها؛ الحقيقة التي تقوم بها الموجودات وتنتظم من خلالها القوانين.

ولهذا لا أتصورها إلهاً متشخصاً على الصورة التي تقدمها التصورات في الأديان الإبراهيمية. فالقول بوجود إله منفصل عن الكون يفتح أسئلة لا تنتهي حول المكان

والخيز والجهة. أما في رؤية روح الحياة فلا يوجد هذا الانفصال؛ فالوجود قائم بها، وهي ظاهرة في مظهره ومتفاعلة في مساراته.

وبعد أن بسطنا هذه الرؤية الإجمالية، تتجه بوصلتنا الآن نحو التفصيل. سنفكك تلك المراحل الأولى لفهم طبيعة الأصل، وآلية الانبثاق، وما تخض عنه من تنوع هائل في مسارات الوجود.

ولكن قبل أن نخطو في هذا المسار، يجب أن نتوقف عند عتبة الإدراك. فنحن اليوم، في ذروة وعينا الإنساني، نقف أمام معضلة كبرى حين نتأمل أصل الوجود: إننا نسأل عن "المطلق" بأدوات "مقيّدة". نسأل عن الأصل بأدوات وإحداثيات لم تولد إلا بعد ظهور الأشياء؛ فنحن لا نفكر إلا من خلال الزمان، والمكان، والصورة، والجهة. وهذا القصور الإدراكي هو ما دفع المخيلة البشرية قديماً إلى حصر الإله في سماء أو جهة، وتخيّل عملية الخلق كأمر يقع بكلمة "كن".

ولكي نستوعب رؤية "روح الحياة"، علينا أن نتحرر مؤقتاً من المفاهيم الجاهزة والصور النمطية التي توارثناها. وهذا التحرر ليس انتقاصاً من الموروث، بل هو شرط لا غنى عنه لانفتاح البصيرة على حقيقة لا تحدّها الأبعاد. ومن هذا المنطلق، لزم التنويه بأننا وإن استعرنا ألفاظاً متداولة، فإننا ننزع عنها أثوابها التاريخية التي ألبستها إياها الأديان والفلسفات، لنكسوها حلاًّ جديدة؛ ودلالات تتسع لاستيعاب النبض الحقيقي للوجود.

الأصل السابق على الصورة المادية

في هذه الرؤية نقول: كان هناك أصل سابق على صورته المادية المعروفة؛ أصل من النور والطاقة والحياة، سابق على الكواكب والنجوم والمجرات، وسابق على الأزمنة والأمكنة كما نفهمها اليوم. وهذا الأصل الأول لم يكن بحاجة إلى سماء يستقر فيها ولا لجهة يكون فيها، إذ لم تكن حينئذٍ سماءً ولا أرضاً ولا جهاتٌ يُشار إليها، لأنه كان قائماً بذاته قبل الزمان والمكان ومدرَكًا لذاته من حيث هو.

لكن السؤال المعرفي العميق هنا هو: ما طبيعة هذا الأصل، وفي أي حال كان قبل أن يقع عنه الانبثاق الأول؟ أو ماذا كان قبل هذا الوجود الزمكاني الذي نعرفه؟

إن الحديث عن بداية الكون لا يلغي السؤال عن أصل تلك البداية، بل ينقله إلى مستوى أعمق؛ لأن البحث في «متى بدأ؟» يقود بالضرورة إلى سؤال: ما طبيعة ذلك الأصل السابق للصورة الكونية؟ ويأتي جواب هذا السؤال متمثلاً في مفهوم: العماء الوجودي الأول.

حالة العماء الأول

العماء⁴ هنا ليس عدماً محضاً، وليس فراغاً خالياً من كل شيء، وليس هو «اللاشيء» الذي يتصوره الذهن عندما ينفي جميع صور الوجود. بل هو حالة روح الحياة في كمونها الأول وخفائها التام؛ حالة لم تكن قد دخلت فيها بعد في طور التفاعل والصدور، وكانت حينها جميع قدراتها وإمكاناتها وصفاتها كامنة فيها، ولم تكن قد ظهرت بعد في صورها المتعددة.

ولذلك فإن استعمال لفظ «العماء» لا يعني الحديث عن ظلام مادي، أو فضاء معتم، أو مكان مجهول يقع في جهة من الجهات. إنما هو لفظ نستعير به معنى أقرب إلى الفهم، لأن اللغة البشرية عاجزة عن الإحاطة الكاملة بما نتحدث عنه هنا؛ فاللغة نفسها ابنة هذا العالم ونتاج من نتائجه، بينما نحن نحاول الحديث عن حالة سبقت العالم بصورته المعروفة، وسبقت المكان والزمان والأشكال والحدود التي ندركها اليوم.

ولو حاولت أن تتخيل دائرة لا نهاية لها، ثم بحثت عن موضع خارجها، فلن تجده؛ ولو سرت فيها يميناً أو يساراً، شرقاً أو غرباً، فلن تبلغ حافة ولا نهاية. وهذا المثال ليس وصفاً هندسياً للعماء، إنما هو مجرد تقريب لمعنى اللامحدود إلى ذهن الإنسان المحدود. فالعماء ليس مكاناً، وليس شيئاً يمكن رسم حدوده، بل هو حالة روح الحياة الأولى

⁴ العماء (Al-Ama): مصطلح ميتافيزيقي وعرفاني يشير في أصله اللغوي إلى "الغمام الكثيف" أو "الخفاء التام". أما في المفهوم الفلسفي والوجودي، فهو طور الكُمُون المطلق والظلمة البدنية التي سبقت خلق الأكوان؛ حيث كانت "العجينة الكونية الأولى" (الهيولى) في حالة وحدة مطلقة وغير متميزة. وفي سياق رؤية «روح الحياة»، يمثل العماء "الرحم الكوني الأول" الذي انطوت فيه كل المعاني والبدور الكامنة في حالة سكون صامت، مستعدة للانفجار والانبثاق إلى نور الوجود والتشكل فور سريان الإرادة المحركة فيها.

التي سبقت ظهور الحدود نفسها، وسبقت ظهور المكان والزمان والصورة، حيث كانت روح الحياة تحمل في ذاتها قدرات وإمكانات لا حصر لها، لكنها لم تكن قد تفاعلت بعد، ولم يكن قد صدر عنها شيء.

بين العدم المحض والعماء

إن العدم المحض⁵ لا يحمل قدرة، ولا إمكانية، ولا صفة، ولا استعداداً للظهور؛ فالعدم الخالص لا يمكن أن يكون مصدراً لشيء؛ لأن فاقده الإمكان لا يمنح الإمكان، وفاقد الشيء لا يعطيه، ولا يمكن أن يصدر شيء من لا شيء.

أما العماء الذي نتحدث عنه هنا فليس عدماً بمعناه المحض الصرف؛ فالعدم المحض هو اللاشيء المطلق، أما العماء فهو «لا شيء» إذا قيس إلى الصور والظهورات المادية التي نعرفها اليوم، لكنه "كل شيء" من جهة ما ينطوي عليه من قدرات كامنة وإمكانات غير متجلية وصفات لم تظهر بعد في عالم الصورة. هو شيء من حيث حقيقته ولا شيء من حيث مادته.

⁵ العدم المحض: هو النفي المطلق والكامل لكل ما يمت للوجود بصلة، سواء كان مادة، أو طاقة، أو وعياً، أو حيزاً، أو حتى إمكاناً عقلياً. وفي المفهوم الفلسفي والوجودي، هو النقيض التام لـ "الوجود". ويُستدعى في فلسفة النشأة للتأكيد على قانون السببية؛ حيث يستحيل أن ينبثق الوجود أو تتخلق الصفات والبذور الكامنة من "عدم محض"، بل لا بد لها من أصل كوني أول (كالعجينة الأولى أو الهبولى) تنبثق وتتحول منه.

وكان هذا العماء هو روح الحياة في حالتها الأولى من الكُمُون^٦ والخبفاء، وهي الأصل الأول الأزلي الذي لا بداية له، ممتداً في حالة من «الحمول العظيم»، وحاملاً في طياته صفات وقدرات هائلة ومتنوعة، لكنها قدرات كامنة وساكنة.

ثم، حين تفاعلت روح الحياة بذاتها ولذاتها، وانتقلت من حالة الكُمُون والخبفاء إلى حالة الفعل والصدور، صح أن نعبر عنها بـ «المصدر»؛ لأنها أصبحت مصدراً للمصادر الذي انبثق منها وفيها، وما زال قائماً بها وفيها.

ولتقريب المعنى، يمكن أن نشبه ذلك بالنار الكامنة في الزناد؛ فأنت لا ترى اللهب قبل انقداح الشرارة، لكن غياب اللهب عن بصرك لا يعني أن إمكانية الاشتعال غير موجودة. فالنار كامنة بالقوة قبل أن تظهر بالفعل، وكذلك كانت روح الحياة في حالة العماء؛ كامنة في أصلها، ساكنة في طورها الأول، لا بمعنى العجز أو الفراغ، بل بمعنى الكُمُون والاستعداد.

^٦ الكُمُون لغة: تأتي الكلمة من الجذر الثلاثي (كَمَنَ)، وتعني الاستتار، والاختفاء، والتواري عن الأنظار. يُقال "كَمَنَ الشيء" أي خَفِيَ واستتر، ومنه سُمي "الكمين" لأن أصحابه يَخْتَفُونَ فيه انتظاراً للحظة الظهور أو الهجوم. اصطلاحاً: يُشير الكُمُون إلى حالة السكون أو الخفاء المؤقت التي يمر بها شيء موجود فعلياً ولكنه لم يُظهر تأثيره أو نشاطه بعد. يتباين استخدام هذا المصطلح بحسب المجال العلمي: في الفيزياء: يعبر عن "الطاقة الكامنة"، وهي الطاقة المخزنة في الجسم بحكم وضعه أو حالته، والتي لم تتحول بعد إلى طاقة حركية ظاهرة.

المصدر والصادر الأول

حين تنتقل روح الحياة من طور الكُّون الخفي (العماء) إلى طور الفعل والظهور، يصحُّ فكرياً أن نعتبرها "المصدر"؛ لأنها غدت أصل البداية للمصادر الذي انبثق منها، وما زال قائماً بها وفيها.

والمصدر⁷ هو الحقيقة المطلقة الأولى التي يتعذر على العقول القاصرة الإحاطة بكنه ذاتها إدراكاً تاماً، وكل ما يمكننا بلوغه هو التدبر في آثارها ومظاهر تجلياتها، أما ذاتها قبل التعين فتبقى أرحب من أن يطوقها وصف أو يحيط بها تصور.

أما الصادر الأول فهو الابتداء الفعلي والظهور الأول لروح الحياة؛ إنه التحقق العيني لما كان كامناً في المصدر من قوى وإمكانات، وأول صورة مادية قابلة للتشكل والتنوع. وإذا أردنا تقريب المعنى، فالصادر الأول هو الرداء الكوني الوجودي الذي ظهرت به روح الحياة، وهو بمثابة النسيج القابل لأن تُصاغ منه كل الهيئات والصور اللاحقة.

إن التمييز بين المصدر والصادر بالغ الأهمية؛ فمعظم الالتباسات الفلسفية واللاهوتية نشأت تاريخياً من الخلط بين "الأصل الأول" و"أول صورة تبدّت منه". ونحن هنا لا

⁷ المصدر والصادر: ثنائية ميتافيزيقية تشرح أصل النشأة وعلاقة الأصل بالموجودات. في الفلسفات التقليدية (كنظرية الفيض)، يُعرف المصدر بأنه العلة الأولى المفارقة، والصادر هو الكون الذي يفيض عنه وينفصل في مرتبته ليحكم من الخارج. أما في رؤية «روح الحياة»، فيتحوّل المفهوم جذرياً؛ إذ لا انفصال بينهما، بل هما وجهان لحقيقة واحدة. المصدر هو "روح الحياة" (الأم الوجودية الشاملة والإرادة الباطنة)، والصادر هو نحن وكافة الكائنات التي انبثقت من ذات العجينة الأولى (الهيولى). وما نراه في صور الموجودات المادية وتنوعها ليس انفصلاً عن المصدر، بل هو تجلٍّ وسرياناً للمعنى الكوني في صور المادة؛ فالصادر في رؤيتنا يظل متصلاً بمصدره ونامياً في أحشائه اتصال الجنين بالرحم والقطرة بالحيط.

نتحدث عن أصل منفصل عن مظهره، بل عن حقيقة واحدة تختلف أوصافها باختلاف أحوالها واعتباراتها:

- فروح الحياة في طور خفاءها المطلق هي العماء.
- وفي طور فيضها وصدور الأشياء عنها هي المصدر.
- وأول تجلٍ عيني لها هو الصادر الأول.

فالأزلية والسرمدية وصفان لجوهر روح الحياة ذاتها، بوصفها أصلاً مطلقاً لا يحده ابتداء ولا يطيويه انتهاء؛ أما الصادر الأول فله دقيقة ابتداء من حيث انبثاقه وظهوره، وهي اللحظة التي دشنت السلسلة الهائلة من التحولات والتشكلات الوجودية التي لا نعرف لها نهاية.

ولعل هذا المعنى الوجودي العميق هو ما لامسه حكيم الصين العظيم «لاوتسو»⁸ قديماً في مقاربتة لفلسفة «الطاو»؛ إذ استشعر بحدسه الفلسفي الفارق الدقيق بين الأصل المتواري، والظهور الأول الذي تفرعت منه الأكوان، حين قال:

«الطريق الذي يمكن التحدث عنه ليس هو الطريق الخالد، والاسم الذي يمكن تسميته ليس هو الاسم الخالد. اللا-مُسمى هو أصل السماء والأرض، والمُسمى هو أم الأشياء كلها.»

⁸ لاوتسو (Lao Tzu): حكيم وفيلسوف صيني قديم، عاش في القرن السادس قبل الميلاد خلال عصر سلالة "تشو" التاريخية (فترة الربيع والخريف). يُعدّ المؤسس الفعلي للمدرسة "التاوية" (الطاوية) الفلسفية، وصاحب الكتاب الشهير "تاو تي تشينغ" (Tao Te Ching) المعروف في المكتبة العربية بـ "إنجيل الحكمة التاوية" أو "كتاب الطريق والفضيلة"، وهو نص فلسفي وروحي عميق يدعو إلى التناغم مع الطبيعة، والعيش ببساطة، واعتماد مبدأ "اللا-فعل" (Wu Wei) لتحقيق السلام الداخلي، وقد تركت أفكاره أثراً ممتداً في الثقافة الصينية والشرق آسيوية لقرون طويلة.

إن التأمل الدقيق في هذه المقولة يكشف لنا تقاطعاً جلياً مع رؤيتنا، ولكنه يحمل في الوقت ذاته إجمالاً عاجته وفصلته رؤية «روح الحياة».

فما دعاه لاوتسو بـ «اللا-مُسمّى» هو أقرب ما يكون إلى ما نُسميه «المصدر»؛ ذلك الأصل المتعالي عن الأوصاف والحدود. غير أنه لم يفصل بين المصدر وبين طور العماء والكُمون السابق له. أما ما أسماه بـ «المُسمّى» أو «أم الأشياء» فيتقاطع مع ما نطلق عليه «الصادر الأول»؛ ذلك الرداء الوجودي، أو العجينة الأولى الصالحة لكل شكل، والتي ظهرت من وجودها المادي سائر الموجودات.

إلا أن الحكيم الصيني، في ومضته الفلسفية تلك، لم يمنح طور «العماء» وجوداً مفهوماً مستقلاً، بل جمعه ضمن مفهوم «اللا-مُسمّى». لقد انتقل مباشرة من الذات المطلقة المحجوبة إلى التجلي الأول، مغفلاً طوراً بالغ الأهمية، ألا وهو طور «العماء» أو «روح الحياة في طورها الأول». فحالة العماء والكُمون التي كانت عليها روح الحياة قبل صدور الصادر الأول لم تُذكر في الفلسفة الطاوية على نحوٍ متميز، بل أُدرجت ضمن مفهوم «اللا-مُسمّى» دون تفريق بين روح الحياة في حال الكُمون، وروح الحياة بعد أن أصبحت مصدراً للصادر الأول.

ولقد تلمس الحكماء عبر التاريخ هذه الحقيقة الكبرى برؤى متباينة واقتربوا من تخومها، غير أن رؤية «روح الحياة» تتوسع في تفكيك مسارات هذا الانبثاق بدقة أشد؛ فتفصل بوضوح بين العماء، والمصدر، والصادر الأول، وتبين العلاقة الوجودية التي تربط بينها. وبهذا التفصيل الدقيق، تكشف رؤيتنا خفايا لم يفتن لها القدماء، وتضيء مناطق ظلت

غامضة في الفكر الإنساني، وتقدم إجابات لأسئلة وجودية استعصت على الحكماء عبر العصور.

ومن هنا نصل إلى طبيعة الصادر الأول، وما يحمله من إمكانيات، وكيف بدأت من خلاله رحلة التكوين والتشكل.

الصادر الأول والعجينة الأولى

إننا لا نتعامل مع هذا الانبثاق الأول بوصفه خلقاً إرادياً من عدم محض، ولا نعتبره فعلاً سحرياً مباغتاً وقع بلا تدرج أو علل؛ بل نراه ظهوراً طبيعياً متدفقاً لقدرة كانت كامنة في ذات روح الحياة. إنه التفاعل الجوهرى الذي أنتج انبثاقاً أولياً يمثل "العجينة الكونية الأولى" التي تخلّقت منها الموجودات كافة.

قد يطلق الفلكيون المعاصرون على هذا الانبثاق اسم «الانفجار الكبير»، وقد يدعو آخرون «الجرثومة الوجودية الأولى» أو «الخلية الكونية الأم». ونحن لا نرهن الحقيقة بالألفاظ؛ فلو تبيّن للعلم مستقبلاً أن هذه التسميات لا تعبر بدقة كافية عن ذلك الحدث الأول، فاستعِض عنها بمصطلحات أخرى أدق، فلن يغيّر ذلك من رؤيتنا شيئاً؛ لأننا لا نقدّس المصطلحات لذاتها، بل نتحدث عن حتمية وجود أصل أول وانبثاق أول، بصرف النظر عن التسمية.

فالألفاظ ليست سوى أدواتٍ لتقريب المعنى، أما الحقيقة فأوسع من اللغة وأعمق من جدران المصطلحات.

إن الصادر الأول هو العجينة الكونية التي اختزنت في ذاتها إمكانات كل ما تجلّ لاحقاً؛ ففي تلك اللحظة لم تكن هناك مجرات، ولا نجوم، ولا خلايا حية، ولا بشر؛ لكن الجوهر الأول القابل لأن يتشكل إلى هذه الهويات كلها كان حاضراً بالقوة والإمكان.

ثم إن الصادر الأول ليس نهاية القصة الوجودية بل مبتدأها؛ فمن خلاله بدأت الكوامن بالتظهر، وتتابع الانبثاقات والتفاعلات المتسلسلة لتبدع صور العالم المادي.

الوجود، في رؤيتنا، ليس مصنوعاً جامداً أنجز كاملاً دفعة واحدة ثم توقف، بل هو مسيرة صيرورة ونشوء مستمر؛ ظهور يقود إلى تشكل، وتشكل يفضي إلى تميز، وتميز يلد تطوراً مستمراً ينتج مستويات وأشكالاً متجددة من الوجود والحياة. إن الكون أشبه بكائن حي في حالة نمو وتطور دائم، مرشح دائماً للظهور والأفول، وللدمار والولادة الجديدة من جديد.

هو كالإنسان تماماً في دورة كينونته؛ يغدو جينياً مستتراً في غيابة الرحم، ثم ينبثق إلى عالم الشهادة طفلاً يرتاد الوجود، فتعظم مداركه رويداً رويداً ويتسع تفاعله مع المحيط. ثم ينطلق بكامل ريعانه وقوته شاباً يافعاً بعد صباه، ليبلغ أشده كهلاً، ثم شيخاً هَرَمًا تخبو جذوة قواه وتذوي طاقاته المادية، بعد أن بلغت مداركه العقلية ذروة اتساعها وعمقها.

وفي نهاية هذا الطواف الإنساني، يضمحل الجسد المادي وينتهي شكله المتعين، لكنه في حقيقة الأمر لا يرتد إلى العدم المطلق؛ بل يتحول إلى تجلٍّ آخر في مسارٍ وجودي

جديد، أو يدخل في كينونة أخرى ممتدة، بينما يظل الجوهر والأصل واحداً ثابتاً كما كان في مبتدأ الرحلة، وإن تنوعت تجلياته، وتعددت مظاهر ظهوره، وتجددت كيفياته عبر مسيرة الوجود.

روح الحياة لا تقل للشيء كن فيكون

تأسيساً على هذا، تسقط في رؤيتنا فكرة الخلق اللخطي الفوري عبر كلمة «كن»؛ فالوجود يتحقق عبر مسارات متدرجة، وغايات مترابطة، وقوانين صارمة تحكم حركة الكون بأسره. ما نسميه بقوانين الفيزياء ليس أوامر اعتبارية تُملَى من مكان خارجي يقف وراء العالم ليتحكم فيه، بل هي جزء لا يتجزأ من طبيعة الوجود وبنيته العميقة. وحتى العقل الإنساني نفسه ليس معزولاً عن هذه السنن، بل هو منبثق منها، متكون في مداها، وخاضع لمقتضياتها كأبي موجود آخر. روح الحياة لا تعمل ضداً لقوانين الكون، بل تتجلى وتتمظهر من خلال القوانين ذاتها. ومن القصص الفلسفية التي علق بذهني منذ سنوات طويلة، هي أن بعض تلاميذ جالينوس⁹ جاءوا إليه وأخبروه أن نبياً كان يدعى موسى، يدعو إلى خالق قادر على أن يخلق من الرماد حصاناً.

⁹ جالينوس (129 - 216 م): طبيب وفيلسوف يوناني بارز عاش في العهد الروماني. تعكس هذه الحكاية التراثية جوهر نص فلسفي حقيقي أورده جالينوس في كتابه الشهير "منافع أعضاء الجسم" (De Usu Partium)، حيث انتقد التصور الديني لمعجزات النبي موسى والقدرة الإلهية المطلقة. ذكر النص في كتاب جالينوس الشهير "منافع أعضاء الجسم" (De Usu Partium)، وتحديداً في "الكتاب الحادي عشر" (المقالة 14).

فقال : «إن موسى يعتقد أن كل شيء يمكن للإرادة الإلهية ان تفعله حتى لو أراد خلق ثور أو حصان من الرماد، أما نحن [الأطباء والفلاسفة اليونانيون] فلا نرى ذلك؛ بل نقول إن هناك أشياء مستحيلة بطبيعتها».

ثم يُقال إنه أخذ قبضة من الرماد بيده وقال: «إن الحصان لا يخرج من هذا الرماد». وسواء صحت هذه الرواية أم لم تصح، فإن الفكرة التي تحملها قريبة مما أراه في رؤية روح الحياة.

فالحياة لا تقفز فوق سندها، بل تنمو من خلالها. ليست العظمة الوجودية في تحويل الرماد إلى حصان في لحظة إعجازية عابرة، بل العظمة الحقيقية تكمن في قيام الأسباب القادرة عبر مسيرة التطور والتفاعل الزمكاني على إنتاج صور الحياة الباهرة وتجديدها المستمر. أن القدرة المطلقة تتجلى في ثبات العلل والروابط، لا في خرقها وتجاوزها.

والكون مسيرة مستمرة من الانبثاق النشوي؛ لذا لا تظهر الكائنات كاملة الصنع في بداياتها، بل تنمو وتتغير، حاملة في طيات حركتها إمكانات النقص والكمال، التقدم والتراجع، النجاح والإخفاق. وما نرصده في عالمنا من أوبئة، وعلل، واضطرابات، ليس دليلاً على فساد الأصل الوجودي، بل هو برهان ساطع على أن الوجود ما يزال في حركة مخاض وتجربة دائمة نحو الارتقاء.

تخيل روح الحياة كبحر عظيم لا يدرك قاعه؛ إذا قذفت فيه بحجر، تحرك الماء اهتزازاً بقدر حجم الحجر وقوة اندفاعه. والحجر هنا هو رمز لـ (الفكرة، المهمة، الإرادة، والعمل المستنير). فكما يستجيب الماء للحركة الواقعة فيه، يتفاعل الوجود حركياً مع ما يصدر عن

الكائن الحي من طاقة وفعل. العالم ليس جداراً ساكناً صامتاً أمام حركتنا، وحركتنا ليست منفصلة عن الديناميكية الكونية الكبرى؛ نحن نسبح في هذا المحيط الشامل، وكل نبضة نرسلها تترك أثراً يرتد ليدخل في شبكة العلاقات التي تصوغ مجرى واقعنا. نحن نؤثر ونتأثر، وكل كائن يؤثر في مسيرته وفقاً لحجم همته وأفكاره.

ومن هذا التفاعل المشترك، تنبثق القاعدة الذهبية لرؤيتنا: لن تحرك روح الحياة ساكناً فينا، ما لم تتحرك سواكنا أولاً.

إنَّ روحَ الحياة لا تمنحُ الإنسانَ أمانهَ لمجرد أنه طلبها شفهيّاً، ولا تستجيبُ له تمييزاً لانتماهه الديني، أو العرقي، أو المذهبي؛ فهي لا تتفاعلُ بالشعارات والانتماهات الجوفاء، بل تتفاعل حصرّاً مع ما ينبثقُ من أعماق الكائن من همة حية، ويقين صادق، وسعي وعمل حثيث، وكل ذلك يتمُّ في إطار القوانين العامة التي تضبط الوجود الكلي. إنها تعامل الجميع بميزان الأسباب والشروط المحقّقة، بعيداً عن المحسوبة أو الامتيازات الموروثة، والأوهام الغيبية المزيفة.

ولا يعني هذا أبداً أن كل نتيجة يصطدم بها المرء في حياته هي نتاج خالص لرغباته الفردية المعزولة، أو أن إرادته لم تتحقق فقط بسبب قصور في أفكاره؛ فالواقع أشدُّ تركيباً وتعقيداً من أن يُختزل في علاقة خطية ساذجة بين الرغبة والنتيجة. إننا نتحرك وسط شبكة معقدة وهائلة من المؤثرات والعلل المتداخلة، تتقاطع فيها إرادات الأفراد مع ظروف البيئة، وحركة المجتمعات، والسنن الكونية العامة.

لكن الإنسان، رغم ذلك كله، ليس كائناً سلبياً أو متلقياً للأحداث فحسب، بل هو طرف مشارك في صناعة الواقع، وجزء حي من حركة الكون المستمرة، وتدخل أفكاره وأعماله وهممه ضمن نسيج هذه الحركة الشاملة.

وهذه الحركة الشاملة التي نحن جزء منها، لا تجري في فراغ ممتد، بل تتحقق ضمن إطار كوني محدد؛ فنحن نعيش في وجود مادي تحكمه الأزمنة والأمكنة. إن الليل والنهار، والساعات والأيام، والسنين والأعوام؛ كل هذه ليست كيانات مستقلة قائمة بذاتها ومعزولة عن العالم، وإنما هي مقاييس وحقائق نشأت أصلاً من حركة الأجرام، وعلاقاتها المتبادلة، ومساراتها المنتظمة. فالزمن الذي نقيس به وجودنا وحركتنا ليس عنصراً دخيلاً أو منفصلاً عن الكون، بل هو أحد وجوه هذا الوجود، وأبرز تجليات نظامه وانتظامه؛ ومن هذا الانتظام الكوني الشامل، تبرز مسألة الزمن وعلاقتها بالصادر الأول.

الصادر الأول ومسألة الزمن

وبما أن الزمان وليدُ هذا النظام الكوني ومرتبطة بظهوره، فإننا نصل هنا إلى مسألة شديدة الأهمية تتعلق بـ "الصادر الأول" (لحظة الانبثاق).

قد يسأل سائل:

لماذا كانت تلك اللحظة هي لحظة البداية؟

وما الذي ميزها حتى صار فيها الصادر الأول؟

ولماذا لم يحدث الانبثاق قبلها أو بعدها؟

في الظاهر يبدو السؤال منطقياً، لكنه يتضمن افتراضاً يحتاج إلى مراجعة عميقة.

فنحن حين نقول «قبل» و«بعد» فإننا نستعمل مفهوماً زمنياً. لكن الزمان نفسه، في هذه الرؤية، ليس شيئاً سابقاً على الصادر الأول، بل هو من نتائج ظهوره.

فالزمان الذي نقيس به الأحداث ونرتب به الوقائع هو جزء من البنية الكونية التي بدأت مع الانبثاق الأول. وإذا كان الزمن نفسه قد بدأ مع هذا الظهور، فلا يصح أن نتحدث عن «زمن سابق» عليه بالمعنى الذي نعرفه اليوم.

ولهذا لا أرى أن الصادر الأول كان مجرد لحظة بين ملايين اللحظات الأخرى، بل أراه بداية الإطار الذي أصبحت فيه اللحظات ممكنة أصلاً.

فنحن لا نملك زمناً آخر نقارن به زماننا، ولا نملك سلسلة سابقة من المحطات نستطيع أن نضع الصادر الأول داخلها. ولذلك فإن سؤال: «لماذا لم يحدث قبل ذلك؟» يفترض وجود «قبل» بالمعنى الزمني المعروف، بينما هذا المعنى نفسه لم يكن قد ظهر بعد.

إن الصادر الأول هو بداية النسق الذي نشأت فيه الحركة والتعاقب والامتداد والتغير، وهو النقطة التي أصبح معها الحديث عن الزمن ممكناً.

وبعبارة أخرى أقول: لا توجد أزمنة متعددة سبقت الانبثاق ليم الاختيار من بينها؛ فالزمان لم يكن موجوداً قبل العجينة الأولى، وعندما انفجرت الطاقة التي أظهرت الكون المادي، وجد الزمان معها. وعليه، فإن الذي ميز تلك اللحظة هو أنه «لا توجد لحظة غيرها»؛ فهي اللحظة الوحيدة التي انبعث معها الزمان ذاته، ولا يصح السؤال بـ«لماذا حينها؟» لا تنفاء وجود الـ«حين» قبلها.

ومن هنا فإن الصادر الأول ليس حدثاً صغيراً وقع داخل تاريخ طويل، بل هو بداية التاريخ نفسه، وبداية الإطار الذي ظهرت فيه مفاهيم البداية والنهاية والتتابع والحركة.

ومن النتائج المترتبة على هذا الفهم للزمن والصادر الأول أن سؤال: من هو الأول ومن هو الأخير؟ يحتاج هو الآخر إلى إعادة نظر.

فقد يظن الإنسان أن الموجودات التي ظهرت قبلنا في التاريخ الكوني أقدم منا من جميع الجهات، وأن ما جاء لاحقاً هو بالضرورة أبعد عن الأصل الأول. غير أن الأمر ليس كذلك في هذه الرؤية.

فمن حيث التشكل والظهور الزمني يمكن أن نتحدث عن متقدم ومتأخر، وعن موجودات ظهرت قبل غيرها بملايين السنين. أما من حيث الأصل والانبثاق الأول، فإن جميع الموجودات تعود إلى الحقيقة نفسها وإلى المصادر الأول نفسه. فالإنسان والشجرة والحيوان والنجوم والمجرات، بل وكل ما ظهر في مسيرة الوجود، إنما انبثق من ذلك الأصل الواحد.

ولهذا لا يكون أحد أولاً دون غيره من جهة الأصل؛ لأن الجميع يشتركون في الانبثاق الأول ذاته. فالاختلاف يقع في صور الظهور ومسارات التطور ودرجات التحقق، لا في الأصل الذي انبثقوا منه.

ومن هذه الجهة يمكن القول إن الإنسان والديناصور والشجرة والنجم جميعهم أبناء ذلك الانبثاق الأول، وإن كانوا مختلفين في الأزمنة التي ظهرت فيها صورهم وأشكالهم.

فالأولية هنا ليست أولية زمنية تخص موجوداً دون آخر، بل أولية أصلية يشترك فيها كل ما وجد؛ لأن الجميع يعودون إلى النقطة الأولى نفسها التي بدأت منها رحلة الوجود.

ومن النتائج المترتبة على هذا الفهم أيضاً أن الأسبقية الأصلية لا تختص بإنسان دون آخر، ولا بكائن دون غيره. فليس هناك، في هذه الرؤية، موجود انبثق من الأصل الأول قبل سائر الموجودات من حيث الحقيقة الأصلية المشتركة، وإن اختلفت أزمنة ظهور الصور والأشكال.

وبعبارة أخرى أقول: إن الوجود بأسره قد انبثق من نقطة واحدة وعجينة أولى واحدة، وكل الكائنات تتساوى مساواة تامة في أصل ظهورها. الإنسان، والشجرة، والكائنات

الغابرة كالدينامصورات، كلها انبثقت من نفس النقطة الأولى. لا يسبق أحدنا الآخر من حيث الوجود الأصلي؛ فالامتيازات اللاحقة هي نتاج مسيرة الوجود المادي.

ولهذا لا يصح، في هذه الرؤية، القول إن الكون خُلق بنور إنسان معين، أو أن موجوداً بعينه كان أصلاً لوجود سائر الموجودات. فالأصل واحد، والانبثاق الأول واحد، وجميع الموجودات تشترك فيه من جهة الأصل، وإن اختلفت بعد ذلك في درجات التطور والتشكل والظهور.

فالإنسان، والشجرة، والحيوان، والنجم، وسائر الكائنات، تعود جميعها إلى المصدر نفسه والصادر الأول نفسه. أما التقدم والتأخر فهما يتعلقان بمراحل الظهور والتطور، لا بأصل الانبثاق الأول الذي اشتركت فيه الموجودات جميعاً.

ومن هنا ننتقل إلى أثر هذه الحقيقة في فهم علاقة الإنسان بالوجود ووحدته في الأصل، مع اختلافه في الصورة والهوية.

الإنسان والحيوان في رحم الوجود

لا يوجد انفصال حقيقي بين الإنسان والوجود، لأن الإنسان لم يأتِ إلى الوجود من خارجه، ولم يُلقَ فيه إلقاءً، بل انبثق في رحمه، وتكوّن ضمن قوانينه، وما يزال قائماً فيه ومتصلاً به في كل لحظة من لحظات وجوده. فالوجود ليس مسرحاً يقف الإنسان فوقه أو إلى جواره أو سيداً عليه، فالإنسان هو أيضاً في الحاضنة الكبرى التي تتجلى فيها الحياة بكل صورها وأشكالها.

ولتقريب الصورة يمكن استعمال مثال الجنين والأم.

فالجنين لا يكون خارج الرحم ثم تأتية الأم من الخارج لتأمره بالنمو، وإنما ينمو داخل وسط هو منه وفيه، وتتكون أعضاؤه وفق القوانين التي تحكم تكوينه وتطوره.

وبالمعنى نفسه يمكن النظر إلى علاقتنا بالوجود.

فنحن لسنا خارج روح الحياة، ولا هي خارجنا.

بل نحن أجنة في رحم الوجود، وخلايا في بدنه، وقطرات في محيطه اللامتناهي.

إن الذرة التي تتراقص في جسد كلب أو خنزير، هي من حيث أصلها ذات المادة التي تدخل في تكوين جسد أي إنسان في هذا الوجود. لكن طريقة انتظام هذه الذرات وتآلفها، والتناغم الكوني الذي يحكم ترابطها، هو ما يجعل الصور والكل المادية الظاهرة مختلفة ومتعددة. فالذرات التي كوّنت الحيوان هي من جنس الذرات التي كوّنت البشر، تماماً كما أن المادة الأولى التي ظهر منها الوجود واحدة.

وبناءً على ذلك، تسقط في هذه الرؤية فكرة التفاضل في الأصل المادي أو الروحي؛ فلا يوجد ما يُسمى بـ «الإنسان الكامل»¹⁰ من حيث أصله، ولا من حيث نورانيته، لأن النورانية الأولى واحدة تشمل الجميع. ولا تميز للإنسان من حيث مادته، لأن النواة الأولى، أو الخلية الأولى التي انبثقت منها الوجود، واحدة أيضاً. ومن هنا، لا فضل ولا نورانية لإنسان على حيوان من حيث الأصل، وإنما يقع التفاضل والتمايز من حيث

¹⁰ الإنسان الكامل: مصطلح مركزي في الفلسفة الصوفية (تبلور بقوة عند ابن عربي) يشير إلى الكائن الذي يمثل المرأة التي تكتمل فيها التجليات الإلهية، ويُعتبر الواسطة والغاية من الوجود.

«التحقق»؛ فالإنسان، بما بلغه من تعقيد في الوعي والعقل، أشد إدراكاً وأوسع أفقاً من بقية الحيوانات.

فالاختلاف في الموجودات من حيث صورها ووظائفها وقدراتها؛ لا من حيث حقيقتها. فكل موجود هو الأول من حيث الانبثاق الأول، ويكون التقدم والتأخر بين الكائنات مرهوناً بدرجة الظهور المادي، لا باختلاف جوهر الانبثاق.

فالإنسان والشجرة والحيوان والكائنات التي سبقتنا بملايين السنين، كلها تشترك في أصل الانبثاق الأول، وإن اختلفت في صورها ومسارات تطورها وقدراتها الخاصة.

وعليه فكل موجود هو الأول من حيث حقيقة الانبثاق الأول.

الهيولى والهوية

ومن هنا يمكن أن نوضح هذه العلاقة من زاوية أخرى، من خلال مفهومي «الهيولى»¹¹ و«الهوية»¹².

¹¹ **الهيولى (Hyle):** مصطلح مشتق من اليونانية القديمة يعود أصله إلى الفيلسوف أرسطو، وكان يعني في الأصل "الخشب" أو "المادة الخام للبناء". أما في المفهوم الفلسفي، فهي المادة الأولى البدنية أو العجينة الكونية المجردة من أي شكل أو صورة، والتي تحمل في طياتها كل القابليات والبذور الكامنة المستعدة للتشكل والانبثاق فور تفاعلها مع المحفزات.

¹² **الهوية (Identity):** مصطلح مشتق في اللغة العربية من الضمير "هو" (ليفيد مطابقة الشيء لنفسه)، وفي اللغات الغربية من اللاتينية (Idem) وتعني "الشيء نفسه". أما في المفهوم الفلسفي، فهي حقيقة الكائن وجوهره الثابت الذي يجعله متميزاً عن غيره ومتطابقاً مع ذاته؛ وهي تعبر في عمقها عن تلك البذرة الكامنة

فالهوى، بالمعنى الفلسفي الذي أستأنس به هنا، تشير إلى المادة الأولى والأصل المشترك الذي تنفرع منه جميع الأشياء: الجمادات، والنباتات، والحيوانات.

أما الهوية، فهي الصورة الخاصة والماهية التي يتميز بها كل موجود عن غيره.

فالإنسان له هوية، والشجرة لها هوية، والحيوان له هوية؛ وكل موجود يمتلك خصائصه وصفاته وتكوينه الخاص. لكن هذه الهويات المتعددة والماهيات المتباينة لا تنفي وجود أصل واحد يجمعها. إن التباين الذي نراه في العالم الخارجي هو تباين في «الصورة» فقط، وهذا التباين الصوري هو الذي يصنع هوياتنا المختلفة.

نحن مختلفون من حيث الصورة، ومتحدون من حيث الأصل.

مختلفون من حيث الهوية، ومتصلون من حيث الهوى.

ومن هنا، فإن فكرة «روح الحياة» ليست مجرد رؤية شاعرية أو تعبير أدبي عن حب الوجود، بل هي بناء لتصور كوني متكامل يقوم على وحدة الأصل وتعدد الصور؛ تصور يفهم الكون بوصفه وجوداً واحداً تتنوع تجلياته وتختلف أشكاله، بينما جذوره العميقة ثابتة في المصدر الأول الذي انبثق منه.

والخصائص الجوهرية المودعة في أصل نشأة الكائن (العجينة الأولى) والتي تحدد رتبته، ونوع وعيه، ووظيفته الثابتة في نسج الوجود مهما تغيرت الظروف البيئية.

سر الانبثاق: لماذا تجلّت روح الحياة؟

وبعد أن اتضح لنا كيف يرتبط الكائن بالوجود، وكيف تكون الموجودات متعددة في صورها ومتحدة في أصلها، يبقى هناك سؤال عميق يطرح نفسه: لماذا خرجت روح الحياة أصلاً من حالة الكُمون والعماء إلى حالة الظهور والتجلي؟

قد يسأل سائل: لماذا أرادت «روح الحياة»، بكل ما تحمله من قدرات كامنة، أن تُظهر إمكاناتها وتتجلى في هذه الموجودات التي نراها اليوم؟ ما العلة وراء هذا الانبثاق من الخفاء التام إلى الظهور؟

وجوابي على ذلك هو: لكي نفهم هذا السر، يجب أن ندرك الشبه الدقيق بين «العقل البشري» وبين «روح الحياة».

لنتأمل معاً في طبيعة هذا العقل: هل يمكن للعقل أن يتخيل ذاته المجردة أو أن يرى نفسه؟

الحقيقة أن العقل كالعين التي ترى كل شيء في الوجود إلا نفسها، وكالمِرآة التي تعكس كل الصور ولا تظهر فيها صورتها.

إن العقل لا يرى ذاته، وكلما حاول أن يلتفت حول كيانه، أو يمسك بخيط وعيه، اكتشف أنه هو الخيط والناسيج معاً.

وكلما اقترب من تعريف ذاته، تبدد في التعريف، وصار فكرةً عن فكرة، وظلاً لظل. فالعقل ليس «شيئاً» يُرى، بل هو النور الذي «به» تُرى الأشياء.

ولذلك يبقى سرّاً مبهماً؛ كلما ظن أنه أدرك نفسه، عاد من جديد لبحث عن ذاته دون أن يتمكن من رؤيتها .

فكيف يرى العقل نفسه إذن؟

إنه لا يرى ذاته إلا من خلال آثاره؛ عبر المفاهيم، والصور، والأفكار التي ينتجها، ومن خلال تفاعله وتصرفه مع الواقع الخارجي.

وهنا يكمن السر الأعظم في «روح الحياة». فروح الحياة، في أصلها وعمائها الأول، كانت في حالة كمن مطلق؛ وفي الكُمن المطلق لا يمكن للذات أن تشهد وتدرّك تفاصيل إمكاناتها. لذلك، اقتضت طبيعتها أن تنظر إلى ذاتها من خلال «مظاهرها» والصور الناتجة عنها.

لقد أرادت أن تشهد إمكاناتها الكامنة، وأن ترى ذاتها في مرايا تجلياتها، فتجلت في هذه الموجودات التي انبثقت بها ومنها.

ومن هنا نلمس التطابق الدقيق والمذهل بين العقل الذي يحتاج إلى الأثر ليرى نفسه، وبين «روح الحياة» التي احتاجت إلى الانبثاق لتشهد ذاتها في مرايا تجلياتها؛ إذ هما من أصل واحد ومعدن واحد. فالموجودات كلها مرايا تتجلى فيها روح الحياة لنفسها، غير أن الإنسان يمثل إحدى أكثر هذه المرايا وعياً وإدراكاً. ولذلك كان لازماً أن تتعدد الكائنات وتتنوع صور الوجود، لكي تدرّك روح الحياة ذاتها من خلال التجليات والمظاهر التي أبدعتها.

خلاصة الفصل الأول

إنَّ روحَ الحياة هي الحقيقة الأصلية الواحدة، وكانت في بدايتها في حالة كمون وخفاء تام، تحمل في داخلها جميع القدرات والإمكانات التي ستظهر لاحقاً في صور الوجود المختلفة. وهذه الحالة من الكُمون والخفاء هي ما نعبر عنه بـ «العماء»؛ فالعماء ليس شيئاً آخر غير روح الحياة، وإنما هو روح الحياة في حالتها الأولى، قبل أن تتفاعل أو يصدر عنها شيء.

ثم تفاعلت روح الحياة بذاتها ولذاتها، من أجل أن تدرك ذاتها بمظاهرها وجودها، فصدر عنها الصادر الأول. ومنذ أن صدر عنها هذا الصادر، صحَّ أن نعبر عن روح الحياة بأنها المصدر؛ لأنها أصبحت مصدر الصادر الذي انبثق منها وفيها، وما زال قائماً بها وفيها. والصادر الأول هو أول مظهر ظهرت به روح الحياة، وهو العجينة الأولى القابلة لكل صورة وتشكل؛ فمن خلاله أمكن لما كان كامناً فيها أن يظهر، ويتنوع، ويتخذ الصور المختلفة.

ومن هنا، فإنَّ المصدر والصادر ليسا حقيقتين منفصلتين؛ فالفرق بينهما ليس فرقاً في الحقيقة، وإنما هو فرقٌ في الحال والاعتبار بحسب الكُمون والظهور. ومن هذا الصادر الأول تتابعت الانبثاقات والتكوينات والتشكلات، حتى ظهرت الموجودات التي نعرفها، وتنوعت صورها ومساراتها وخصائصها؛ وكل ما ظهر بعد ذلك إنما ظهر بروح الحياة، ولم يكن هناك شيءٌ منفصل عنها أو قائم خارجها.

وتأسيساً على هذا، فإنَّ الرؤية التي تكون بهذه الصورة - رؤية روح الحياة - لا يمكنها أن تفاضل بين موجود وموجود من حيث نورانيته؛ فجميعهم صدروا من نفس النبع، وانطلقوا من نفس النقطة. فلا فضل لإنسان على حيوان من حيث الأصل، ولا وجود لـ «إنسان كامل» في عالم المعرفة الحق في روح الحياة.

وبذلك يكون مفهومنا لروح الحياة هو الأساس الذي ننطلق منه في سائر مباحث هذا الكتاب: حقيقة أصلية واحدة، ظهرت أولاً في حال الكُمون والعماء، ثم بدأت في رحلة الوجود وتعدد صورها وتجلياتها. فتباركت أمنا روح الحياة المقدسة.

الفصل الثاني

الانبثاق والتنوع والإبداع والتطور

روح الحياة: والمصطلحات البشرية

من المهم أن ندرك أن كثيراً من الألفاظ التي ورثها الإنسان لم تنشأ من معرفة علمية دقيقة، وإنما نشأت من الطريقة التي كان يرى بها العالم في عصره.

فالإنسان القديم كان يصف الأشياء كما تبدو له، لا كما نعرفها اليوم بعد تراكم المعرفة. ولهذا ما زلنا نستعمل إلى يومنا هذا ما صاغه من الفاظٍ لمعانٍ مثل: «شروق الشمس» و«غروب الشمس»؛ ومع أننا نعلم اليوم أن الشمس لا تشرق على الأرض ولا تغرب عنها بالمعنى الحرفي، وأن الذي يحدث في الحقيقة هو دوران الأرض حول نفسها، فإن اللغة احتفظت بهذه الألفاظ لأنها تعبر عن الظاهرة كما تبدو للمشاهد، وكما عبر عن ذلك الأجداد الأوائل وفق إدراكهم في عصرهم ووفق ما توارثناه عنهم من مصطلحات وتطبيقات.

وليس المقصود من هذا المثال مناقشة اللغة ذاتها، بل الإشارة إلى أن كثيراً من التصورات البشرية كانت مرتبطة بمستوى الإدراك المتاح في زمانها، وكلما توسعت المعرفة اتسعت معها القدرة على إعادة النظر في المفاهيم القديمة وفهمها بصورة أعمق.

ومن هذا الباب أنظر أيضاً إلى مفهوم «الخلق».

فالإنسان القديم كان يتعامل مع الصانع وصنعتة؛ فكان يرى النجار يصنع باباً، والحداد يصنع أداة، والبناء يشيد بيتاً. ولذلك كان من الطبيعي أن يتصور أصل الوجود على الصورة نفسها: خالق منفصل من جهة، ومخلوق منفصل من جهة أخرى.

ومع تطور التأمل الفلسفي والعلمي، ظهرت أسئلة لم تكن مطروحة من قبل: فإذا كان الخالق منفصلاً عن الوجود، فأين يكون؟ وهل يكون في جهة من الجهات؟ وإذا كان في جهة، فما طبيعة تلك الجهة؟ وهل هي سابقة عليه أم قائمة به؟ وكيف يكون غير محدود وهو مرتبط بموضع أو مكان ما؟

هذه الأسئلة لا أجد أن التصور التقليدي للخلق يقدم لها جواباً مقنعاً؛ ولهذا فإن استخدام مفهوم «الخلق» أو «الخالق» — بالمعنى الذي يفترض وجود صانع منفصل يصنع عالماً مستقلاً عنه، كما يصنع الحرفي شيئاً خارج ذاته — يُعد توصيفاً غير صحيح ويتناقض جوهرياً مع رؤية «روح الحياة». بل إن المفهوم الأصح والأقرب إلى الحكمة وفهم حقيقة الوجود هو مفهوم «الانبثاق».

فالكون، في هذه الرؤية، ليس شيئاً منفصلاً عن الأصل الأول، وإنما هو ظهور من ظهوراته. وروح الحياة ليست كياناً قائماً خارج الوجود يراقبه من بعيد، بل هي الأصل الذي انبثقت منه الموجودات وتطورت داخله ومن خلاله. ولهذا أقول إن الموجودات لم تُخلق خلقاً منفصلاً، بل انبثقت بمعنى الظهور والتجلي والتشكل.

فكما تنبثق الأغصان من الشجرة، وكما تنبثق الأمواج من البحر، وكما ينمو الجنين في رحم أمه دون أن يكون منفصلاً عنها أثناء تكوينه، كذلك أفهم علاقة الموجودات بالأصل الأول.

ومن هنا، يكون الفرق بين الخلق والانبثاق فرقاً جوهرياً في طريقة فهم الوجود: فالخلق، في معناه التقليدي، يقوم على ثنائية الخالق والمخلوق، وعلى وجود فاصل بين الصانع وما صنعه. أما الانبثاق فيقوم على وحدة الأصل وتعدد الصور، وعلى أن الموجودات ليست غريبة عن مصدرها، بل هي امتداد له وظهور من ظهوراته.

ولهذا فإن الإنسان، والشجرة، والحيوان، والنجوم، وسائر الموجودات، ليست أشياء قائمة خارج روح الحياة، بل هي تجليات مختلفة لذلك النور الأول الذي ما زال حاضراً فيها، وما زالت حاضرة فيه.

ومن هنا يصبح التنوع في الموجودات أمراً طبيعياً لا يناقض وحدة الأصل. فكما تتعدد أغصان الشجرة الواحدة، وتختلف أوراقها وأزهارها وثمارها، كذلك تتعدد صور الوجود وتتنوع مظاهره مع بقاء الأصل الذي انبثقت منه واحداً. ولهذا فإن الاختلاف والتنوع والإبداع ليس خروجاً على روح الحياة، بل هو من نتائج قدرتها على التجلي في صور لا حصر لها عبر مسيرة الانبثاق والتطور والتشكل المستمر.

وبهذا المعنى، لا نرى أنفسنا منفصلين عن الأصل، كما لا نرى الأصل منفصلاً عنا، بل نرى الوجود كله حركة متصلة من الانبثاق والظهور والتطور داخل الحقيقة الواحدة التي أسميها: روح الحياة.

ليست هناك صدفة في روح الحياة

من الأسئلة التي تلازم البحث في أصل الكون سؤال الصدفة: هل تكفي الصدفة¹³ المحضة وحدها لتفسير نشأة الكون وظهور الوجود؟

في رؤية «روح الحياة» يكون الجواب بالنفي. فالكون الذي نعيش فيه لا يبدو تجمعاً عشوائياً لأحداث منفصلة، بل يظهر بوصفه بناءً مترابطاً تتشابه أجزاؤه وقوانينه ومساراته بصورة عميقة. فمبدأ الانبثاق الأول أخذ الوجود يتطور وفق علاقات وانتظامات جعلت ظهور البنى الكونية والحياة والتطور أمراً ممكناً ومقصوداً.

لهذا لا تنظر هذه الرؤية إلى الكون على أنه نتاج صدفة عمياء؛ فالصدفة - إذا أُريد بها وقوع الأشياء بلا سبب ولا رابط ولا نظام - لا تستطيع تفسير هذا القدر الهائل من الترابط والاستمرار. فالقضية ليست في ظهور بنية معقدة مرة واحدة فحسب، بل في استمرارها وتطورها وتفاعل عناصرها عبر مسارات طويلة ومتشعبة دون أن ينهار البناء الكوني كله إلى فوضى.

وكلما تأمل الإنسان في الوجود ازداد ظهور هذا الترابط أمامه. فالنجوم والمجرات والعناصر والكائنات الحية لا تبدو أجزاءً متفرقة لا علاقة بينها، بل هي حلقات في

¹³ الصدفة (Chance): تُعرّف في المنظور المادي والميكانيكي بأنها التقاء عشوائي لمسارات مستقلة دون غاية مسبقة أو تخطيط، وهي الأساس الذي تقوم عليه الطفرات العمياء في الفكر الدارويني. أما في رؤية «روح الحياة»، فالصدفة وهم يفرضه النظر السطحي للأشياء؛ إذ لا وجود لخبط العشواء في نسيج الوجود، وما يبدو «صدفة» هو في حقيقته تجلّ لـ «قانون الحظوظ» والهندسة الكونية الباطنة المودعة في رقعة الشطرنج الأولى، حيث تعمل المحفزات البيئية كمستدع دقيق للبذور والقدرات الكامنة المخبأة في العجينة الأولى لإخراجها من حيز القوة والكُنُون إلى حيز الفعل والظهور وفق مراد كوني مرسوم.

شبكة كونية واسعة يؤثر بعضها في بعض، وتنظم وفق علاقات معقدة ما زال العلم يكتشف جوانب جديدة منها باستمرار.

الجهل بالسبب لا ينفي وجوده

قد يستعمل الناس كلمة «الصدفة» للتعبير عن حدث لم يعرفوا أسبابه، أو عن نتيجة لم يستطيعوا تتبع جميع العوامل المؤدية إليها. غير أن الجهل بالسبب لا يجعل الحدث بلا سبب؛ فكثير من الظواهر التي عُدَّت في أزمنة سابقة ضرباً من الصدفة أو الغموض، تبين لاحقاً أنها تخضع لقوانين وعلاقات لم تكن معروفة من قبل.

ومن هنا ترى «روح الحياة» أن الصدفة ليست مبدأً قائماً في أصل الوجود، وإنما اسم يطلقه الإنسان على ما يجهل أسبابه أو يعجز عن الإحاطة بعلاقاته الخفية. فالجهل بالعلة لا يحول النظام إلى فوضى، كما أن خفاء الأسباب لا يعني غيابها.

لو افترضنا أن الوجود قائم على الصدفة المحضة، لكان احتمال الاضطراب والانهيار والفوضى أقرب بكثير من احتمال الانتظام والاستمرار. فالصدفة العمياء لا تفسر كيف نشأ هذا الترابط الكوني الدقيق، ولا كيف استمر عبر مليارات السنين محافظاً على إمكان التطور والتشكل وظهور صور جديدة من الوجود.

إن بناء نظام كوني مترابط شيء، والمحافظة على استمراره عبر مراحل لا حصر لها من التحول والتطور شيء آخر. فلو كان الوجود خاضعاً للصدفة العمياء وحدها، لكان الهدم أقرب من البناء والاستمرار. فحين تتعدد الاحتمالات بلا ضابط ولا رابط، يصبح

الوصول إلى نظام متماسك أمراً بالغ الصعوبة، فضلاً عن استمرار ذلك النظام عبر أزمنة طويلة.

ولهذا فإنَّ رؤية «روح الحياة» تنطلق من أنَّ الوجود قائمٌ على ترابطٍ وانبثاقٍ ونظامٍ داخلي عميق، وإنَّ كانت كثيرٌ من آلياته لا تزال خافية على الإنسان. فما نجهله اليوم لا يصبح صدفةً لمجرد أننا نجهله، كما أنَّ تسمية المجهول أو إعطائه اسماً لا يعني تفسيره؛ ومن هنا يبقى باب البحث مفتوحاً.

ونحن لا نزعم الإحاطة الكاملة بأصل الوجود ولا بجميع قوانينه، لكننا نرى أنَّ الطريق إلى الفهم لا يكون برّد الغامض إلى «الصدفة» وتغيير مفهومها كلها واجه إشكالاً جديداً «لحاجة في نفس يعقوب»، بل بمواصلة البحث في العلاقات والروابط التي يقوم عليها هذا العالم. إنَّ الاعتراف بحدود المعرفة لا يعني التوقف عن التساؤل، بل يعني الاستمرار في البحث دون التسرع في تقديم أجوبة نهائية؛ ولهذا تبقى رؤية «روح الحياة» مفتوحة على الاكتشاف، وترى أنَّ الوجود هو نظامٌ متصل وليس فوضى عمية، وأنَّ ما نجهله اليوم قد يصبح مفهوماً غداً كلما اتسعت معارف الإنسان وتعمق فهمه للكون ومساراته وسننه.

ولكي تكتمل الصورة، وتُسدَّ الثغرات أمام التوظيف الأيديولوجي للعبثية، لا بد من تفكيك مفهوم «الصدفة» وتتبع مساره التاريخي. إنَّ تسليط الضوء على التحولات التي طرأت على هذا المصطلح يكشف حجم التناقض لدى من يتشبثون به اليوم، ويعري التلاعب المنهجي الذي يمارسونه هرباً من الإقرار بالنظام الكوني.

إذ يُوظَّف مفهوم "الصدفة" في الخطاب المادي المعاصر كتفسير عشوائي لنشأة الكون والحياة، متجاهلاً التحولات الجذرية والتناقضات المنهجية التي تعرّض لها المفهوم عبر التاريخ. وعندما اصطدم هذا الطرح بتعقيدات الضبط الدقيق، لجأ المدافعون عنه إلى "تحريك مرمى الهدف" وترقيع المصطلحات لحماية نموذجهم المادي هرباً من الإقرار بالغائية¹⁴.

خرافة "الصدفة العمياء": من العشوائية المطلقة إلى الترقيع الأيديولوجي

تبدو الكلمة واحدة، لكن المعنى تبدل جذرياً. في النقاشات الفكرية والعلمية المعاصرة، كثيراً ما يُرفع لواء "الصدفة" كتفسير لنشأة الكون وتطور الحياة. غير أن نظرة فاحصة على تاريخ هذا المفهوم تكشف عن سلسلة من التحولات والالتواءات التي تثير تساؤلات عميقة حول النزاهة المنهجية والشجاعة الفكرية لمن يتشبثون بها كعقيدة نهائية لتفسير الوجود.

تطور المفهوم: كيف تغيرت قواعد اللعبة؟

لم يبقَ مفهوم الصدفة ثابتاً عبر التاريخ، بل تم تطويعه في كل حقبة ليتناسب مع المعطيات الجديدة:

¹⁴ الغائية (Teleology): مبحث فلسفي يقرر أن سير الظواهر الطبيعية والكونية يتجه نحو غاية أو هدف مسبق (القصدية في الوجود).

في الفلسفة القديمة: كانت الصدفة عند أرسطو مجرد وصف لالتقاء أسباب مستقلة أدت إلى نتيجة غير مقصودة (كأن تلتقي بصديق في السوق دون تخطيط). وعند الذريين¹⁵ كأبيقور، كانت عنصراً في حركة الذرات لتفسير العالم دون تدخل غائي، لكنها لم تكن تعني مبدأً خالقاً.

في العصر الحديث: مع الثورة العلمية واكتشاف القوانين الحتمية، تراجعت الصدفة لتصبح مجرد تعبير عن "الجهل بالأسباب". فلو امتلك الإنسان عقلاً يحيط بكل متغيرات الكون، لاختفت الصدفة تماماً.

في العلم المعاصر: عندما اصطدم العلماء بتعقيدات ميكانيكا الكم والبيولوجيا التطورية، انقلب المفهوم مرة أخرى. تحولت الصدفة من "جهل بالأسباب" إلى "احتمال رياضي" في أصل الطبيعة، وفي علم الأحياء لم تعد عشوائية مطلقة، بل تزاوجت مع "الالتقاء غير العشوائي" الذي تحكمه قوانين صارمة للبقاء.

أي أنه مع صعود الفلسفة المادية الغربية، جرى توسيع مصطلح الصدفة قسراً ليتحول من "جهل بالسبب" إلى "نفي وجود السبب مطلقاً" (الصدفة المطلقة). وعندما تعارضت العشوائية المطلقة مع معطيات «الضبط الدقيق» للكون، جرى تطوير المفهوم ليأخذ أشكالاً تفسيرية جديدة تعتمد على الاحتمالات والنماذج الرياضية المعاصرة؛ ليصبح بذلك المصطلح شعاراً يُفسر نشأة الكون والحياة برمتها.

¹⁵ الذريون (Atomists): مدرسة فلسفية يونانية من ما قبل سقراط، أسسها لوسيبيوس وصاغ مذهبها تلميذه ديموقريطس (القرن 5 ق.م)، ثم طورها أبيقور لاحقاً في العصر الهيلينستي. تقوم فلسفتهم المادية على رد الوجود بأكله إلى عنصرين: "الذرات" (وهي أجزاء متناهية الصغر، صلبة، أزلية، وغير قابلة للانقسام)، و"الفراغ" الذي تتحرك فيه هذه الذرات وتتصادم لتشكيل المادة. يُنظر إلى هذه المدرسة بوصفها الجذور الأولى للنظرية الذرية الحديثة والنزعة المادية في العلم.

الهروب من الغائية: غياب الشجاعة الفكرية

هنا تبرز المفارقة الكبرى وتنكشف الإشكالية المنهجية. لقد انهارت فكرة "الصدفة العمياء" والعبثية المطلقة تماماً أمام الاكتشافات العلمية التي أظهرت الضبط الدقيق للكون والتعقيد المذهل في النظم البيولوجية¹⁶. ولم يعد ممكناً، عقلاً ولا رياضياً، القول بأن الوجود نتج عن فوضى محضة.

لكن، هل امتلك المتشبهون بالرؤية المادية الشجاعة للاعتراف بهذا الانهيار؟

الإجابة هي: لا. فبدلاً من الاعتراف بأن "الصدفة" بمعناها الأصلي قد سقطت، وأن هناك مؤشرات قوية على وجود قوانين موجهة أو قصد (غائية)، لجأوا إلى حيلة فلسفية تُعرف بـ "تحريك مرمى الهدف". قاموا بتفريغ مصطلح "الصدفة" من محتواه الأصلي (الفوضى والحدث بلا قصد)، وحشوه بمعانٍ جديدة ومُعقدة تتضمن احتمالات رياضية، وتموجات كمومية، وآليات انتقاء منظمة.

التستر بعباءة العلم

الدافع وراء هذا التلاعب اللفظي ليس دافعاً علمياً، بل هو خوف أيديولوجي. فإن الاعتراف بخطأ استخدامهم لمفهوم الصدفة سيعني بالضرورة الاعتراف بقصور النموذج المادي الصارم. ولأنهم لا يملكون الشجاعة لقول: "لقد كنا مخطئين، والكون ليس نتاج صدفة عمياء"، فقد احتفظوا بالغلاف اللفظي للكلمة ليحموا قناعاتهم المسبقة.

¹⁶ النظم البيولوجية في هذا السياق هو الأنظمة الحيوية الدقيقة المعقدة التي تدير حياة الكائنات الحية وظائفها، بدءاً من الخلية وشفراتها الوراثية (DNA) إلى الأجهزة العضوية المتكاملة داخل الجسد.

لقد طوّروا المعاني واستبدلوها لتوائم ما اكتشفوه من قوانين دقيقة، فقط لكي يتجنبوا الإقرار بوجود قصد في الكون. هذا التزييف النظري المستمر أمر معيب في ميزان البحث عن الحقيقة، غير أنهم قبلوه وروجوا له تحت غطاء "المنهج العلمي"، مدعين احتكار العقل والحكمة، بينما هم في الواقع أسرى لعقيدة جامدة ترفض التنازل عن غرورها حتى عندما تتهاوى أسسها اللغوية والمنطقية.

إن من حق أي باحث أن يطور مفاهيمه عندما تتغير المعطيات، لكن النزاهة الفكرية تقتضي أيضاً الاعتراف بأن المفهوم القديم لم يعد صالحاً. أما الإبقاء على اللفظ نفسه بعد تبدل مضمونه جذرياً، ثم تقديمه للجمهور وكأنه الفكرة ذاتها، فليس تطوراً للمفهوم بقدر ما هو استبدال للمضمون مع المحافظة على الاسم.

فإذا كانت "الصدفة" تعني في السابق غياب القصد والنظام، ثم أصبحت تعني عمليات احتمالية تجري داخل منظومات قانونية دقيقة، فإن الفارق بين المعنيين ليس تفاوت مقدار بل تباين جوهر. وعند هذه النقطة يصبح السؤال مشروعاً: لماذا هذا الإصرار على الكلمة نفسها؟

وحتى لا يظن البعض أن وصفنا لهذا التحول بـ "تباين الجوهر" هو بعيد عن الدقة، وجب التنويه بأن الجوهر في منطق اللغة والبحث الفلسفي هو حقيقة الشيء وثبات ماهيته التي لا ينعقد معناه بدونها. إن جوهر "الصدفة" تاريخياً ولغوياً قائم بالكلية على نفي النظام، وغياب القوانين، وانعدام السببية. في حين أن جوهر "العمليات الاحتمالية" الحديثة قائم على حتمية المعادلات الرياضية، وصرامة المنظومة الفيزيائية المحكمة التي تجري داخلها تلك الاحتمالات. ولما كان "النظام الصارم" و"العشوائية المحضة" ضدّين

لا يجتمعان في العقل والمنطق، فإن نقل المفهوم من الفوضى المطلقة إلى القانون الدقيق لم يكن تطوراً في المقدار أو تدرجاً في الدرجة، بل هو انقلاب كامل في الذات والماهية؛ وهو ما نعنيه بدقة بـ تباين الجوهر. فلو كان الهدف هو الدقة المفاهيمية لكان الأولى الإعلان بوضوح أن المفهوم القديم قد ثبت قصوره، وأن الحديث لم يعد عن "صدفة عمياء" بل عن عمليات احتمالية تعمل ضمن بنية كونية منظمة. لكن الإبقاء على المصطلح القديم يمنح انطباعاً مضللاً بأن النظرية الأصلية ما زالت صامدة، في حين أن مضمونها تعرض لتعديلات جوهرية متلاحقة.

ومن هنا فإن ما جرى على مفهوم الصدفة عبر الزمن لم يكن مجرد تطور معرفي، بل نوعاً من التمسك الرمزي بمصطلح اكتسب مكانة أيديولوجية وثقافية. فبدلاً من الاعتراف بأن الكلمة القديمة لم تعد تعبر بدقة عن التصور الجديد، جرى توسيع معناها مرة بعد أخرى حتى أصبحت قادرة على احتواء معانٍ متناقضة أحياناً. وعندما تبلغ المرونة بالمصطلح هذا الحد، يحق للمرء أن يتساءل: هل ما زال يفسر الواقع، أم أصبح مجرد شعار يُحمل ما نريد من معانٍ؟ .

الكون في روح الحياة بين الكمال والنقص

الكثير من التصورات الدينية والفلسفية ربطت الوجود المادي بفعل خلق كامل ومكتمل منذ اللحظة الأولى. أما في رؤية «روح الحياة» فإن الأمر مختلف؛ فالوجود لا يظهر بوصفه بناءً نهائياً أنجز دفعة واحدة ثم توقف، بل بوصفه مسيرة مستمرة من التكون والتطور والانكشاف.

فالكون ليس لوحة اكتملت ثم جُمِدت إلى الأبد، وإنما هو واقع حي متحرك، تتشكل داخله الموجودات عبر تفاعلات طويلة ومسارات متشابكة من النمو والتحول والتجربة. وما نراه في الطبيعة من تنوع وتغير وصعود وتراجع ليس أمراً عارضاً، بل هو جزء من طبيعة الوجود نفسه.

وقد كان الصادر الأول عجينة أولى تحمل إمكانات التشكل والتطور والتفاعل. فلو كان الوجود قد ظهر منذ البداية على صورة نهائية مكتملة لا تقبل زيادة ولا تغيراً، لما وجدنا هذا الكم الهائل من التنوع والتحول والتميز الذي نراه في الطبيعة. لكن إذا كان الأصل الأول يحمل إمكانات لا حصر لها، فإن هذه الإمكانيات تتكشف تدريجياً عبر مراحل متعاقبة، ويمكن للموجودات أن تتمايز وتتطور وتتخذ صوراً جديدة تبعاً للظروف والقوانين التي تعمل فيها. ومن هنا يصبح التنوع نفسه دليلاً على غنى الأصل لا على نقصه؛ فالاختلاف بين الكائنات وتعدد أشكال الحياة وتنوع البيئات والقدرات كلها تعبيرات عن الإمكانيات الكامنة التي أخذت تتكشف عبر الزمن.

وقد يعتري مظاهر الوجود أوجهٌ من النقص أو الخلل؛ إذ لا تبدو الموجودات التي نعرفها وكأنها بلغت درجة الكمال المطلق. وهذا ما يظهر في الكائنات الحية جميعاً، بل وفي الجسد الإنساني نفسه؛ فمع ما ينطوي عليه من تعقيد وإبداع مذهل، لا يخلو من مواطن ضعف وعلل وأمراض. فلو كان العالم قد بلغ منذ البداية صورة الكمال النهائي المطلق، لكان من الصعب تفسير ما نشاهده من أمراض وتشوهات واضطرابات وصراعات ومظاهر نقص متعددة في الطبيعة.

أما إذا نظرنا إلى الوجود بوصفه مسيرة مستمرة من التكون والتطور، فإن هذه الظواهر تصبح جزءاً من عالم ما زال في طور التشكل والانكشاف وإظهار إمكاناته. ومن هنا لا يُنظر إلى مظاهر النقص والمرض والافتقار والعجز بوصفها دليلاً على فساد الأصل الأول، ولا بوصفها إرادة متعمدة للتعذيب أو ابتلاءً موجهاً للإنسان وحده، وإنما بوصفها آثاراً ملازمة لمسارات هذا الانبثاق التكون. فالعلل لا تخص الإنسان ليكون محلاً للاختبار، بل تفتك بالحيوان والنبات وسائر أشكال الحياة، مما يدل على أن القضية ليست مضمراً لاختبار الصبر، بل دلالة على طروء الاختلال والقصور في مسارات التشكل.

ويكفي أن يتأمل الإنسان جسده ليرى ذلك بوضوح؛ فهذا الجسد يحمل قدراً هائلاً من التعقيد والإبداع والتنظيم، لكنه في الوقت نفسه عرضة للأمراض والاختلالات والشيخوخة والاستهلاك. وكذلك الأمر في سائر الكائنات؛ فالوجود يكشف عن قدرة عظيمة على البناء والتطور، لكنه لا يكشف عن كمال مطلق خالٍ من كل نقص أو خلل.

ولهذا لا أرى أن العالم الذي نعيش فيه يمثل الصورة النهائية للوجود، بل هو مرحلة من مراحل مسيرة كونية أوسع، تتجلى فيها روح الحياة عبر صور متعاقبة من التكوين والتجربة والتطور. وما نراه من نقص أو قصور لا يدل على فساد الأصل، بل على أن الظهورات نفسها ما زالت خاضعة لقوانين التشكل والتحول والتجدد. فالكمال المطلق لا يظهر في المظاهر الجزئية المتغيرة، وإنما في الأصل الواحد الذي تستند إليه هذه المسيرة كلها.

فلو كان كل شيء قد بلغ كماله النهائي منذ البداية، لما كان هناك معنى للتطور، ولا مجال لاكتساب خبرات جديدة أو ظهور صور أكثر تعقيداً من الوجود. إن الحركة نحو أشكال أرق من التنظيم والوعي والمعرفة هي نفسها جزء من مسيرة الحياة المستمرة. ولعل التطور نفسه إحدى الوسائل التي أُتيح بها للوجودات أن تتجاوز كثيراً من أوجه النقص؛ فكلما ازداد الوجود معرفة، ازدادت قدرته على فهم العلل واكتشاف أسباب الأمراض وإيجاد وسائل للعلاج والتقليل من آثار الألم.

ومن هنا أيضاً فإن وجود الخلل والمرض والاضطراب لا يتناقض مع وجود الإبداع والجمال. فالكون يحمل قدراً مذهلاً من الروعة والتنظيم والتناسق، لكنه يحمل كذلك الألم والمرض والافتراس والطفرات والاضطرابات والكوارث. ولهذا لا أرى من الإنصاف أن نغلق أعيننا عن أحد الجانبين وننظر إلى الجانب الآخر فقط. فمن ينظر إلى الجمال وحده يقدم صورة ناقصة، ومن ينظر إلى الألم وحده يقدم صورة ناقصة أيضاً. أما الرؤية المتوازنة فهي التي تعترف بالأمرين معاً.

فالكون ليس فردوساً مكتملاً، وليس جحيماً مطلقاً. إنه مسار هائل من التكوين والتحول والتجربة. وفي هذا السياق يظهر الإنسان بوصفه كائناً يمتلك قدرة خاصة على المعرفة والاكتشاف؛ لا لأنه سيد الكون بمعنى الاستعلاء، بل لأنه أحد الكائنات التي بلغ فيها الوعي درجة تمكنها من البحث والتأمل وفهم جانب من أسرار الوجود. الإنسان هو أحد أبرز ظهورات روح الحياة التي رأت فيه وعيها الكوني يتجسد.

ومن هذا المنظور لا يكون التنوع والإبداع والتطور أموراً طارئة على الوجود، بل من أبرز سماته. فالحياة لا تعيد إنتاج الصورة نفسها بصورة آلية، وإنما تكشف باستمرار عن إمكانات جديدة وصور جديدة من التنظيم والتشكل. ولهذا فإن التعدد والاختلاف والتجديد ليست خروجاً على روح الحياة، بل هي من آثار غناها وقدرتها على الظهور في صور لا حصر لها عبر مسيرة الوجود.

التطور بوصفه سمة من سمات روح الحياة

ومن هنا يصبح التطور أكثر من مجرد تغير شكلي في الكائنات.

إنه جزء من طبيعة الوجود نفسها.

فالحياة لم تظهر كلها في صورة واحدة، ولم تتجمد عند شكل نهائي واحد، بل تدرجت وتشكلت وتفرعت وتمايزت، وتفاعلت مع البيئات المختلفة، وولدت أنماطاً جديدة من الكائنات والقدرات والوعي.

ولهذا فإنني أتعامل مع التغير والتطور بوصفهما من السمات الأساسية لروح الحياة، لا بوصفهما أمراً عارضاً أو استثناءً طارئاً.

فروح الحياة ليست حقيقة جامدة تقاوم التغير، بل حقيقة حية يظهر غناها من خلال التغير نفسه.

إنها الأصل الثابت من حيث الجوهر، والمتجدد من حيث المظهر.

الثابتة في حقيقتها، المتحولة في صورها.

الأزلية في أصلها، والمتطورة في تجلياتها.

ومن خلال هذا التفاعل الدائم بين الثبات والتغير، وبين الأصل والظهور، وبين الوحدة والتعدد، تستمر رحلة الوجود في الكشف عن إمكاناتها التي لا تنتهي، وتستمر روح الحياة في التعبير عن نفسها عبر صور جديدة، ومراتب جديدة، ومستويات أعمق من الوعي والتجربة والوجود.

التطور والتكيف

في رؤية روح الحياة أقبل بأن الكائنات الحية مرت عبر مسيرة طويلة من التطور، وأن الإنسان لم يظهر بصورته الحالية دفعة واحدة، بل سبقتة مراحل ممتدة عبر أزمنة سحيقة.

فالوجود، كما أوضحت سابقاً، ليس شيئاً ثابتاً ظهر مكتملاً منذ البداية، وإنما هو مسار من التكون والتشكل والتدرج. ولذلك لا أجد صعوبة في تصور أن الحياة مرت بمراحل متعددة، وأن صور الكائنات التي نراها اليوم هي نتائج تاريخ طويل من التحولات والتغيرات.

لكنني أميز بين مفهومين أراهما مختلفين: التطور و التكيف.

فالتطور هو تغير يطرأ على البنية الأساسية للكائن الحي، بحيث تظهر صور جديدة أو خصائص جديدة أو تكوينات لم تكن موجودة من قبل. إنه تغير يمس الكيان العضوي نفسه ويقوده إلى صورة مختلفة عن الصورة التي كان عليها.

أما التكيف فهو قدرة الكائن على التأقلم مع الظروف المحيطة به دون أن يتحول إلى كائن آخر أو يغير بنيته الأساسية تغييراً جذرياً. فالإنسان الذي يعيش في بيئة شديدة البرودة قد يكتسب مع الزمن قدرة أكبر على تحمل البرد من غيره، والحيوان قد يتكيف مع بيئة جديدة، والنبات قد ينجح في العيش في أرض تختلف عن موطنه الأصلي. لكن هذه الحالات لا تعني بالضرورة أن نوعاً جديداً قد ظهر، بل تعني أن الموجود تكيف مع شروط وجوده الجديدة.

ولهذا أميل إلى الاعتقاد بأن المرحلة الكبرى من التطور قد أنجزت دورها الأساسي في الأزمنة السحيقة، وأن ما نشهده اليوم هو التكيف أكثر مما هو تطور بالمعنى العميق للكلمة.

وأرى أن الكون في مراحله الأولى كان مختلفاً عما هو عليه الآن. كانت الظروف الكونية، وطاقات الوجود، وطبيعة البيئة الأولى، تشكل ما يشبه الحاضنة الكبرى التي سمحت بظهور التحولات الهائلة والتي أدت إلى تنوع الحياة وتشكل صورها المختلفة. أما اليوم فإن الكون دخل مرحلة أخرى من تاريخه الطويل؛ توسع الفضاء، وخفت الطاقات، وتغيرت الظروف، وتبدلت البيئات، وأصبحت الحياة تعمل ضمن منظومات أكثر استقراراً مما كانت عليه في الأزمنة الأولى.

ومن هنا أميل إلى القول إن قدرة الموجودات على التكيف ما زالت مستمرة، أما القدرة على إنتاج طفرات تطورية كبرى تغير الصورة الأساسية للأنواع فقد أصبحت أضعف بكثير مما كانت عليه في بدايات الوجود الحي. وأضرب لذلك مثلاً بالكائنات العملاقة التي عاشت في عصور قديمة؛ فهذه الكائنات لم تكن تعيش في الظروف نفسها التي نعيش فيها اليوم، بل في عالم مختلف من حيث المناخ والبيئة وتركيب الغلاف الجوي وسائر الشروط الطبيعية. ولذلك فإن مجرد إعادة تكوين الديناصورات لا يعني بالضرورة أنها ستكون قادرة على الحياة في عالمنا الحالي بالكيفية نفسها التي كانت عليها في زمنها، وربما تعجز عن البقاء حية لأيام معدودة في ظل هذا التغير الجذري في شروط البيئة.

ولست أقدم هذا الرأي بوصفه حقيقة نهائية، وإنما بوصفه تصوراً منسجماً مع رؤية روح الحياة؛ رؤية ترى أن الوجود مر بمراحل خصبة من التكوين والتطور، ثم دخل مراحل يغلب عليها التكيف والمحافظة على الأشكال التي استقرت عبر التاريخ الطويل للحياة.

إن روح الحياة لا تعمل بالقفزات السحرية، وإنما بالمسارات الطويلة. وما نسميه تطوراً أو تكيفاً ليس إلا وجوهاً مختلفة لحركة الوجود المستمرة في سعيها نحو مزيد من الظهور والتجلي.

لماذا توقف التطور المادي الكثيف؟ (من الفوران إلى الانتظام)

ولبيان هذه الفكرة بصورة أعمق، يمكننا تشبيه الأطوار الأولى للوجود بـ "مرحلة الفوران التكويني". في البدايات السحيقة، كانت طاقات الأرض والمادة في حالة من السيولة الكبرى والحرارة التكوينية العالية، وكانت القوانين الفيزيائية والبيولوجية¹⁷ تعمل كـ "حاضنة نشطة" شديدة التفاعل. في تلك المرحلة، كانت "العجينة الأولى" قابلة للتشكل الجذري، مما سمح بظهور طفرات كبرى وتنوعات هائلة في بنية الكائنات.

أما اليوم، فقد بردت هذه العجينة واستقرت قوالبها، ودخل الكون الأرضي في "طور الانتظام والتوازن". ولو استمر التطور الجذري (أي تغير الأنواع وظهور هياكل بيولوجية

¹⁷ القوانين الفيزيائية والبيولوجية: القوانين الفيزيائية هي السنن الكونية التي تحكم المادة والطاقة (كالطبيعة والحرارة والضغط)، بينما البيولوجية هي السنن الحيوية التي تحكم الكائنات الحية وتطورها الجيني، وتكاملهما معاً في البدايات شكل "الحاضنة النشطة" التي سمحت للمادة بالتشكل الجذري وظهور طفرات الأنواع قبل أن تدخل مرحلة الاستقرار والانتظام.

جديدة كلياً) بنفس الوتيرة المفتوحة، لاستحالت الحياة على الأرض؛ لأن التوازن البيئي وشبكة الحياة المعقدة يحتاجان إلى استقرار وثبات نسبي لكي تزدهر الكائنات. ولهذا، أوقفت "روح الحياة" بانتظامها الكوني عجلة التطور العضوي الجذري، واكتفت بـ "التكيف" كأداة لحماية هذه القوالب من الاندثار.

انتقال مسار التطور: من قوالب المادة إلى مدارج الوعي

لكن السؤال الأهم هنا: هل توقف التطور في روح الحياة كلياً؟ الجواب القاطع في هذه الرؤية هو: لا. إن التطور لم يتوقف، بل غير مساره وميدانه.

فبعد أن بلغت الأجساد والهيكل البيولوجية¹⁸ ذروة كفاءتها وتوازنها مع البيئة الأرضية، لم تعد هناك حاجة ماسة لتغيير شكل الجسد أو بنيته الأساسية. وهنا انتقلت دفعة التطور من "المادة الكثيفة" إلى "الطاقة اللطيفة"؛ أي من تطور الأجساد إلى تطور الوعي والإدراك.

إن التطور الحقيقي الذي يشهده الإنسان اليوم، والذي تشهده روح الحياة من خلاله، لم يعد تطوراً في طول القامة، أو شكل الأطراف، أو حجم كتلة البدن، بل هو تطور هائل في مدارك العقل، واتساع الوعي، والقدرة على فهم الكون، واستيعاب المفاهيم المجردة، واكتشاف القوانين الكونية.

¹⁸ المقصود بـ "الهيكل البيولوجية" في هذا السياق هو الأجساد المادية، وبنيته التشريحية، وأجهزتها العضوية التي تخص الكائنات الحية (وعلى رأسها الإنسان).

فالإنسان الحديث لا يختلف عن أسلافه القدماء اختلافاً بيولوجياً جذرياً، لكنه يختلف عنهم اختلافاً طاقوياً وذهنياً شاسعاً. لقد أصبح العقل الإنساني والوعي الداخلي هما الميدان الجديد الذي تمارس فيه "روح الحياة" مسارها التطوري. فكما كانت الطبيعة قديماً تجري تجاربها على الأجساد لتصل إلى البدن الأكمل، هي اليوم تجري تجاربها على "الأفكار والعقول والوعي" لتصل إلى الإدراك الأكمل. لكن ليس بالضرورة أن تصل روح الحياة في ظهوراتها الى غاية الكمال ونهايته.

وبهذا الفهم، ندرك أن التكيف هو حارس الجسد المادي في هذا العصر، بينما التطور الحقيقي قد ارتقى ليكون حادي الوعي الإنساني في رحلته لاكتشاف ذاته واكتشاف روح الحياة التي انبثق منها.

الأرض والتلاحق البشري

منذ سنوات طويلة، وفي حلقات عديدة نشرتها، كما في مقالات كتبتها قبل ذلك بسنوات، طرحت تصوراً يختلف عن كثير من الآراء الشائعة حول أصل الإنسان وتطوره. وما زلت إلى اليوم أرى أن هذا التصور أقرب إلى رؤية «روح الحياة» التي أعرضها في هذا الكتاب.

وكنت أعبر عن هذه الفكرة بعبارة رمزية ذات طابع شعري، فأقول:

"كأَنَّمَا قُبِضَتْ مِنْ كُلِّ أَرْضٍ قَبْضَةٌ، فَأُوجِدَ مِنْهَا كَائِنٌ وَمُكَوَّنٌ."

ولم أكن أقصد بذلك معنى حرفياً أو رواية دينية، بل كنت أحاول التعبير عن فكرة أرى أنها جديرة بالتأمل؛ وهي أن الأرض ليست مجرد مسرح تظهر عليه الحياة، بل هي شريك في ظهورها، وأن لكل أرض خصائصها وإمكاناتها التي تسهم في إظهار صور الحياة التي تنشأ فيها.

فعندما نتأمل الموجودات الحية نجد أن الكائنات تختلف باختلاف البيئات التي ظهرت فيها. فالغزال الإفريقي يختلف عن الغزال الذي يظهر في مناطق أخرى من العالم، كما تختلف أنواع الحيوانات والنباتات من قارة إلى أخرى، مع احتفاظها بأصول وصفات مشتركة تربط بينها.

ومن هنا أرى أنَّ الإنسان قد ظهر بالطريقة نفسها. ففي الوقت الذي تميل فيه بعض النظريات إلى اعتبار جميع البشر المعاصرين منحدرين من أصل واحد ظهر في إفريقيا ثم انتشر إلى بقية أنحاء الأرض، أرى أن المسألة أوسع وأكثر تعقيداً من ذلك.

ولا أنكر وجود التشابهات الجينية بين البشر، كما لا أنكر الروابط الوراثية التي تجمع الكائنات الحية عموماً. لكنني لا أرى أن وجود التشابه الجيني وحده يكفي لإثبات أن جميع الصور البشرية ظهرت حصراً في بقعة واحدة من الأرض. فقد يكون هذا التشابه راجعاً إلى أصل أعمق وأقدم، مرتبط بطبيعة الحياة نفسها وبالقوانين التي قامت عليها الموجودات منذ بداياتها الأولى.

فإذا قيل إن التشابه الجيني بين البشر يقتضي بالضرورة منشأً واحداً، لوجب علينا إذن أن نعمم هذا القول على سائر الكائنات والموجودات الأخرى؛ كالغزلان والذئاب وغيرها من الحيوانات التي تتشارك أيضاً في صفات وراثية واسعة. فلماذا نُقصر هذا الحكم على الإنسان وحده، ونفترض خروجه من بقعة واحدة، بينما نقبل بظهور تلك الكائنات في بيئات متباعدة ومتنوعة؟ ولهذا أميل إلى الاعتقاد بأن الأرض، في أقاليمها المختلفة، كانت قادرة على إظهار صور بشرية متعددة، كما أظهرت صوراً متعددة من النباتات والحيوانات والكائنات الأخرى.

وفي رؤية «روح الحياة»، لا أرى أن الإنسان كان استثناءً منفصلاً عن بقية الحياة. فكما أن الأرض الإفريقية أظهرت كائناتها وفق ظروفها وطاقتها، والأرض الآسيوية أظهرت كائناتها وفق ظروفها، وكذلك سائر القارات والأقاليم، فإن الإنسان أيضاً ظهر وتطور داخل البيئات التي احتضنته وأمدته بشروط وجوده.

غير أن العنصر الأهم في هذا التصور لا يكمن في تعدد المواطن الأولى للإنسان فحسب، بل فيما حدث بعد ذلك من تواصل واختلاط وتلاقح بين الجماعات البشرية المختلفة. فمع الهجرات والتنقلات واللقاءات المتكررة بين الشعوب، بدأت الصفات والخبرات والخصائص تتداخل وتتفاعل. وهنا أرى أن التلاقح كان أحد العوامل الكبرى التي ساهمت في توسيع إمكانات الإنسان الجسدية والعقلية، وفي إظهار قدرات كانت كامنة فيه.

لقد قلت منذ سنوات إن التلاقح ليس مجرد اختلاط بين جماعات بشرية مختلفة، بل هو قوة مولدة للتنوع والتجدد. فحين تلتقي الصفات المختلفة وتتفاعل، تظهر إمكانات جديدة لم تكن ظاهرة من قبل، كما تظهر صور أكثر غنى وتعقيداً وقدرة على التكيف والإبداع.

وقد استندت في هذا الرأي أيضاً إلى ملاحظة يراها كثير من الناس في واقع حياتهم اليومية. فحين يحدث تلاقح بين جماعتين بشريتين مختلفتين في البيئة والخلفية الوراثية، تظهر في الأبناء صفات تجمع مزايا الطرفين. فلو تزوج رجل عراقي أو مصري من امرأة روسية مثلاً، فإننا نلاحظ في كثير من الحالات أن الأبناء يجمعون صفات جسدية وذهنية متنوعة، وقد يظهر فيهم من الجمال أو الفطنة أو التكيف ما يفوق ما هو موجود عند أحد الأبوين منفرداً. ولا أقول إن ذلك قانون صارم لا يُخرق، بل هي قاعدة عامة —ولكل قاعدة استثناء— وهو أمرٌ يلحظه الناس في أحوال كثيرةٍ من هذه الزيجات.

وأرى أن المبدأ نفسه يمكن ملاحظته في كثير من الكائنات الحية الأخرى. فعندما يحدث تلاقح بين سلالتين مختلفتين من الحيوانات، قد تظهر في النسل صفات جديدة

تجمع بعض مزايا السلالتين معاً. وليس المقصود أن النتيجة تكون دائماً أفضل من الأبوين، فذلك ليس قانوناً ثابتاً، إذ قد تظهر أحياناً صفات ضعيفة أو اختلالات غير مرغوبة. لكن الغالب في حالات التلاخ الناجحة هو اتساع دائرة التنوع وظهور إمكانات جديدة لم تكن ظاهرة بالدرجة نفسها في الأصلين المنفصلين.

ومن هنا أقول: إن التلاخ كان من أهم العوامل التي أسهمت في فتح ذهن البشري وتوسيع مداركه عبر العصور. فالتطور الذهني والبدني والحضاري الذي بلغه الإنسان لم يكن ثمرة العزلة والانغلاق، بل نتاج التفاعل الطويل والامتزاج المستمر بين الجماعات البشرية والشعوب والثقافات والخصائص المتنوعة على امتداد آلاف السنين.

ولهذا فإنني لا أنظر إلى تاريخ الإنسان بوصفه تاريخ خط واحد خرج من نقطة واحدة ثم انتشر، بل أراه تاريخ ظهورات متعددة، أعقبها تفاعل واسع وتلاخ مستمر، نتجت عنه الصورة البشرية التي نعرفها اليوم.

ورؤية «روح الحياة» تنظر إلى هذا التداخل بوصفه امتداداً لقانون أوسع يحكم الوجود كله؛ فالحياة تتقدم عبر التفاعل والاختلاط والتأثير المتبادل، لا عبر العزلة والانغلاق. وكلما اتسعت دوائر التفاعل، ظهرت إمكانات جديدة لم تكن ظاهرة من قبل.

ولهذا أرى أن الإنسان الحديث ليس ثمرة أصل واحد بسيط فحسب، بل ثمرة مسارات طويلة من الظهور والتفاعل والتلاخ والتبادل، وهي مسارات ما زالت مستمرة إلى يومنا هذا. غير أن الأثر الأعظم والحركة الكبرى كانا لذلك التلاخ القديم الذي فتق إمكانات الإنسان، وأنتج بالصورة التي نراه عليها اليوم، بفضل وقدرته من روح الحياة.

فلسفة التطور: بين عشوائية داروين وحكمة «روح الحياة»

كثيراً ما يُطرح التطور البيولوجي بوصفه حقيقة علمية لا تقبل الجدل، وهو في واقعہ كذلك؛ إذ لا يمكن إنكار التغيرات التي طرأت على الكائنات عبر الأحقاب السحيقة. غير أن الإشكالية الكبرى لا تكمن في "حدوث" التطور، بل في "فلسفته" والآليات والمحركات التي تقف وراءه. وهنا، يقع الكثيرون في فخ الخلط بين حقيقة التطور وبين التفسير الدارويني المادي له، ظناً منهم أنهما شيء واحد.

إن رؤية «روح الحياة» تُقر بالتطور كفعل انبثاق وتكويني، لكنها تفتقر جذرياً، جملة وتفصيلاً، عن الرؤية الداروينية في تفسير هذا اللغز العظيم. ويتجلى هذا الافتراق العميق في أربعة محاور مفصلية:

أولاً: محرك التطور (بين العشوائية العمياء والبذور الكامنة)

- ما يقوله داروين: تقوم الداروينية على مبدأ "العشوائية". تفترض هذه الرؤية أن التغيرات التي تطرأ على الكائنات هي مجرد "طفرات جينية عمياء" لا تحمل أي غاية مسبقة. وتلعب البيئة القاسية دور المنجل أو الغربال (الانتخاب الطبيعي¹⁹)؛ فتُفني الكائنات الضعيفة، وتُبقى على من أسعفته الصدفة بطفرة مفيدة. في هذا التصور، الطبيعة لا تخطط، والبيئة هي التي "تخلق" الحاجة وتُشكل الكائن عبر ملايين السنين من التخبط.

¹⁹ الانتخاب الطبيعي (Natural Selection): الآلية الأساسية في نظرية داروين، وتنص على أن الكائنات ذات الطفرات العشوائية الأكثر ملاءمة لبيئتها هي التي تنجو وتورث صفاتها، بينما تفنى الكائنات الأضعف.

- ما تقوله رؤية «روح الحياة»: ترفض هذه الرؤية فكرة العشوائية رفضاً قاطعاً. فالبيئة والاضغوطات الطبيعية لا "تخلق" صفة من العدم، بل هي مجرد "مُحفّز" يوقظ شفرة أو "بذرة كامنة" أودعت سلفاً في الجرثومة الأولى للكائن. العقل الجبار، والغرائز المعقدة، والقدرات التشريحية المذهلة، لم تتشكل صدفة لتلي ضغطاً بيئياً، بل كانت استعدادات مخبوءة في العجينة الكونية الأولى. وكما أن الماء لا يخلق الشجرة من البذرة بل يستدعي ما بداخلها، كذلك تفعل البيئة؛ فهي تستدعي الإمكانيات الكامنة وتدفعها للظهور استجابةً لغاية تطويرية مرسومة في قلب العجينة الكونية.

ثانياً: أصل النشأة (بين الأصل الجغرافي الأوحـد وتعدد حواضـن الانبثاق)

- ما يقوله داروين: تتركز الداروينية حول فكرة "السلف المشترك" والشجرة ذات الجذع الواحد. وقد انسحب هذا التصور على نشأة الإنسان؛ إذ رجّح داروين (وتعصّب أتباعه من بعده) لفرضية أن الإنسان انحدر من سلف بيولوجي وجغرافي واحد انطلق من القارة الإفريقية، ثم هاجر منها ليعمر بقية الأرض. هذه الرؤية تحصر قصة البشرية في نقطة انطلاق جغرافية يتيمة.
- ما تقوله رؤية «روح الحياة»: تُقرّ الرؤية بوحدة الأصل الكوني (العجينة الكونية الأولى)، لكنها ترفض أسطورة "الأصل الجغرافي والبيولوجي الأوحـد" للإنسان. ففي عقيدة «روح الحياة»، قبضة التكوين أوسع وأعظم من أن تُحصر في بقعة واحدة. لقد تعددت حواضن الانبثاق؛ فكل أرضٍ أنبتت كائناتها وأجناسها البشرية بما يتلاءم مع طبيعتها وذبذباتها. الأجناس البشرية الأولى

انبثقت بصورة مستقلة في بيئات متعددة. وما نراه اليوم من تقارب بين البشر هو انعكاس لوحدة الأصل الكوني الأعظم، ونتاج طبيعي للتلاحق بين تلك السلالات عبر العصور، وليس دليلاً على الانحدار من شجرة جغرافية واحدة.

ثالثاً: ديمومة التطور (بين الوتيرة الواحدة وانقضاء حقبة الرحم الكوني)

- ما يقوله داروين: التطور في الفكر الدارويني عملية مستمرة لا تتوقف أبداً (مبدأ الوتيرة الواحدة). يعتقد الماديون أن القوانين التي غيرت أشكال الكائنات جذرياً في الماضي، ما زالت تعمل بالقوة نفسها اليوم. ويفسرون غياب التحولات الجذرية في الكائنات الحالية بأن العملية بطيئة جداً وتستغرق ملايين السنين، لكنها مستمرة بلا توقف.
- ما تقوله رؤية «روح الحياة»: تقدم الرؤية الكونية تفسيراً أعمق لـ "توقف" التطور الظاهري والجذري للكائنات. فالكون مر بمراحل طاغوية متفاوتة. في العهود السحيقة، كان الكون يعمل كـ "رحم كوني" يغلي بالتفاعلات والذبذبات التكوينية العنيفة التي تُسرّع من وتيرة التشكل والانبثاق. ولكن، عندما أثمرت هذه الحياة منتوجاتها، ووصلت الكائنات إلى غاياتها البنيوية، واستقر التوسع الفيزيائي، "خفتت" تلك الطاقات الكونية العظيمة. لقد استنفدت البيئة الحاضنة طاقتها التكوينية الكبرى، ولذلك توقف التطور الجذري الملحوظ، وما نشهده اليوم لا يعدو كونه تكييفات مناعية أو ذهنية طفيفة لا تمس البنية الظاهرية والجوهرية للكائنات.

رابعاً: آلية البقاء (بين وهم الانتخاب الأعمى وقصدية التنوع)

- ما يقوله داروين: يقوم الطرح الدارويني المادي على قاعدة صارمة تُعرف بـ"الانتخاب الطبيعي" أو "البقاء للأصلح والأقوى"، مدعياً أن الطبيعة تقضي بلا رحمة على الكائنات الضعيفة والبطيئة، لتبقي فقط على من أسعفته الطفرات العشوائية بقوة أو سرعة أو تمويه يضمن بقاءه.
- ما تقوله رؤية «روح الحياة»: ترفض الرؤية هذه القاعدة وتعدّها وهماً يسقط أمام القراءة المتأمله لكتاب الطبيعة. لذلك سوف نجتمع ردنا هنا في ثلاث نقاط مهمة:

1. معضلة الضعف والقوة في غياب الغاية: إذا كان أصل الكائنات واحداً، والتطور مجرد "خبط عشواء" لا يحمل غاية مسبقة، فمن أين انبثقت ثنائية "الضعف والقوة" في أصل التكوين؟ لماذا وُجد الضعيف أصلاً إذا كانت العشوائية هي المحرك؟ في رؤية «روح الحياة»، نُقر بأن الأصل الكوني واحد، لكنه لم يتنوع عبثاً أو صدفة، بل تنوع "لغايات" مقصودة. إن القوة والضعف، والسرعة والبطء، ليست أخطاء طبيعية أو طفرات عمياء، بل هي مقادير وقابليات أودعت في البذور الأولى لتلعب أدواراً محددة في سيمفونية الوجود.
2. بقاء الضعيف وسقوط حتمية الانتخاب الطبيعي: لو كان قانون "إفناء الضعيف" حتمياً كما يزعم الماديون، فكيف نبرر بقاء حيوانات في غاية البطء والضعف إلى يومنا هذا؟ تزخر الطبيعة بكائنات بطيئة الحركة، كحيوان "الكسلان" وغيره من الفصائل التي تفتقر لأدنى درجات الدفاع الجسدي أو السرعة، والتي يمكن لحيوان مفترس أن يقضي عليها في طرفة عين. ومع ذلك، لم تنقرض هذه

الأنواع وعبرت الأحقاب بنجاح. إن بقاء هذه الكائنات يثبت أن استمرارية الحياة ليست مرهونة بـ"مخالب القوة" أو "أنياب الصراع" فحسب، بل بقوانين تكوينية أعمق تحافظ على التنوع.

3. خرافة "التمويه اللوني" كدليل على العشوائية: كثيراً ما يتبجح أنصار التطور المادي بمثال "الدب القطبي"، مدعين أن لونه الأبيض هو نتاج طفرة عشوائية أبقتة حياً في الثلوج للتمويه وصيد الفرائس. لكن هذا التعليل الساذج يصطدم بحقيقة أن البيئة القطبية تعج بكائنات لا تحمل اللون الأبيض ولم تنقرض. ولو كان التمويه هو شرط البقاء الوحيد، فكيف نجا حيوان مثل "الباندا"؟ فهو يمتلك لوناً شديد الوضوح (أبيض وأسود) يجعله هدفاً مكشوفاً تماماً في بيئته، ومع ذلك لم ينقرض ولم تُفنه الطبيعة. إن القضية إذن أبعد بكثير من مجرد معادلة مادية سطحية للون أو قوة بدنية.

السر الأعظم: البذور الكامنة وإرادة الطينة الأولى

إن السر الذي يغفل عنه التفسير المادي يكمن في طبيعة النشأة. نحن في رؤية «روح الحياة» نؤكد أن الإنسان، والحيوان، والشجر، قد انبثقوا جميعاً من ذات "الطينة الكونية الأولى". ولكن هذه الطينة ليست مادة ميتة أو عمياء، بل هي جوهر ينبض بـ"الإرادة"، وتحمل في طياتها "بذوراً متنوعة" وقدرات كامنة لا حصر لها.

إن ما يحدث في الطبيعة ليس خلقاً عشوائياً لصفات جديدة، بل هو عمل "المحفزات" البيئية. هذه المحفزات تطرق أبواب البذور المودعة في كل جنس ونوع، فتستدعي الإمكانات الخبأة فيها لتظهر إلى الوجود وفق حال كل كائن.

فالقاعدة الكونية الصارمة تنص على أنه: "لا يُنتج شيء من لا شيء". الضعف، القوة، الذكاء، والألوان؛ كلها كانت مكتوبة في البذور الأولى بالقوة، وجاءت المحفزات لتُخرجها إلى حيز الفعل، في نظام دقيق لا مكان فيه لخطب العشواء.

الطينة الأولى ولوحة الشطرنج: بين هندسة الانبثاق وقانون الحظوظ لتقريب هذه الحقيقة الكونية إلى الأذهان، وبيان كيف تنوعت المقادير في أصل النشأة لتنتج هذا التباين الهائل بين الإنسان وسائر الحيوانات، نضرب مثلاً يوضح حقيقة «الطينة أو العجينة الأولى».

إن هذه الطينة الكونية، رغم وحدة أصلها وجوهرها، ليست مادة صماء أو كتلة متجانسة بلا ملامح، بل هي جوهر أودعت فيه القوى والطباع والقدرات بـ"هندسة كونية" دقيقة؛ أشبه ما تكون بـ«لوحة الشطرنج». قد ينظر المراقب السطحي إلى رقعة الشطرنج وما يقع عليها من حركات فيظنها ضرباً من العبث أو خبط العشواء، لكنها في الحقيقة محكومة بنظام هندسي، وقدرات كامنة، ومراد كوني دقيق أودع في كل قطعة وفي كل مربع.

وحين امتدت يد القدرة التكوينية لتوزع وتأخذ «قبضات» من هذه الطينة الكونية الأولى، كانت كل قبضة تحمل في طياتها نصيباً معيناً من تلك البذور والطاقات الكامنة. فالقبضة التي انبثقت منها الإنسان كانت تحوي "بذرة الوعي البشري الفائق" كاستعداد

كامن ينتظر محفزات المستقبل ليظهر بصورته الحالية، بينما القبضة التي انبثق منها الكلب
—على سبيل المثال— كانت تحمل وعياً يتناسب مع رتبته، وهكذا دواليك في سائر
الكائنات.

(ونحن هنا، بطبيعة الحال، نقصر حديثنا على كوكبنا الأرضي ومسار الحياة فيه، ولا
نقطع بما في العوالم أو الكواكب الأخرى السحيقة؛ فقد تحوي حيوات وانبثاقات
وكائنات تفوق الإنسان ذكاءً أو توازيه، لكن مجال بحثنا محصور في نشأة إنسان
أرضنا).

وهنا يبرز سؤال جوهري: أليس هذا التوزيع للمقادير والقبضات ضرباً من العشوائية؟
تجيبكم رؤية «روح الحياة» بتفريق فلسفي دقيق: قد يبدو هذا التوزيع من بعيد وكأنه
"خبط عشواء" أعمى، لكنه في واقعه أقرب إلى ما نسميه «قانون الحظوظ».

والحظ هنا ليس هو "الصدفة العمياء" كما يتوهم الفكر المادي، بل هو «إرادة كونية
وعطاء مخبوء» في كيان كل موجود لينال المراتب التي وُجد لأجلها. إننا نرى في حياتنا
أن إنساناً قد يولد في توافقات زمانية وطاقوية تجعل مساراته ميسرة، بينما يولد آخر في
ظروف تجعل مساراته معسرة؛ هذا ليس خبط عشواء، بل هو قانون كوني يعمل
كعطاء يتلقاه الكائن وفق استعداداته وارتباطه بشبكة الوجود.

الفرق بينهما شاسع؛ فـ"خبط العشواء" المادي يفترض أن الوعي أو الصفة قد نشأت
من "العدم المطلق" بلا مقدمات. أما "ضربة الحظ" أو الاحتمال الكوني الذي وقع في
توزيع قبضات الطينة الأولى، فهو توزيع طال "بذوراً وقدراتٍ موجودة بالفعل".

إن قانون الحظ ما زال يلعب دوراً كبيراً في حياتنا حتى يومنا هذا، لكن القاعدة الذهبية تنص على أن: الحظ لا يصنع شيئاً من لا شيء، بل يفتقر دائماً إلى «قَابِل» و«بذرة» ينطلق منها. الحظ لا يخلق العقل البشري من العدم، بل كانت هناك "ضربة حظ" أو "استحقاق كوني" جعل هذه القبضة المحددة من الطينة تحوز على "بذرة الوعي"، ثم جاءت المحفزات البيئية لتوقظ هذه البذرة وتنمّيها.

بهذا الفهم، يسقط تفسير العشوائية العمياء، ليحل محله فهم أعمق للوجود: تنوع تحكّمه هندسة كونية، وقبضاتٌ تحمل بذوراً متفاوتة، وقانون احتمالاتٍ يعمل على مادةٍ حيّةٍ ومُعَدّةٍ سلفاً في محراب «روح الحياة».

روح الحياة بين التغير ومسيرة الوجود

وفق ما أراه من روح الحياة فإنها أبدية ثابتة من جهة أصلها، متغيرة وغير ثابتة من جهة مظاهرها وخصائصها فهي لا تتجلى في صورة واحدة ثابتة. فالثبات للأصل والمصدر الأول من حيث الكينونة، أما الظهورات نخاضعة للتغير والتحول والتجدد.

ولهذا لا أرى أن التغير نقيض للحقيقة، بل أراه أحد مظاهرها. فالكون الذي نعرفه قائم على الحركة؛ الأجرام تدور، والنجوم تولد وتموت، والكائنات تنشأ وتطور، والأجيال تتعاقب، والحياة كلها تكشف عن نفسها من خلال التحول المستمر.

ومن هنا فإن وجود الأمراض والعلل والاضطرابات لا ينبغي أن يفهم على أنه دليل على فساد الأصل أو على إرادة مقصودة للألم؛ فالوجود لا يظهر في صورة مكتملة دفعة واحدة، بل يسير في مسارات طويلة من التكوين والتطور والتجربة.

إن الألم والمرض والعجز والافتراس وسائر مظاهر النقص التي نراها في الطبيعة تكشف أن العالم ليس منتجاً نهائياً تم على وجه الكمال المطلق، بل واقع متحرك ما زال يكشف عن إمكاناته عبر الزمن.

ولذلك يصبح التطور أحد المفاتيح المهمة لفهم الحياة؛ لأنه يبين كيف تستطيع الموجودات أن تتجاوز بعض أوجه النقص، وأن يطور الإنسان وسائل جديدة للبقاء والمعرفة والتكيف.

وفي هذا السياق يظهر الإنسان بوصفه واحداً من الكائنات التي بلغت فيها القدرة على الوعي والتأمل درجةً مكنتها من دراسة قوانين الوجود ومحاولة فهمها. وليس امتياز

الإنسان في أنه سيد الكون أو مركزه، بل في أنه أحد المواضع التي أصبح فيها الكون قادراً على أن يتأمل نفسه وأن يعي جانباً من مساره؛ فالإنسان صورة يرى فيها الكون ذاته، ومראה تنعكس فيها بعض ملامح روح الحياة.

ومن هذا الفهم تنشأ آثار أخلاقية وروحية عميقة، لعل من أبرزها شعور الإنسان بالامتنان للوجود الذي انبثق فيه ويعيش من خلاله. فالوعي بوحدة الأصل وتربط الموجودات لا يقود إلى التعالي والانفصال، بل إلى إدراك أعمق للمكان الذي يشغله الإنسان داخل النسيج الكوني الكبير، وإلى شعور متزايد بالانتماء والمسؤولية تجاه الحياة بكل صورها وتجلياتها.

خلاصة الفصل الثاني

إن رؤية «روح الحياة» تنظر إلى الوجود بوصفه مسيرة انبثاق وتطور متصلة، لا بوصفه نتاجاً لصدفة عمياء أو عشوائية بلا معنى. فالتنوع والتغير والإبداع ليست أحداثاً طارئة على الوجود، بل مظاهر لطاقات وإمكانات كامنة أخذت تتجلى عبر الزمن في صور لا حصر لها. ومن هذا المنطلق يمكن إجمال لغز التطور في أربع ركائز أساسية تفتقر جذرياً عن الطرح المادي السائد:

أولاً: الضغط البيئي مُحفّز لا خالق. فالطبيعة بقسوتها لا تخلق صفات من العدم، بل تلعب دور المحفّز الذي يوقظ بذوراً واستعدادات كامنة أودعت سلفاً في الجرثومة

الأولى للكائن. العقل البشري والقدرات الحيوية المتنوعة لم تُخلق صدفة تلبيةً لضغط بيئي، بل ظهرت لأن البيئة استدعت إمكانات مخبوءة في الطينة الأولى.

ثانياً: تعدد حواضن الانبثاق. تسقط هنا أسطورة «الأصل الجغرافي الأوحده» التي تحصر منشأ الإنسان في بقعة واحدة. إن مرونة الانبثاق الكوني تقتضي أن كل أرض أنبتت كائناتها بما يتناغم مع بيئتها، وما التقارب الظاهر بين الأجناس اليوم إلا انعكاس لوحدة الأصل الأول والتلاحق الطبيعي عبر العصور، وليس دليلاً على الانطلاق من نقطة جغرافية يتيمة.

ثالثاً: التلاحق البشري وسر انفتاح الذهن. إن الارتقاء الإنساني واتساع المدارك لم يكن مجرد استجابة لبيئة قاسية، بل كان نتاجاً مباشراً لعملية التلاحق الكبرى بين السلالات التي انبثقت من حواضن جغرافية متعددة. هذا الاندماج هو الذي فتق الذهن البشري وجمع أفضل الخصائص المودعة في طينة البشر، ليدفع بالمسيرة الإنسانية نحو ذروة نضجها العقلي والجسدي.

رابعاً: انقضاء حقبة «الرحم الكوني». يُحل لغز توقف التطور الظاهري الجذري اليوم بفهم ديناميكية الطاقات الكونية. لقد خفت الذبذبات التكوينية العنيفة التي كانت تملأ الكون في عهوده السحيقة وتسرع من تشكّل الكائنات. فقد استنفدت البيئة الحاضنة طاقتها بعد أن أوصلت الكائنات إلى غاياتها البنيوية واستقر التوسع الكوني، لينحصر التطور اليوم في تكيفات طفيفة لا تمس البنية الجوهرية.

ختاماً، نحن لسنا مجرد طفرات عشوائية نجت من مقصلة الطبيعة، بل ثمار نضجت في رحم كوني عظيم، تحركت بذورها الكامنة، وتعددت حواضنها، وتفاعلت مكوناتها

حتى بلغت صورها الراهنة. ومن هنا لا يكون التغير نقيضاً للحقيقة، بل أحد مظاهرها، ولا يكون التنوع خروجاً عن الأصل، بل تعبيراً عن غناه واتساع إمكاناته. وهكذا تظل مسيرة الوجود، في رؤية «روح الحياة»، رحلةً مستمرة من الانبثاق والتجدد وإظهار ما أودع في البدايات الأولى من طاقات وإمكانات.

الفصل الثالث

الأنوثة ووحدة الوجود

روح الحياة والأنوثة الكونية

روح الحياة ليست ذكراً ولا أنثى؛ فنحن الذين نصوغ الألفاظ وفق لغاتنا البشرية المحدودة وأطرنا الإدراكية القاصرة، ثم نحاول من خلالها التعبير عن حقيقة أوسع من اللغة وأسبق على الوجود اللفظي ذاته.

قد نسميها «النور المقدس»، أو «الروح الكونية»، أو «روح الحياة»، وقد أطلق البشر عليها عبر التاريخ أسماء كثيرة ومختلفة. وليس المقصود أن هذه الأسماء متطابقة تماماً في معانيها ومضامينها التاريخية، وإنما المقصود أن الإنسان كان يحاول دائماً أن يعبر عن الأصل الأعلى الذي شعر أن وجوده متصل به، وأن حياته منبثقة منه.

غير أن المتأمل في تاريخ الفكر البشري يلاحظ كيف جرى «تذكير» المطلق وتأطيره في صورة الأب السماوي أو الأمر الخارجي. ولم يكن ذلك نابعاً من ضرورة وجودية أو برهان عقلي، بل كان انعكاساً لمسار تاريخي تحولت فيه المجتمعات من تقديس «الأصل الأنثوي» الحاضن - كما كان في الحضارات القديمة التي رأت في الرحم والأرض

والماء رموزاً للظهور الكوني - إلى هيمنة النماذج الذكورية البطريركية²⁰ التي أسقطت على الذات الأولى قيم السلطة والتعالى، وصورتها ككيانٍ منفصلٍ ومفارقٍ للكون، يديره من الخارج بدلاً من أن ينبثق الوجود من داخله.

في رؤيتنا يمكن وصف «روح الحياة» بأنها الأم والأب والمقوم لكل قائم. وليس المقصود بذلك أمومة أو أبوة بالمعنى البيولوجي الجزئي، بل هي أمومة وجودية شاملة؛ فنحن ذرات في بدننا الكوني، وخلايا في هذا الوجود المقدس، وقطرات في محيطها السرمدي. نحن بها ومنها وما زلنا منبثقين فيها، فكيف لا تكون هي أمنا الأولى وراعية وجودنا؟

ومن هنا فإن الذكورة والأنوثة، كما نعرفهما في عالم الأحياء، ليستا من صفات روح الحياة ذاتها، بل هما من الصور والتجليات التي ظهرت داخل نسيج الوجود. غير أنني إذا أردت أن أصف تجليها أو أختار رمزاً أقرب إلى حقيقتها الجوهرية، فإنني أرى أن رمزية «الأنوثة» بها أليق وإليها أقرب؛ فالأنوثة في جوهرها الوجودي هي رمز الانبثاق الداخلي، والاحتضان، والرعاية، والعطاء الشامل. إنها تُحاكي صورة الوجود الحاضن الذي تنبثق فيه الكائنات من الداخل، كما ينبثق الجنين في رحم أمه؛ يتغذى فيها، ويستمد وجوده منها، ويظل متصلاً بها في جميع أطوار تكوينه دون أن يفصل عنها. أما النموذج الذكوري الموروث فيُسقط على الإله صورة الصانع المنفصل عن مصنوعه، الذي يقف خارج صنعه ويمارس عليه أمراً فوقياً.

²⁰ البطريركية: مصطلح مشتق من اليونانية القديمة (Patriarkhes)، ومكون من شقين: (Pater) وتعني الأب، و(Archein) وتعني الحكم أو الرئاسة؛ ليفيد معنى "حكم الأب" أو النظام الأبوي. والمقصود بها هنا: التحول الفكري والتاريخي الذي نقل مركزية التصورات الوجودية من "الأمومة الحاضنة" إلى "السيادة والتعالى الذكوري".

ومن طرائف السجلات والحوارات التي خضتها مع بعض رجال الدين حول طبيعة المطلق، أنهم كانوا يعجبون من طرحي حين أتساءل: لماذا يُمنع الإنسان من مخاطبة الإله بضمائر المؤنث؟ كأن يقول: «أنتِ»، أو «يا إلهتي»، أو «يا ربّي»، أو «يا سيّدي»؟ ولماذا هذا الإصرار الحصري على الضمير المذكّر؟

فإن كان الإله عندكم ليس ذكراً ولا أنثى، وأنتم تزعمون أنكم لا تحطون من قدر الأنوثة، فلماذا تُشنّ الهجمات وتُكال تهم الشرك والكفر على من يخاطبه بصيغة المؤنث؟ إن كانت المسألة مجازاً لغوياً للتعبير عن الذات التي لا تُشبه الأشياء، فكما يُخاطب بصيغة المذكّر مجازاً وهو ليس ذكراً، يحقّ لغيركم أن يخاطبه بصيغة المؤنث مجازاً وهو ليس أنثى.

وكانوا في الغالب يُجزمون عن الرد، ويعجزون عن تقديم جواب منطقي يفكك هذا الإشكال؛ لأن رفض التأنيث مع الإقرار بأن الإله ليس ذكراً ولا أنثى يكشف أن التذكير ليس مجرد اصطلاح لغوي بريء، بل يعكس صورة ذهنية متجذرة تجعل النموذج الذكوري هو المرجع الضمني عند الحديث عن المطلق.

والحقيقة أن اللغة نفسها وليدة التجربة البشرية وتناج الصيرورة الاجتماعية، بينما روح الحياة أوسع من أن تحيط بها صيغة لغوية واحدة أو وصف محدد. إن ألفاظ التذكير والتأنيث لا تُغير من الحقيقة الكونية شيئاً، وإنما تكشف عن طبيعة الأدوات التي يحاول بها الإنسان فهم العالم.

وعليه، فإن الأبوة والأمومة، والذكورة والأنوثة، ما هي إلا مفاهيم ظهرت مع العالم المادي، وخصوصاً في صور عالم الأحياء، بوصفها تجليات ومظاهر لخصائص أعمق

كانت حاضرة في ذلك الأصل الكوني الذي صدرت عنه الموجودات كافة. فالأنوثة والذكورة ليستا من صفات روح الحياة، بل هما من صفات المظاهر المنبثقة منها.

ولهذا فإنني أرى أن استعمال رمزية التأنيث عند الحديث عن روح الحياة أقرب إلى حقيقتها من استخدام التذكير؛ فصورة الأم بما تحمله من احتضان ورحمة وانبثاق ذاتي وعطاء دائم، أليق بالتعبير عن الأصل الأول الذي لم يصنع الوجود من الخارج، بل فاض به من ذاته وفي ذاته. أما التذكير فليس له أولوية وجودية، وإنما ترجع غلبته التاريخية إلى طبيعة المجتمعات وانعكاس أطرها السلطوية على لغاتها وتصوراتها اللاهوتية. ولذلك أجد أن الرمز الأنثوي أكثر قدرة على استيعاب المعنى وأليق بروح الحياة: فهي الأم الأولى، والحاضنة الكونية، والرحم السرمدي الذي منه انبثقت الموجودات، وبها ما زالت قائمة ومتجددة في الوجود.

فالصانع يقف خارج ما يصنعه، أما الأم فتنشأ الحياة في داخلها ومنها. والنجار لا يشارك الباب وجوده، بينما تشارك الأم جنينها وجودها وغذاءها ونموه في جميع مراحلها. ولهذا تبدو صورة الرحم الكوني أكثر انسجاماً مع فكرة الانبثاق التي تقوم عليها هذه الرؤية من صورة الصانع المنفصل عن مصنوعه. وليس المقصود من ذلك إثبات أن روح الحياة أنثى، وإنما بيان أن الرمز الأنثوي أقرب إلى التعبير عن طبيعة العلاقة بين الأصل ومظاهر الوجود.

وبناءً على هذا الفهم العميق لـ«روح الحياة» بوصفها رحماً كونياً حاضناً تنبثق منه الموجودات، وليس صانعاً منفصلاً يمارس سلطته من الخارج، تتضح لنا الأسس التي

يقوم عليها مفهوم «وحدة الوجود»²¹. ولكن قبل أن نتعرض لمفهوم «وحدة الوجود» وتفصيل القول فيه، لا بد لنا من وقفة نستعرض فيها نبذة تاريخية عن جذور رمزية «الأم الحاضنة»، وكيف انقلب الوعي البشري عنها لاحقاً لصالح سلطة «الإله المحارب».

الجذور التاريخية: من «الأم الحاضنة» إلى سلطة «الإله المحارب»

إذا عدنا بالذاكرة إلى فجر الوعي البشري، نجد أن الإنسان في مراحله الأولى كان ينظر إلى الوجود بعينٍ تختلف تماماً عن نظرة إنسان العصور اللاحقة. ففي تلك البدايات، كانت "الأم" هي المركز الحقيقي للعشيرة؛ فهي التي تحمل وتلد، وهي الراعية والمغذية، وهي التي تخرج لقطف الثمار وجمع الحبوب لضمان بقاء عائلتها.

وأمام هذا العطاء المستمر، أسقط الإنسان الأول صورة "الأم الحاضنة" على الوجود بأسره. فرأى في الأنوثة المثال الأسمى للحياة، ومال إلى تقديس الطبيعة بوصفها "الأم الكبرى". كانت الأرض التي تنبت الزرع رحماً مقدساً، وكانت الأشجار والغابات وحيواناتها تجليات لهذا العطاء الأثني. بل إن الأنهار التي تفيض بالماء لتسقي الزرع وتُحيي الأرض، كان لها المدخلية الكبرى في طقوسهم وعباداتهم بوصفها شرايين الحياة في جسد الطبيعة الأم.

²¹ وحدة الوجود والأحادية (Pantheism / Monism): مبدأ فلسفي يرى أن الوجود بكل ظواهره يعود إلى جوهر واحد، حيث تتماهى الإلهية مع الكون أو الطبيعة باعتبارهما حقيقة واحدة لا انفصال فيها.

شواهد تقديس الأنوثة الكونية عبر التاريخ

لقد تركت هذه الرؤية الأنثوية للوجود بصماتها في كل قارات الأرض، قبل أن تطمسها الثقافات اللاحقة. ففي الشرق الأوسط القديم ومهد الحضارات، عُبِدَت "عشتار" في بابل، و"إنانا" في سومر، و"عشيرة" في كنعان، و"إيزيس" في مصر؛ ولم يكن مجرد آلهة، بل رموزاً للأرض والخصوبة والحياة التي تنبثق من داخلها.

وفي أوروبا القديمة، عثر المنقبون على تماثيل "فينوس" التي تبرز فيها ملامح الخصوبة والأمومة وتعود لعصور ما قبل التاريخ، وصولاً إلى الإغريق الذين قدسوا "غايا"²² (الأرض الأم) التي انبثقت منها كل شيء.

حتى في الجانب الآخر من العالم، في أمريكا اللاتينية، عظّمت شعوب الأنديز وحضارة الإنكا إلهتهم "باتشاماما"²³، وهي "الأم الأرض" التي ترعى الكائنات وتطعم أبنائها وتحتضنهم في حياتهم وبعد مماتهم.

²² غايا (Gaia) هي الكينونة الأولية للأرض، والنشأة، والوجود في معتقدات الميثولوجيا الإغريقية القديمة في أوروبا، وهي تمثل الأرض برمتها ككائن مقدّس وأصل كوني انبثقت منه الحياة والآلهة والكون.

²³ باتشاماما (Pachamama) هي الكينونة الإلهية الحية للأرض، والخصوبة، والزراعة في معتقدات شعوب الأنديز وحضارة الإنكا في أمريكا الجنوبية، وهي تمثل الطبيعة برمتها ككائن مقدّس وحيّ يعطي الحياة ويرعاها.

الانقلاب التاريخي: ظهور الإله بثوب الذكر المحارب

غير أن هذا التناغم الكوني لم يدم. فمع تكاثر البشر، وتوسع المجتمعات، وازدياد التنافس على الموارد، دخلت البشرية في أطوار من الصراع. بدأ البشر يعتدي بعضهم على بعض، ويزحف بعضهم على أراضي بعض. وفي ظل هذه الصراعات القبلية والحروب، برزت الحاجة الماسة إلى القوة البدنية العضلية.

هنا، أصبحت المدخلة الكبرى للرجال بحكم بنيتهم الجسدية القادرة على القتال والدفاع والغزو. ومن باب إذلال الخصوم وإظهار الهيمنة، أخذ المنتصرون في الحروب نساء المغلوبين، فتحولت السلطة تدريجياً من "مركزية الأنوثة الحاضنة" إلى "مركزية الذكورة المحاربة". أصبح الرجل القوي هو الزعيم، ثم الملك، ثم الإمبراطور.

وكما جرت العادة في تاريخ الفكر الإنساني، فإن السلطة الأرضية سرعان ما تُسقط صورتها على السماء. فبعد أن كانت الحقيقة الكبرى تُفهم بوصفها "رحماً كونياً" يفيض بالعطاء، أصبحت تُتصور على هيئة "ملك محارب" شديد البأس، يجلس على عرش منفصل، ويُصدر أوامره، ويعاقب وينتقم. تحول المطلق من طبيعة الأمّ الراعية والتي تحتضن الجميع، إلى "آمر خارجي" ذكوري محارب، يفضل قوماً على قوم، ويدير الكون بمنطق الجيوش، وأصبح رب الجنود الذي لا يقهر.

إن هذا الاستدلال التاريخي يكشف لنا بوضوح أن هيمنة «التذكير» على صورة الإله في الأديان اللاحقة لم تكن كشفاً عن حقيقة ميتافيزيقية، بل كانت انعكاساً سوسيولوجياً²⁴ لانتصار السلطة الذكورية البطيركية. ولهذا، حين تدعو رؤية «روح

²⁴ سوسيولوجياً: أي من منظور علم الاجتماع، أو بوصفه ظاهرة مرتبطة بالبنية الاجتماعية والثقافية للمجتمعات البشرية.

الحياة» إلى استعادة الرمز الأنثوي، فهي لا تفعل ذلك تحيزاً لجنس على آخر، بل سعياً إلى إعادة ربط الإنسان بحقيقة «الانبثاق» الأولى، وتصحيحاً لمسار تاريخي شوّهت فيه صراعات البشر صورة الأصل الكوني.

الإله ووحدة الوجود

وعوداً على ما ذكرناه سابقاً من رؤية «روح الحياة» وقيامها على مبدأ الانبثاق، تدعونا هذه الفكرة بضرورة القول بـ«وحدة الوجود»؛ فوحدة الوجود في هذه الرؤية تمثل ضرورة حتمية ونتيجة عقلية لا مناص منها.

لكن لا بد من التنبيه إلى وجود بونٍ شاسع وفرقٍ جوهري بين "وحدة الوجود" في رؤية «روح الحياة»، وبين التصورات الصوفية والعرفانية الشائعة وما يتغنون به. فالصوفية تبني في عمقها مفهوم الإله الإبراهيمي بوصفه كياناً متعالياً ومنفصلاً عن العالم، يُدع الأشياء بإرادة مباشرة، ويُدير شؤون الكون عبر تراتبية من الملائكة والرسل والوسطاء.

التناقض الصوفي ووحدة الوجود الحقيقية

ومن هنا تتضح النقطة الفاصلة بين الرؤيتين؛ فالصوفية والعرفاء يتغنون بـ«وحدة الوجود» من حيث الظاهر، ويجعلون منها مجرد حالة وجدانية أو تغريداً عاطفياً، لكنهم ينقضونها تماماً من حيث الإيمان العقائدي لاحتفاظهم بتلك البنية الدينية التقليدية.

ففي حين تؤمن رؤية «روح الحياة» بوحدة الوجود على حقيقتها المجردة والكاملة كضرورة للانبثاق، يحتفظ الصوفية بالأنبياء والملائكة والمراتب الوجودية الخاصة. وهنا يبرز التناقض الفلسفي القاتل: إذا كان النور الإلهي حاضراً في كل شيء، ولا ينحصر في جهة، ولا يحده مكان، فما معنى القول إن الملاك جبريل "يأتي ويذهب"؟ من أين يأتي وإلى أين يذهب؟ وكيف تستقيم فكرة "الوساطة" في وجود يفترض أن الحقيقة الكبرى تتجلى في كل ذرة من ذراته؟

إن الإبقاء على الوسطاء داخل منظومة تدّعي وحدة الوجود يخلق شرحاً فلسفياً لا يُرَقَّع. فكلما اتسعت دائرة الحضور الإلهي الشامل، انتفت الحاجة منطقياً إلى وسائط بين الإنسان وأصل وجوده. ورغم تغني الصوفية بوحدة الوجود، إلا أنهم يعودون عملياً إلى التصنيفات الدينية التي تُفاضل بين الكائنات، فتمنح بعضها رفعة جوهرية وتسلبها من أخرى. فيرفعون منزلة الأنبياء فوق سائر البشر، ويصوغون مفهوم «الإنسان الكامل»، ويضيفون قداسة انتقائية على كائنات بعينها، بينما يذمّون كائنات أخرى ويصمونها بالنقص أو الدونية.

والسؤال الذي يطرح نفسه بقوة: كيف يكون الوجود واحداً في أصله وحقيقته، ثم يدّعي أن بعض الموجودات تملك أفضلية جوهرية في طينتها على غيرها؟

في رؤية «روح الحياة»، تسقط هذه التراتيبات تماماً. لا توجد أصول متعددة، ولا حقائق متميزة في نشأتها الأولى. الكائنات بأسرها انبثقت من نقطة واحدة وأصل واحد. وبناءً على هذا، لا توجد "أقدمية وجودية" لنبي على غيره، ولا "أفضلية جوهرية"

لإنسان على حيوان، ولا وجود لكائن يحمل في أصل تكوينه قداسة ذاتية ترفعه فوق بقية الوجود.

نحن جميعاً أبناء «روح الحياة». خرجنا من المنبع ذاته، ونشارك الأصل عينه، ثم سلك كلُّ منا مساره الخاص في رحلة التطور والتحول. قد تتفاوت القدرات والخبرات والوظائف، نعم، لكن هذا الاختلاف لا يؤسس لطبقات وجودية متفاضلة في أصل النشأة.

إن رؤية «روح الحياة» تتبنى وحدة وجود كونية حقيقية وصارمة؛ تقوم على وحدة الأصل والانبثاق المشترك، وتنسف في طريقها الأساطير الدينية المتعلقة بالرسول والوسطاء. كما ترفض فكرة الكمال المطلق للطبيعة، وتأبى تقسيم الوجود إلى طبقات مقدسة وأخرى دنيا.

إن وحدة الوجود الحقيقية متى ما أخذت إلى نتائجها المنطقية، لا تقبل الوساطة، ولا الامتيازات الجوهرية، ولا التقديس الانتقائي. فالذرة التي تدور في جسد نبي، والذرة التي تدور في جسد حيوان، تعودان في مآلهما إلى الأصل نفسه، وتنبثقان من الحقيقة الكونية ذاتها. وفي محراب «روح الحياة»، لا توجد كائنات أرقى من غيرها في أصل الوجود، بل هي أشكال مختلفة لتجلي الحياة الواحدة في صورٍ لا حصر لها.

روح الحياة وعاطفة التدخل المباشر

يميل الإنسان بطبيعته إلى إسقاط مشاعره وتجربته الخاصة على الوجود من حوله. وكما تخيلت الشعوب القديمة الآلهة على صورة البشر في الغضب والرضا والحب والانتقام، فقد ارتبطت صورة الإله في الأديان الإبراهيمية بعاطفة "التدخل المباشر"؛ فالإله، بحسب هذا التصور، لا يكتفي بإبداع العالم، بل يتابع تفاصيله لحظة بلحظة، ويتدخل باستمرار لإنقاذ هذا، ومعاينة ذاك، وتغيير مجرى الأحداث استجابة لدعاء أو رغبة.

غير أن الواقع الذي نشاهده في الطبيعة يطرح تساؤلات عميقة حول هذا التصور. فالوجود لا يبدو مسرحاً لتدخلات استثنائية متواصلة، بل يكشف عن عالم تحكمه مسارات طويلة من التفاعل والتطور والتشكل. ويكفي أن يتأمل الإنسان عالم الحياة ليرى أن الألم ليس حادثة استثنائية، بل ظاهرة عامة؛ فالحيوان يُفترس، والأمراض تصيب مختلف الكائنات، والكوارث الطبيعية تضرب دون تمييز بين صالح وطالح، أو بين مؤمن وغير مؤمن، وذلك ضمن شبكة واسعة من العلاقات الطبيعية التي لا تخضع لمنطق التدخل الشخصي المباشر في كل واقعة.

وفي ضوء هذه الرؤية، لا يكون النجاح دليلاً على رضا خاص، ولا المرض دليلاً على غضب إلهي، كما لا تصبح الكوارث رسائل موجهة أو عقوبات مقصودة لشعب دون آخر. فهذه التأويلات تنطلق غالباً من مركزية الإنسان ورغبته في تفسير الأحداث وفق مخاوفه ومصالحه.

ولهذا، تفترق رؤية «روح الحياة» عن التصورات التي تجعل الأصل الكوني أقرب إلى شخصية بشرية كبرى تدير الكون برودود الأفعال ومنطق الثواب والعقاب اللخطي. فالأصل الأول ليس أباً غاضباً، ولا قاضياً متربصاً، ولا ذاتاً انفعالية؛ بل هو المنبع الذي انبثقت منه الموجودات جميعها، والحقيقة الكبرى التي تواصل الحياة من خلالها رحلتها في التكوين والتجدد، دون حاجة إلى خرق قوانين الطبيعة لردّ كل مجهول إلى فعل غيبي مباشر.

التواصل مع روح الحياة: حكمة التناغم لا وحي النبوة

إذا كانت رؤية «روح الحياة» تنفي وجود وسطاء وأنبياء يتلقون أوامر من خارج الوجود، فكيف يتواصل الإنسان إذن مع هذا الأصل الكوني؟ إن التواصل في محراب «روح الحياة» ليس حِكراً على أفراد مصطفين، بل هو حقٌّ متاح وطريقٌ مفتوح لكل إنسان بحد ذاته. نحن في هذه الرؤية لا نؤمن بوجود "أنبياء" يحتكرون الحقيقة المطلقة، بل نؤمن بوجود "حكاء" ينظرون في الطبيعة، ويدققون في قوانينها، ويتأملون في مساراتها فيفهمون.

غير أن هذا التواصل لا يتحقق بمجرد الانعزال، فالتأمل وحده — إن كان فارغاً من المعرفة — لن يجعل من الإنسان حكيماً. إن الطريق الحقيقي للتواصل الكوني يبدأ من بناء الذات المعرفية عبر القراءة، والاطلاع، والاستقراء، والتدبر. لا بد للإنسان أن يكتسب فهماً واسعاً، وأن يخوض غمار التجربة لتضج خبرته وتتسع مداركه.

وبعد هذه الرحلة من الوعي وتراكم المعارف، يأتي دور التأمل. حينئذٍ، لا يكون التأمل مجرد سكون فارغ، بل تنويعاً لخبرة الحياة؛ حيث يتناغم العقل الناضج مع قوانين الوجود، وتتصل الروح الواعية بـ«روح الحياة». هذا التناغم الكوني هو التواصل الحقيقي، حيث يندمج الإنسان مع الوجود من حوله، لا عبر طقوس تلقينية، بل عبر وعي عميق يجعله نبضاً حياً في جسد الحقيقة الكبرى.

خلاصة الفصل الثالث

خلاصة القول: إن فهم الصلة بين الموجودات ومصدرها يتطلب تحريراً للعقل من التصورات السلطوية والمراتب الدينية الموروثة. وفي ضوء رؤية «روح الحياة» يمكن إجمال حقيقة الانبثاق ووحدة الوجود في أربع ركائز:

أولاً: الرمز الأنثوي أليق من الذكر. فإطلاق صفة الذكر على الأصل الأول ليس حقيقة وجودية، بل إسقاط تاريخي يفترض صانعاً منفصلاً. أما رمز الأنوثة فيعبر عن الرحم الكوني الذي تنبثق منه الأشياء وتنمو داخله، بلا انفصال بين الأصل وتجلياته.

ثانياً: وحدة الوجود الحقيقية تنفي الوساطة. إن الحضور الكوني الشامل لروح الحياة في كل ذرة ينفي الحاجة منطقياً إلى وسطاء أو ملائكة. فكلما اتسعت دائرة الحضور الإلهي، انتفت ضرورة الوسيط بين الإنسان وأصل وجوده.

ثالثاً: لا تفاضل جوهري في الأصل. جميع الكائنات انبثقت من منبع واحد متساوٍ. فلا
أفضلية ذاتية لإنسان على حيوان، ولا أقدمية لنبي على غيره، بل تعود الذرة في جسد
أي كائن إلى الأصل الكوني ذاته.

رابعاً: روح الحياة ليست ذاتاً انفعالية. هي لا تدير الكون بمنطق الرضا والغضب
والتدخلات الاستثنائية، بل هي أصل كوني تتجلى من خلاله الموجودات عبر مسارات
طويلة من التطور. ولهذا لا تفهم أحداث الوجود كنتائج لتدخلات عاطفية مباشرة، بل
كأجزاء من حركة كونية تحكمها قوانين الانبثاق المستمرة.

ختاماً، نحن لسنا مصنوعات لإله منفصل يدير الكون بالوسطاء، بل تجليات حية وُلدت
في رحم كوني واحد، نتساوى في أصلنا، ونحيا باتصال مباشر في محراب «روح الحياة».

الفصل الرابع

الوعي والضغط وسر التلاحق

الوعي وإدراك الوجود

يُعدّ سؤال «الوعي» من أعمق التساؤلات التي أرقت الفكر الفلسفي والعلمي على حد سواء: ما هو الوعي؟ وكيف ظهر؟ وهل هو حكراً على الإنسان، أم أن مداه أرحب من ذلك بكثير؟

تتعدد المقاربات العلمية في تعريف الوعي، بيد أنها تتمحور في مجملها حول قدرة الكائن على الإحساس بذاته ومحيطه، وتلقي المؤثرات والاستجابة لها. وفي حين تختزل بعض المدارس العلمية هذا الوعي في حدود الجهاز العصبي والدماغ، تنظر إليه مدارس أخرى كظاهرة بالغة التعقيد لم يدرك العقل البشري من أسرارها إلا النزر اليسير.

غير أنني، ومن منطلق رؤية «روح الحياة»، أرى أن هذه التعريفات - على أهميتها - تبقى قاصرة عن سبر غور هذا الجوهر وإدراك حقيقته الشاملة.

فالوعي، وفق هذه الرؤية، ليس حادثاً طارئاً تجلّى فجأة في الإنسان بعد أن كان الوجود خالياً منه، ولا هو ومضة انبعثت من العدم لتستوطن العقل البشري. بل إن الوعي،

باختلاف مراتبه ودرجاته، هو نسيج أصيل في طبيعة الوجود ذاته، وجزء لا يتجزأ من الحقيقة الكبرى التي أسميها «روح الحياة».

وبناءً على ذلك، أرى أن حالة «العماء» الأولى، أو الأصل الأول، كانت تكتنز في طبيعتها نوعاً من الوعي الكامن. ولا أعني بذلك وعياً بشرياً يمارس التفكير والتخيل والتخطيط، بل وعياً أولياً يختلف في طبيعته عن كل تصوراتنا المألوفة عن الإدراك الإنساني.

فلو كان الأصل الأول خالياً من أي إدراك أو قابلية للتفاعل، فكيف تسنى له أن يتحول من حال إلى حال؟ وكيف تجلت القوانين والطاقات التي تخض عنها هذا الكون المهيب؟ إن مجرد التأمل في ذلك يقودنا إلى القول بوجود نمط من الإدراك، حتى وإن كان إدراكاً يعصى على مقاييس وعينا البشري الذي تبلور عبر ملايين السنين.

لذا فإن «روح الحياة» - في نظري - ليست قوة عمياء صماء، كما أنها ليست عقلاً بشرياً مشخصاً يفكر على طريقتنا. إنها حقيقة واعية، لكن التباين بين وعيها ووعينا كالتباين بين المحيط الهادر وقطرة الماء، أو كوعي الجسد البشري مقارنة بوعي الخلية الواحدة داخله؛ فالخلية تملك وعياً يخصها، لكنه يختلف عن وعي الجسد الكلي بذاته وإدراكه لما يجري في أجزائه المختلفة. فالجسد يشعر بالمرض إذا أصابه خلل، ويتفاعل مع ما يحدث في أعضائه وخلاياه بوصفه كياناً واحداً، بينما تبقى الخلية مدركة لما يخص عالمها المحدود ووظيفتها الخاصة.

وفي حدود وعيها الجزئي المحدود، تتمثل مهمة الخلية في أن تتفاعل مع الجسد الذي تنتمي إليه، وأن تجري مع مساره العام في انسجام، وأن تؤدي وظيفتها ضمن نظامه الأوسع،

محافضةً ما استطاعت على سلامته واستمراره. أما الجسد فلا ينظر إلى الخلية بوصفها غاية قائمة بذاتها، ولا ينشغل ببقائها لذاتها، بل يتجه وعيه إلى حفظ وجوده الكلي وتوازنه العام؛ فهو لا يفكر بالخلية بما هي خلية، بل بسلامة البدن واستمرار حياته كوحدة متكاملة. ومن هنا يختلف وعي الجزء عن وعي الكل؛ فالخلية ترى من موضعها المحدود، بينما ينظر الجسد من أفق أشمل وأوسع. وكذلك وعينا الإنساني ليس إلا وعياً جزئياً محدوداً إذا ما قورن بالوعي الأشمل الذي تنتمي إليه الموجودات جميعاً.

الوعي درجات لا صورة واحدة

إن من الأخطاء الشائعة أن يتصور الإنسان أن الوعي إما أن يكون موجوداً كاملاً كما هو عند البشر، أو غير موجود إطلاقاً.

لكن الواقع يشير إلى أن الوعي يظهر في درجات ومستويات متعددة:

فالحيوان يدرك ويشعر ويتذكر ويتعلم ويخاف ويبحث عن الطعام ويتجنب الأخطار.

والطير يهاجر آلاف الكيلومترات ثم يعود إلى موطنه.

والنحل يبني أنظمة معقدة داخل خلاياه.

والنمل ينظم مجتمعاته ويؤدي وظائف مختلفة داخل مستعمراته.

وهذه كلها مظاهر تشير إلى درجات من الإدراك والوعي، وإن كانت تختلف عن الوعي الإنساني.

بل إن الدراسات الحديثة كشفت أن النباتات نفسها ليست مجرد كُتل جامدة من المادة الحية، وإنما تستجيب للمؤثرات المحيطة بها بطرق مدهشة؛ فهي تتفاعل مع الضوء، وتستجيب للجاذبية، وتتبادل الإشارات الكيميائية، وتستشعر الأخطار، بل وتطلق مواد تحذيرية أحياناً عندما تتعرض للهجوم.

ولا يعني هذا أن الشجرة تفكر كما يفكر الإنسان، أو أنها تكتب الشعر والفلسفة، وإنما يعني أن لها شكلاً من أشكال الإدراك يناسب طبيعتها:

فوعي الشجرة هو وعي الشجرة.

ووعي الحيوان هو وعي الحيوان.

ووعي الإنسان هو وعي الإنسان.

لكل موجود نصيبه من الإدراك بحسب طبيعته وتكوينه ودرجة ظهوره.

من أين جاء الوعي؟

إذا رأينا دودة تعيش داخل تفاحة، فإننا ندرك أنها تبحث عن غذائها، وتحمي نفسها، وتستجيب لما يهددها، وتتحرك نحو ما ينفعها وتبتعد عما يضرها. إننا نصف ذلك عادة بأنه نوع من الوعي.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: من أين جاء هذا الوعي؟ هل ظهر من لا شيء؟ وهل انبثق فجأة من مادة كانت خالية تماماً من أي قابلية للإدراك؟

في رؤية روح الحياة يكون الجواب مختلفاً: فما يظهر في الدودة لم يأت من العدم، بل هو تعبير عن قدرة كامنة في أصل الوجود نفسه. وهذه القدرة ظهرت بدرجة معينة في الدودة، وبدرجة أخرى في الحيوان، وبدرجة أوسع في الإنسان.

وكما أن الشجرة تحمل في بذرتها إمكانات النمو قبل أن تصبح شجرة كاملة، فإن روح الحياة كانت تحمل إمكانات الوعي قبل أن تظهر هذه الإمكانات في صورها المختلفة. فالوعي ليس شيئاً أضيف إلى الوجود من خارجه، بل هو أحد وجوهه الأساسية.

إنني أرى أن الوعي لا يمكن أن يكون قد خرج من العدم المحض، كما لا يمكن أن يكون قد ظهر من فراغ مطلق لا يحمل في داخله أي إمكانية للإدراك. فلو لم تكن في أصل الوجود بذرة للوعي، أو قابلية كامنة له، لما أمكن أن يظهر لاحقاً في أي صورة من الصور.

ومهما اختلفت الأسماء التي نطلقها على الأصل الأول؛ سواء سميناه المادة الأولى، أو الطاقة الأولى، أو الخلية الأولى التي انبثقت منها سائر الخلايا، أو الصادر الأول، أو أي اسم آخر قد يكتشفه العلم مستقبلاً، فإن الحقيقة تبقى واحدة: لا يمكن للشيء أن يعطي ما لا يملك على نحو من الأنحاء.

فإذا كان الوعي غائباً غياباً مطلقاً عن أصل الوجود، فكيف ظهر بعد ذلك في الإنسان والحيوان والنبات؟ وكيف انبثقت القدرة على الإدراك والشعور والتفاعل من أصل لا يحمل أي إمكانية لهذه الصفات؟

إن القول بأن الوعي خرج من عدم محض يواجه الإشكال نفسه الذي يواجهه القول بخروج الوجود كله من عدم محض. فالعدم الكامل لا يحمل قدرة، ولا يحمل إمكانية، ولا يحمل استعداداً لشيء. ومن هنا فإنني أرى أن الوعي كان موجوداً على نحو كامن قبل ظهوره في الصور التي نعرفها اليوم.

وليس المقصود أنه كان موجوداً على هيئة عقل بشري ضخم، أو على صورة تفكير يشبه تفكير الإنسان، وإنما كان كامناً في أصل الوجود كما تكمن الشجرة في البذرة، وكما تكمن الإمكانيات العظيمة في النواة الصغيرة قبل أن تتكشف عبر مراحل النمو والتطور.

ولهذا أقول إن روح الحياة كانت تحمل في باطنها جميع الإمكانيات التي ظهرت لاحقاً في الكون. كانت تحمل إمكانيات المادة والطاقة والحركة، كما كانت تحمل إمكانيات الحياة والوعي والإدراك. وما نراه اليوم في الإنسان والحيوان والنبات ليس خلقاً لهذه الإمكانيات من جديد، بل هو انكشاف تدريجي لما كان كامناً في الأصل الأول.

فالمصدر الأول، الذي كان في حالة العماء، لم يكن فقيراً أو خالياً أو عدماً محضاً، بل كان يحمل في كونه جميع البذور التي ستتمو لاحقاً في شجرة الوجود العظيمة. ومن تلك البذور كانت بذرة الوعي، التي أخذت تتكشف عبر مسيرة طويلة من الانبثاق والتطور والتشكل، حتى ظهرت في صور متعددة ومتفاوتة الدرجات، من أبسط أشكال الإحساس والاستجابة، إلى الوعي الإنساني القادر على التأمل في ذاته وفي أصل الوجود نفسه.

وبهذا المعنى فإن الوعي ليس وافداً غريباً على الكون، بل هو أحد كنوزه القديمة، وأحد الأسرار التي كانت كامنة في روح الحياة منذ البداية، ثم أخذت تكشف عن نفسها تدريجياً مع اتساع الوجود وتنوع صوره وتعدد مراتبه.

الضغط البيئي مُحَفِّز لا خالق: نقد التفسير المادي الخالص

ولقد سبق أن أشرنا في الفصول السابقة إلى أن الضغط البيئي ليس إلا مُحَفِّزاً يوقظ الكوامن ولا يخلقها من العدم. غير أننا، ونحن نقف الآن أمام اللغز الأعظم وهو «سر الوعي»، نجد لزماً علينا أن نعود إلى هذه الحقيقة لنقلبها من وجهٍ آخر. إننا لا نعيد طرحها هنا على سبيل التكرار، بل لأن سياق البحث في نشأة "الإدراك" يستوجب تفكيكها بصورة أكثر تفصيلاً وعمقاً.

يقع أنصار التفسير المادي الخالص للتطور في مغالطة فلسفية ومنطقية عميقة حين يفترضون أن الحاجة والضغط البيئي هي التي تخلق الصفات الجديدة وتنتج التعقيد

الحيوي من العدم. فهناك فرق جوهري بين الشيء الذي يدفع عملية ما إلى الظهور، وبين الشيء الذي يحتوي في ذاته على الإمكانية الحقيقية لذلك الظهور.

ولتوضيح هذا الفرق، يمكن طرح مثال استنكاري بسيط: لو أخذنا جماعة من البشر وأجبرناهم على العيش آلاف السنين في بيئة قاسية مليئة بالمنحدرات السحيقة، بحيث كان السقوط من المرتفعات أحد أكبر الأخطار التي تهدد بقاءهم، فهل سيؤدي هذا الضغط الهائل والمتواصل إلى أن تنبت لهم أجنحة بيولوجية تمكنهم من الطيران؟
الجواب المنطقي هو: لا.

فالخطر وحده لا يصنع جناحاً، والحاجة وحدها لا تخلق عضواً جديداً، والضغط وحده لا يُخرج من العدم بنية معقدة غير موجودة في أصل التكوين. ما سيحدث على الأرجح هو أن الإنسان سيستخدم قدراته الكامنة ليجد حلولاً للمشكلة؛ فيصنع الحبال أو الجسور أو المظلات أو الطائرات. فالضغط قد يدفعه إلى الإبداع، لكنه لا يخلق الإبداع من لا شيء..

وهنا تتجلى قاعدتنا الفلسفية المهمة: الضغوط البيئية ليست خالقة، بل محفزة. إنها تدفع الموجود إلى استخدام ما يملكه من إمكانيات، لكنها لا تمنحه إمكانيات لم تكن موجودة فيه أصلاً.

إننا لا نرى في حياتنا اليومية أي مثال على أن الحاجة وحدها تنتج شيئاً من العدم. فالجوع لا يخلق الطعام، والعطش لا يخلق الماء، والرغبة في الرؤية لا تخلق عيناً جديدة

في رأس الإنسان. كل ما تفعله الحاجة هو أنها تدفع الكائن إلى البحث عن الموارد أو القدرات الموجودة سلفاً واستثمارها بصورة جديدة.

ومن هنا يبرز السؤال الجوهري: إذا كانت الضغوط البيئية هي سبب ظهور الصفات الحيوية المعقدة، فمن أين جاءت الإمكانية الأصلية لهذه الصفات؟ وكيف امتلكت المادة الصماء القدرة على إنتاج منظومات دقيقة ومعقدة لمجرد تعرضها للضغط؟ إن الضغط لا يفسر أصل الإمكانية، بل يفترض وجودها مسبقاً.

فلو كانت البذرة لا تحتوي في داخلها على برنامج الشجرة وإمكاناتها الكامنة، لما استطاعت الشمس أو الماء أو التربة أن تخلق شجرة منها. إن هذه العوامل كلها تؤدي دور المحفز والمساعد، لكنها لا تُنشئ الجوهر الأساسي للشجرة. وكذلك الأمر في عالم الحياة؛ فالبيئة قد تحفز ظهور صفة ما، لكنها لا تفسر وجود الاستعداد العميق الذي يجعل ظهور تلك الصفة ممكناً أصلاً.

وعلى هذا الأساس، فإن الذكاء البشري الهائل والوعي لا يمكن تفسيرهما بمجرد الضغوط البيئية وحدها. فالضغوط قد تفسر سبب الحاجة إلى استخدام العقل، لكنها لا تفسر أصل وجود هذا العقل وقدرته الاستثنائية. إن الفارق بين الإنسان وبين الكائنات الأخرى ليس مجرد استجابة ميكانيكية لظروف البيئة، بل يعكس وجود قابلية كامنة وقدرات عميقة كانت تنتظر الظروف المناسبة لكي تتجلى.

وفق رؤية «روح الحياة»، فإن الجرثومة الأولى للحياة لم تكن كتلة عشوائية خاوية من الإمكانات، بل كانت تحمل في أعماقها بذوراً واستعدادات هائلة للتطور والتنوع

والتعقيد. جاءت الضغوط البيئية بعد ذلك لتوقظ بعض هذه الإمكانيات وتدفعها إلى الظهور، لكنها لم تكن هي التي أوجدتها من العدم.

فالفرق كبير بين من يرى أن البيئة خلقت العقل، وبين من يرى أن البيئة حفزت ظهور عقل كانت إمكانياته كامنة منذ البداية. الأول يجعل الضغط خالقاً، والثاني يجعله محفزاً. الأول ينسب إلى المصادفة ما يشبه القدرة الإبداعية المطلقة، أما الثاني فيرى أن الوجود كان يحمل منذ نشأته الأولى قابلية داخلية للتطور والتشكل والانكشاف التدريجي.

ومن هنا يمكن القول إن الحاجة قد تفسر توقيت ظهور الصفة، لكنها لا تفسر أصل وجودها. والضغط قد يفسر سبب تفعيل الإمكانية، لكنه لا يفسر من أين جاءت تلك الإمكانية نفسها.

التلاحق البشري وسر انفتاح الذهن

وكما أعدنا قراءة الضغط البيئي من زاوية الوعي، فإن الضرورة المعرفية تقتضي أيضاً العودة إلى مسألة "التلاحق البشري" التي ناقشناها سابقاً، لبيان أثرها المباشر في تشكيل العقل.

إن من أعظم أسرار الارتقاء الإنساني التي تُقرها رؤية «روح الحياة»، أن انفتاح الذهن البشري واتساع مداركه لم يكن مجرد استجابة لضغوط البيئة وتحدياتها؛ فهذه الضغوط لم تكن سوى عامل تحفيز واستثارة للقدرات الكامنة، أما التطور الجوهري في بنية العقل

واتساع إمكاناته فقد كان نتاجاً مباشراً لعملية التلاحق البشري الكبرى بين السلالات التي انبثقت من حواضن جغرافية متعددة.

لقد كان هذا التلاحق بمثابة الشرارة التي فتقت الذهن البشري، ودفعت بوعيه نحو آفاق التجريد²⁵ والتأمل. فعندما تلاقت السلالات وامتزجت الأجناس عبر العصور، لم تكن الثمرة مجرد تنوع بيولوجي في الهياكل (كما أسلفنا)، بل حدث ما هو أعمق من ذلك بكثير: لقد تلاقت «بذور الوعي» المودعة في تلك الحواضن، لتنتج ارتقاءً جوهرياً في بنية العقل.

فالنسل الذي أثمر عن هذا التمازج الطويل، جاء حاملاً لخلاصة الإمكانيات الذهنية الكامنة؛ مما ولّد أجيالاً أكثر ذكاءً وفطنة، وأوسع خيلاً وإدراكاً.

وكان «روح الحياة» قد جعلت من التلاحق والاندماج بين أبنائها سبيلاً لجمع أفضل الخصائص الإدراكية المودعة في طينة البشر، لتُخرج منها عقلاً قادراً على سبر أغوار الكون، وتدفع بالمسيرة الإنسانية نحو ذروة نضجها العقلي والوعوي.

²⁵ التجريد (Abstraction): عملية ذهنية عليا وفائقة، يقوم فيها العقل البشري باستخلاص المفاهيم الكلية المجردة (مثل العدل، الزمن، واللانهاية) من ظواهر الوجود المادية، وفهمها والتعامل معها بمعزل عن صورتها المحسوسة؛ وهي الميزة المعرفية التي يفترق فيها الإنسان عن باقي الكائنات الحية.

وقفةٌ أخرى مع الفكر المادي: العقل بين داروين وألفريد

يرى أصحاب الفكر المادي أن الذكاء خضع لقانون "الانتخاب الطبيعي" وهو وليد الضغوطات والحاجة الملحة شأنه شأن المخالب أو الأنياب. فالكائنات (أسلاف البشر) التي كانت تمتلك قدرة أكبر على التذكر، والتخطيط، وابتكار أدوات بسيطة، كانت فرصتها في البقاء والنجاة من المفترسات أو المجاعات أكبر. الطبيعة "انتخب" الأذكاء وأهلك الأغباء، ومع مرور الزمن، تراكت هذه الصفات العقلية المفيدة.

ويبقى السؤال الجوهرى: إذا كانت البيئة والضغوطات العشوائية هي الخالق للوعي، فلماذا تفرد الإنسان وحده بهذا العقل، رغم أن الحيوانات شاركت ذات البيئة وسارت معه نفس رحلة الشقاء؟ وهو تساؤل يقف أمامه التفسير المادي الأعمى عاجزاً عن تقديم إجابة مقنعة له.

حتى ألفريد راسل والاس²⁶ (العالم الذي اكتشف نظرية التطور بالتزامن مع داروين) اصطدم بهذه الصخرة المنطقية، وانفصل عن داروين في هذه النقطة تحديداً. لقد أدرك والاس أن العقل البشري، بما يحمله من قدرات فائقة ووعي معقد (كالإبداع في الرياضيات، والفنون، والموسيقى، والأخلاق)، أرقى بكثير من أن يكون مجرد أداة بقاء أنتجتها الطبيعة العمياء لحماية كائن ضعيف؛ فهذه القدرات التجريدية الهائلة لم تكن ضرورة لمجرد بقاء الإنسان البدائي حياً في الغابة أو حمايته من المفترسات.

²⁶ ألفريد راسل والاس (Alfred Russel Wallace): عالم طبيعة بريطاني صاغ نظرية التطور بشكل مستقل وبالتزامن مع داروين، لكنه انشق عنه لاحقاً لإيمانه الراسخ بأن العقل البشري والقدرات التجريدية الفائقة لا يمكن أن تنتج عن آليات بيئية عمياء، بل تتطلب توجيهاً من قوى عليا.

وقد قاد هذا الاستنتاج المنطقي والاس إلى الإقرار بوجود "ذكاء أسمى" وقوة عاقلة موجّهة تدخلت في مسار التطور البشري لتنفخ فيه هذه الطاقات الفائقة؛ وهو استنتاج يتقاطع في جوهره مع ما طرحه في رؤيتنا حول غاية الانبثاق وإرادة «روح الحياة».

ولم يكن هذا الانشقاق الفكري أمراً هيناً على داروين، بل أصابه بصدمة وحزن شديدين، حتى أنه كتب لوالاس رسالته الشهيرة عام 1869 يعاتبه فيها بحسرة قائلاً: "أتمنى ألا تكون قد قتلت تماماً طفلك وطفلي"، قاصداً بذلك نظرية الانتخاب الطبيعي التي أراد لها داروين أن تبقى عمياء ومجردة من أي غاية.

فإذا سلّمنا جدلاً بالتفسير الدارويني الذي يدّعي أن العقل البشري والوعي المعقد هما مجرد نتاج لسلسلة من "الطفرات العشوائية" والضغوط البيئية التي عملت على سلف مشترك واحد؛ فإننا نصطدم بصخرة منطقية لا يمكن تجاوزها: لماذا تفرد الإنسان وحده بهذا الوعي الكوني، رغم أن كائنات الأرض قاطبة شاركت نفس البيئة، ونفس الضغوط، ونفس رحلة الشقاء والصراع من أجل البقاء؟

وأمام هذا المأزق المنطقي، تبرز مفارقة معرفية لافتة؛ وهي أن ما توصل إليه العلم الحديث يقف في صف رؤيتنا ويدعمها، أكثر مما يقف في صف تصور داروين الكلاسيكي نفسه.

ففي تصور داروين الأصلي (عام 1859)، لم يكن الرجل يدرك الآلية الداخلية لتغير الكائنات، بل اكتفى برصد "التباينات الطبيعية" (Natural Variations) الظاهرة للعيان. ولجهله بما يجري في باطن الخلايا، افترض أن البيئة الخارجية هي "الصانع الأوحد" الذي ينحت الكائن ويفرض عليه التطور من الخارج.

أما العلم الحديث — فيما يُعرف بـ "التركيب التطوري الحديث" — فقد صحح هذا المسار؛ إذ أثبت علمياً أن هذه التغيرات لا تُفرض من الخارج، بل هي "طفرات جينية" (Mutations) تنبع من أعمق نقطة داخل شفرة الحمض النووي (DNA) للكائن الحي نفسه.

وهذا التحول الجذري في التعريف العلمي يخدم فكرة «روح الحياة» تماماً. فهو يثبت أن التطور ليس مجرد استجابة لمؤثر خارجي محض تصنعه البيئة لتخلق الوعي من العدم، بل هو محكوم بالأصل الجيني والداخلي للكائن. وهذا يتطابق مع رؤيتنا القائلة بأن الإمكانيات والقدرات — بما فيها الوعي — كانت مشفرة وموجودة سلفاً كـ "بذرة كامنة" في صلب طينة الكائن وهويته البيولوجية²⁷ والروحية، وما البيئة إلا محفز لاستدعائها.

فلو كانت البيئة القاسية هي التي "تخلق" الوعي وتفرض العقل من خلال خبط عشواء، لكان من الحتمي أن نشاهد بروز "أنواع" حيوانية أخرى تنافس الإنسان في وعيه التجريدي. كان من المفترض - وفق قوانين الاحتمالات العشوائية - أن تُنتج الطبيعة، عبر ملايين السنين، طفرات تجعلنا نرى نوعاً من القردة بعقل إنسان، أو فصيلة من الذئاب تمتلك وعياً فلسفياً، أو كائنات أخرى بلغت مرتبة النطق والتفكير المجرد. لكن الواقع الصارم يخبرنا أن هذا لم يحدث قط.

²⁷ المقصود بـ "الهوية البيولوجية" في هذا السياق هو الشفرة الجينية الأصلية والبنية الحيوية المادية المخبوءة في التكوين الأول للكائن الحي، والتي تحدد صفاته وإمكاناته الجسدية قبل أن يتفاعل مع البيئة الخارجية.

إن هذا التفرد البشري المطلق ينسف فكرة "الصدفة العمياء" من جذورها. فمن المحال رياضياً ومنطقياً أن تعمل العشوائية في بيئة مشتركة لملايين السنين، ثم تُصيب "الجائزة الكبرى" للوعي في مسارٍ بيولوجي واحد فقط، وتُخطئ في ملايين المسارات الأخرى.

هنا تتجلى حكمة «روح الحياة» وقوة تفسيرها؛ فالوعي الإنساني الفائق لم يُخلق صدفة نتيجة ضغط خارجي، بل كان "بذرة كامنة" وخاصية جوهرية أُودعت في "الطينة البشرية" الأولى حصراً دون غيرها. لقد كانت الغاية التكوينية في هذه السلسلة تتجه نحو إظهار هذا العقل وانفتاح هذا الوعي. أما الضغوط البيئية، وصراع البقاء، وما تلاه من "تلاحق بشري" واسع، فلم تكن سوى "مفاتيح ومحفزات" استدعت تلك البذرة المخبوءة، ووفرت لها شروط النمو والانفتاح.

الإنسان لم يصبح واعياً لأن الطبيعة قست عليه عشوائياً، بل أصبح واعياً لأن «روح الحياة» أودعت فيه استعداداً للوعي، وما كان للبيئة إلا أن توقظ هذا الاستعداد العظيم ليلبلغ غايته.

الإنسان مرآة الوجود

ومن بين جميع الكائنات التي نعرفها اليوم، يبدو الإنسان أكثرها قدرة على التأمل والتجريد والتفكير في أصل الأشياء. إنه الكائن الذي لم يكتفِ بالعيش داخل العالم، بل بدأ يسأل عن العالم نفسه:

سأل عن النجوم.

وسأل عن الحياة.

وسأل عمن أوجده.

وسأل عن الموت: لماذا يموت وكيف يموت؟

وسأل عن الزمن، وسأل عن نفسه.

بل سأل عن أصل الوجود كله.

ولهذا يمكن القول إن الإنسان يمثل، في حدود معرفتنا الحالية، إحدى أرقى صور الوعي التي ظهرت فيها روح الحياة. ليس لأنه سيد الكون، ولا لأنه محور الوجود، وإنما لأنه الكائن الذي بلغت فيه القدرة على الإدراك والتساؤل والتأمل العميق والاختراع البديع.

لقد بنت يده الحضارات، واكتشف القوانين، واخترع الأدوات، ودوّن العلوم، وتأمل في نفسه وفي العالم من حوله. ومن خلال هذا الوعي أصبح الكون، وفق رؤية روح الحياة، قادراً على النظر إلى ذاته والتفكير في مساره.

إذا كان الوعي قد ظهر في صور متعددة عبر مسيرة الوجود الطويلة، فإن الإنسان يبدو، في حدود ما نعرفه اليوم، هو أوسع هذه الصور وأغناها. فالإنسان ليس مجرد كائن حي آخر بين ملايين الكائنات، ولا مجرد مرحلة عابرة في تاريخ الطبيعة، بل هو إحدى أعظم الصور التي ظهرت فيها روح الحياة حتى الآن. ففيه اجتمعت القدرة على الإحساس والتذكر والتخيل والتفكير والتأمل والإبداع، حتى أصبح قادراً على أن يسأل عن أصل الوجود نفسه.

ومن هذه الجهة يمكن القول إن الإنسان مرآة تنظر روح الحياة من خلالها إلى نفسها؛ إذ بلغ الوعي الإنساني درجة عظيمة أصبح معها قادراً على التأمل في الوجود الذي انبثق منه.

إن النجوم تدور، والبحار تتحرك، والأشجار تنمو، والحيوانات تعيش وتموت، لكنها لا تكتب الفلسفة، ولا تبحث في أصل الكون، ولا تتساءل عن معنى الوجود. أما الإنسان فقد أصبح قادراً على أن يجعل الوجود موضوعاً للتفكير، وأن يحول التجربة الكونية إلى معرفة وتأمل وسؤال.

ولهذا فإن قيمة الإنسان لا تنبع من كونه سيداً متعالياً على بقية الموجودات، بل من كونه أحد أعظم تجليات روح الحياة المعروفة لنا. إنه الإناء الذي ظهر فيه الوعي بصورة مكنته من أن ينظر إلى الماضي، ويتخيل المستقبل، ويتأمل الحاضر، وأن يبحث في أصل الأشياء ومصيرها.

ومن هنا لا أرى الإنسان حادثاً عرضياً لا معنى له، ولا ذرة تائهة في كون أصم، بل أراه ثمرة من ثمار الوجود نفسه، وصورة من صوره الراقية التي بلغ فيها الوعي درجة عالية من الظهور.

ومع ذلك فإنني لا أزعم أن الإنسان هو نهاية الطريق أو آخر ما يمكن أن تظهره روح الحياة. فالوجود أعظم مما نظن، وما زالت أسرار أكبر من أن يحيط بها عقل واحد أو جيل واحد أو حتى نوع واحد من الكائنات.

ولهذا يبقى الإنسان، رغم عظمتة، مرحلة من مراحل هذا المسار الكوني الكبير، وصورة من صور روح الحياة، لا الأصل كله ولا النهاية كلها.

وربما يكون الموت نفسه جزءاً من هذا المسار. فكما انتقلت روح الحياة من صور إلى صور، ومن أطوار إلى أطوار، قد يكون انتقال الإنسان بالموت تحولاً آخر في رحلة لا نعرف جميع فصولها. ونحن لا نزعم هنا معرفة يقينية بما يحدث بعد الموت، لكننا لا نجد سبباً يجعلنا نعتقد أن رحلة الوجود تنتهي بالضرورة عند حدود الجسد المادي الذي نعرفه.

ولهذا يبقى الباب مفتوحاً أمام التأمل، ويبقى السؤال قائماً؛ لأن الحكمة لا تبدأ بادعاء المعرفة الكاملة، بل بالاعتراف بأن الوجود أوسع من كل ما أدركناه حتى الآن.

خلاصة الفصل الرابع

إن الوعي ليس حادثاً طارئاً ظهر من عدم، ولا شرارة عشوائية قذفتها الطبيعة العمياء في دماغ الإنسان، بل هو سرٌّ من أسرار «روح الحياة» وجوهرٌ أصيل في نسيج الوجود. وفي ضوء هذه الرؤية الكونية، يمكن إجمال لغز الوعي وإدراك الوجود في أربع ركائز أساسية:

أولاً: الوعي درجات متأصلة، لا طفرة طارئة؛ فالوعي لا يُقاس بثنائية الوجود والعدم، بل هو مستويات ودرجات متفاوتة تتجلى في كل موجود بحسب طبيعته وتكوينه. فمن استجابة النبات، إلى غريزة الحيوان، وصولاً إلى تعقيد العقل البشري، يتجلى الوعي بوصفه إمكانية كامنة في «الطينة الأولى» تكشف تدريجياً عبر مسارات الانبثاق.

ثانياً: البيئة مُحفزة والوعي بذرة؛ وهنا تسقط المغالطة المادية التي تدّعي أن الضغوط البيئية «تخلق» الوعي. إن الحاجة لا تخلق الإمكانيات من فراغ، وإنما كان الوعي استعداداً وبذرةً كامنة في أصل الطينة الأولى، وما كان للضغوط البيئية والتلاحق البشري إلا دور «المفاتيح» التي أيقظت هذا الاستعداد وحفزته لبلوغ غايته التكوينية.

ثالثاً: التفرد البشري وسقوط العشوائية؛ إن تفرد الإنسان بهذا الوعي التجريدي الشامل، رغم اشتراك الكائنات الأخرى في البيئة نفسها ورحلة الشقاء والصراع من أجل البقاء، ينسف حجة المصادفة والانتخاب الأعمى. فالوعي الفائت ليس مجرد «أداة بقاء» لحيوان ضعيف، بل هو غاية مرسومة في السلالة البشرية استدعت للظهور متى ما اكتملت شروطها.

رابعاً: الإنسان مرآة الوجود؛ فالإنسان ليس سيّداً متعالياً منفصلاً عن الطبيعة، بل هو أحد أعظم تجليات «روح الحياة»، والموضع الذي بلغ فيه الوعي درجةً مكّنت الوجود من أن ينظر إلى ذاته، ويتأمل ماضيه، ويسأل عن أصله. ومع ذلك يبقى الإنسان مرحلةً في مسار كوني أعظم، تاركاً الباب مفتوحاً أمام أسرار الموت وما وراء هذا الجسد المادي.

ختاماً، لسنا عقولاً وُجِدت صدفة في كون أصم؛ بل نحن الوعي الكوني حين استيقظ
ليتأمل ذاته. جئنا من أصلٍ يحمل بذور الإدراك، لنكون مرآةً تنعكس على صفحتها
حكمة «روح الحياة» وأسرار وجودها الذي لا ينضب.

الفصل الخامس

تأملات: في العقل الباطن، المكبوتات، وأوهام الغيب

إعادة قراءة الظواهر الماورائية في «روح الحياة»

لقد دأب الإنسان منذ فجر التاريخ على تفسير الظواهر التي يجهلها أو يخشاها بإرجاعها إلى قوى خفية وكيانات ماورائية. وفي هذا السياق، امتلأت الذاكرة البشرية وتراث الأديان بقصص عن الملائكة، والجن، والشياطين، بوصفها كائنات مستقلة تشاركه الوجود وتتدخل في تفاصيل حياته. غير أن رؤية «روح الحياة» تتجاوز هذا التفسير الموروث، إذ تبحث في الجذور العميقة لهذه الظواهر، لتكتشف أن هذه الكيانات ليست في حقيقتها سوى تجليات وإسقاطات لما يختلج في أعماق العقل الباطن للإنسان نفسه.

مسرح العقل الباطن وصناعة الكيانات

إن العقل الباطن ليس مجرد مستودع خامل للذكريات، بل هو معمل طاقوي وإدراكي جبار، يخزن المخاوف، والرغبات المكبوتة، والتراكبات الثقافية التي تشربها الإنسان

وكذا موروثاته البيئية والدينية والجينية وما جرى عليه في هذه الحياة بل وكل ما مر به. وعندما يتعرض هذا الكائن لضغوط نفسية، أو تتراجع يقظة عقله الواعي، يستفحل اللاوعي ويبدأ العقل الباطن في «تجسيد» تلك الطاقات في صور مرئية أو مسموعة. فالذي يتوهم رؤية شيطان أو جني، لا يرى كائناً قائماً خارج ذاته، بل يرى «إسقاطاً ذهنياً» نسجه عقله الباطن من خيوط موروثاته الدينية والجينية. إن العقل هنا هو المخرج السينمائي الذي يحول الطاقة المحتبسة إلى شخص تبدو حقيقة تماماً، وتتطابق بدقة مع ما يؤمن به سلفاً. فليس صدفة أن يرى البوذي ما يوافق موروثه، وليس غريباً يرى المسلم ما يطابق معتقده؛ فالمخرج واحد وهو العقل الباطن الذي يستلهم صوره من بيئة الإنسان لا من غيبٍ منفصل.

الموراثيات في رؤية روح الحياة

من هذا المنطلق، لا تجد رؤية «روح الحياة» حاجة لافتراض وجود كيانات عاقلة خفية كالجن أو الملائكة بوصفها قوى خارجية تتدخل في مصائرنا. إن الخير والنور الذي يعزوه الإنسان للملائكة، والشر والوسوسة التي ينسبها للشياطين، هما في الحقيقة انعكاس لثنائية التناغم والاضطراب داخل النفس البشرية ذاتها. الإنسان هو الذي يخلق شياطينه من رحم مخاوفه وجهله وانحراف طاقته، وهو الذي يستدعي ملائكته من ينابيع طمأنينته وسلامه الداخلي.

إن فهم قوانين الوعي يححر الإنسان من استعباد الخرافة. فحين ندرك أن هذه الظواهر ليست غزواً من عوالم سفلية أو علوية، بل هي حوار مشفر يجريه العقل الباطن مع ذاته لتفريغ شحناته، نستعيد سيطرتنا على وعينا. وندرك حينها أن قوى التدمير والبناء كامنة فينا نحن، وفي كيفية إدارة طاقاتنا، لا في كائنات وهمية تسكن خارجنا وتربص بنا في الظلام.

إن الإنسان لا يرى الواقع كما هو في ذاته الخارجية إذا استفحل العقل الباطن وطغى على وعيه، بل يراه كما تسمح له بنيته الإدراكية ومخزونات اللا شعورية. إن كل تجربة روحية سوف تمر عبر عدسات الذاكرة والعاطفة والثقافة والمعتقد، فتتشكل صورتها النهائية وفقاً لما يخزنه الوعي من معانٍ ورموز. ولهذا فإن العقل لا يقتصر على صناعة صور الجن والشياطين والملائكة، بل يصنع أيضاً صور القداسة والبطولة والعداوة والخلاص، ويمنحها من قوته الداخلية ما يجعلها تبدو حقائق مستقلة قائمة بذاتها. إنه يكسو العالم الخارجي بألوان عالمه الباطني، ثم يغفل في كثير من الأحيان أنه هو من نسج تلك الألوان.

ومن هنا فإن الطريق إلى التحرر من الهلاوس لا يكمن في مطاردة الأشباح المتخيلة أو الخوض في صراعات لا تنتهي مع قوى غيبية مفترضة، بل في معرفة النفس وفهم آليات الوعي التي تنتج هذه الصور والمعاني. فكلما ازداد الإنسان بصيرةً بذاته، انحسر سلطان الوهم عنده، وانكشفت له الحقيقة التي يدرك فيها أن مصدر النور والظلام، والبناء والهدم، والخوف والطمأنينة، إنما يكمن في أعماقه عقله. وعند فهمه ووعيه لهذه النقطة سينتقل من موقع المتلقي للأحداث والخائف منها إلى موقع الشاهد الواعي الذي يدرك أن تغيير واقعه وما يمر به يبدأ أولاً من تغيير الصور التي يحملها في داخله.

العقل الباطن بين الإسقاط الذهني وقوانين الوعي

إن فهم علاقة الإنسان بالوجود لا يستقيم دون سبر أغوار البنية الخفية لآلة الإدراك البشري، ألا وهي العقل. فالعقل ليس مجرد وعاءٍ متلقٍ للمعلومات، بل هو المترجم الحقيقي والمهندس الفعلي للواقع الذي نختبره.

ولتفكيك حقيقة ما يُسميه الموروث بـ "الغيبات"، وإدراك جوهر التفاعلات الكونية، لا بد لنا من تفكيك هذه الآلة إلى شقيها الأساسيين: العقل الواعي، والعقل الباطن (اللاوعي).

أولاً: هندسة العقل ومخزن الموروثات

يتألف العقل البشري من مستويين متداخلين، يعملان بآلية تشبه إلى حد بعيد علاقة المزارع بحقله:

- العقل الواعي (المزارع): هو الفكر الحاضر، المعني بالتحليل والاختيار، والذي لا يلتقط إلا نزراً يسيراً من الصور والمشاهدات اليومية.
- العقل الباطن (الحقل الخصب): هو المستودع الأعظم والأعمق، الذي لا يكتفي بتخزين تريليونات الصور والأحاسيس، بل يخزن كل الموروثات البيئية، والدينية، والاجتماعية، وحتى الجينية. فالجينات لا تنقل الصفات العضوية فحسب، بل تحمل شفرات هائلة من الترددات والمعلومات التاريخية والطبية لأسلافنا.

وفي حقيقة الأمر، فإن العقل الواعي منقادٌ تماماً لخزون العقل الباطن. فكل ما يُذَر في هذا الحقل الخصب (سواء أكانت بذور خوف أو طمأنينة، خرافة أو حقيقة)، يتولى العقل الباطن إنباته وترجمته إلى أفعال ومشاعر، بل واستجابات فسيولوجية²⁸ يملئها على العقل الواعي ليقوم بتنفيذها طواعية.

ثانياً: الكيانات الغيبية كإسقاطات ذهنية

بناءً على الفهم الدقيق لآلية عمل العقل الباطن وبرمجته المسبقة، تنهاوى المفاهيم الموروثة حول الكيانات الغيبية كالجن والملائكة. إن هذه الكيانات لا تملك وجوداً موضوعياً مستقلاً في الخارج، بل هي محض إسقاطات ذهنية وتجسيدات نابعة من عقلٍ باطن تمت برمجته سلفاً بالموروث الديني والجيني والبيئي.

وقد قادتني التجربة والملاحظة في مراحل سابقة إلى الوقوف على هذه الآلية النفسية بصورة عملية. فقد كان يقصدني بعض من يطلبون أوراداً أو أعمالاً يعتقدون أنها تفتح لهم بصيرة رؤية "الملائكة" أو "خدام الآيات". وبدافع الاستكشاف العلمي والروحي، كنت أصف لبعضهم كائناً متخيلاً، وأمنحه اسماً وصفات محددة من نسج الخيال، ثم أطلب منهم المداومة على ذكر معين في خلوة طويلة بغية لقائه.

²⁸ **فسيولوجية:** نسبة إلى علم الفسيولوجيا (*Physiology*) وهو علم وظائف الأعضاء، وتعني "الجسدية الحيوية"؛ ويُقصد بها هنا تحول التفاعلات الذهنية والنفسية إلى تغيرات حيوية ووظيفية داخل الجسد — سواء أكانت سلبية كالجهد واستجابة الكر والفر وما يتبعها من ردود فعل ضارة كاللشجات والتقلصات الشديدة وتأثيرها على وظائف الأعضاء كالكد عند الخوف، أم إيجابية كالارتخاء والتوازن عند الطمأنينة — يترجم بها الجسم المشاعر والأفكار المخزنة في العقل الباطن في الحالتين على حد سواء.

والمفارقة أن بعضهم، وبعد فترات من العزلة والتكرار والتركيز المكثف، كان يعود ليصف لي الكائن ذاته الذي رسمتُ له ملامحه مسبقاً! يذكر اسمه وتفاصيله بصورة تطابق ما ألقيته عليه قبل التجربة. ولم يكن لذلك الكائن أي وجود إلا في الكلمات التي لقنته إياها ابتداءً. وقد دفعني هذا للتأمل العميق في قدرة العقل الباطن الجبارة على تجسيد التوقعات، وتحويل المعتقدات إلى مشاهد وتجارب حسية تبدو لصاحبها حقيقة مطلقة.

إن الإنسان لا يرى دائماً ما هو موجود في الخارج، بل يرى غالباً ما بُرِج عليه في الداخل. فحين تتضافر قوة الإيمان، والتوقع، والتركيز، والإنهاك الجسدي والذهني (كما في طقوس الخلوات)، يقوم العقل الباطن بخلق صورة لتلك الطاقة المنفعلة، ويلبسها "اللباس الموروث". فيرى المتوهم الكيان الذي أراد رؤيته؛ يظنه ملكاً أو جنياً، بينما هو يقف أمام مخلوقٍ من صنعة ذهنه.

وهذا ما يكشف تهافت النصوص المؤسسة لهذه الخرافات؛ فروايات الجن التي تزعم أنهم يأكلون العظام ويتناسلون بكثافة تفوق البشر، تصطدم بغياهم التام عن أي أثر مادي في عمارة الأرض. ناهيك عن التناقض الداخلي في النصوص ذاتها، كآية عرض "الأمانة" على السماوات والأرض والجبال ورفضها، ثم حمل الإنسان لها، دون أي إشارة لوجود الجن ككائنات مكلفة في ذلك المشهد الكوني. إنها، باختصار، أساطير عصور غابرة لا تصمد أمام النقد العقلي الصارم.

ثالثاً: الكبت النفسي وتشخيص الوهم (المس والجاثوم)

من أخطر تجليات العقل الباطن قدرته على تحويل الكبت النفسي والغريزي إلى أعراض عضوية تُفسر، جهلاً، على أنها "مس شيطاني". وتتجلى هذه المأساة بوضوح في المجتمعات المغلقة التي تعاني كبتاً شديداً، ولا سيما لدى بعض النساء المتدينات اللواتي يتضاعف لديهن الكبت بفعل الخوف والترهيب الديني من الإله وتأييد الضمير المستمر.

عندما يُجرّم الجسد من تفريغ شخائطه الطبيعية، وتُقمع الغرائز تحت سيطرة الترهيب الديني، يتولد ضغط هائل في اللاوعي. ولأن العقل شبكة متصلة بالجسد، فإنه يُترجم هذا الكبت العنيف إلى تشنجات عضلية، واضطرابات تناسلية، وهلوسات بصرية. فيأتي من يجهل حقيقة النفس ليُفسر هذه الانفجارات العصبية على أنها «مس من جن عاشق»، بينما هي في واقع الأمر صرخة الجسد المكبوت وانتفاضة العقل المنهك! وينسحب هذا الفهم على ظاهرة «الجاثوم»²⁹، الذي يُرعب الكثيرين.

²⁹ الجاثوم (شلل النوم): عَرَضٌ يعرض للبرء عند الدخول في النوم أو اليقظة منه، حيث يَحُمُّ خيالٌ ثقيلٌ على صدر النائم، فيعجز عجزاً تاماً عن تحريك جوارحه (أطرافه) أو إطلاق صوته، ويصاحبه شعور شديد بالضيق والاختناق وكأن الجسد مكبوح كلياً.

وفي التفسير العلمي الحديث: هو اضطراب فسيولوجي مؤقت يحدث نتيجة استيقاظ العقل واكتسابه الوعي الكامل، بينما يظل الجسد عالقاً في حالة "الارتخاء العضلي التام" المميزة لمرحلة الأحلام، مما يسبب شعوراً وهمياً بالاختناق نتيجة شلل عضلات الصدر الإرادية رغم استمرار التنفس الآلي. إلا أن منظور "روح الحياة" يرى هذا التعريف قاصراً وناقصاً؛ كونه يختزل الظاهرة في ميكانيكية الجسد ويغفل تفسير الصور والكيانات المرئية التي يشهدها الشخص عياناً وبناءً على ذلك، يُعرف الجاثوم بدقة أكبر بوصفه خللاً واضطراباً في السريان الطبيعي للطاقة الحيوية للبدن، حيث تنفصل أو تخرج طاقة شاذة ومضطربة نتيجة علل وضغوط مختلفة، مما يتسبب في إقلاق الوعي وتجسيد تلك الهلوسات والصور البصرية المزجة التي تَحُمُّ على الشخص بالتزامن مع العجز المادي للجسد.

الجاثوم ليس كياناً شيطانياً، بل هو طاقة سالبة متحفزة من داخل الإنسان. وعلاجه الجذري لا يكون بالتعاون، بل بتغيير برمجة العقل الباطن عبر التقبل. وهذا منهج عملي أهديته للكثيرين: أن يواجه الإنسان هذه الحالة قبل نومه بخطاب داخلي واثق، موجهاً حديثه لتلك الطاقة: "لك السلام والمحبة، أنتِ جزء مني، وأنا أقبلكِ من كل كيان وأشكرك وأظهر لك الامتنان". بمجرد تبني هذا التقبل دون خوف، ينهار الوهم، وتندمج هذه الطاقة الشاردة في الجسد، ويتلاشى الجاثوم إلى الأبد.

وقد أثبتت التجربة أن من يطبق هذا المنهج يلمس التحسن من الليلة الأولى، ومن يتأخر شفاؤه التام لا يتجاوز ثلاثة أيام.

لقد تواترت عليّ رسائل الشكر من مئات الأشخاص الذين جربوا هذا المنهج فتحسنت أحوالهم، بل إن بعضهم راسلني ليخبرني أنه شُفي في أيام معدودات بعد أن عاش أسير هذه الحالة المربعة طيلة خمسة وعشرين عاماً! إن هذا الشفاء العاجل والتحرر العميق لم يأت من فراغ، بل هو من بركة «روح الحياة»، وثمره يانعة لهذه الرؤية الكونية التي متى ما أبصرها الإنسان، تحرر من وهمه، وأعاد الطمأنينة والسلام إلى كيانه.

رابعاً: قوة الإيهام وسطوة الطاقة في المحيط المادي

يعمل العقل الباطن كمنظومة صارمة لا تفرق بين الحقيقة والوهم المتقن؛ فما يوقن به يجعله واقعاً مادياً ينعكس على الجسد. وقد أثبتت التجارب أن من يؤمنون إيماناً مطلقاً بوقوعهم ضحية للسحر، يصابون فعلياً بأمراض جسدية ونفسية مزمنة لا تجدي معها العلاجات التقليدية. وفي هذه الحالات المستعصية، يكون العلاج الأنجع هو: «خداع

الذهن لمعالجة النفس». ومن خلال مسرحية إيحائية متقنة (كاستخراج سحر مزيف أمام عيني المريض)، يقتنع العقل الباطن تماماً بأن «العقدة» قد حُلّت، فيصدر الدماغ أوامره بإيقاف الأعراض، ويستعيد الجسد عافيته فوراً، متحرراً من قيدٍ صنعه الوهم وكسره الإيحاء.

وهذا الأمر ليس مجرد استنتاج نظري، بل هو حقيقة وقفتُ عليها بنفسني من خلال تجاربي الطويلة وما خبرته من أسرار النفس البشرية. فقد شهدتُ شفاءً أناسٍ كُثر كانوا أسرى لهذه الأوهام المرضية، ولم يكن خلاصهم إلا عبر خداع أذهانهم بهذه الطريقة.

واكرر قولي مرة أخرى: العلاج هنا سيكون من خلال مسرحية إيحائية متقنة (كاستخراج سحر مزيف أمام عيني المريض بحيلة الغطاء والشمع)، فيقتنع العقل الباطن بأن «العقدة» قد حُلّت. وبناءً على هذا اليقين الجديد والمفاجئ، يصدر الدماغ أوامره بإيقاف الأعراض، فيستعيد الجسد عافيته فوراً، متحرراً من قيدٍ صنعه الوهم الخاطيء.

وعلى الصعيد الطاقوي، يتجاوز تأثير العقل الباطن حدود الجسد ليمتد إلى المحيط المادي. فإن الإنسان ليس كياناً معزولاً، بل هو بؤرة طاقة مشعة تتفاعل مع ما حولها. فحين يُشحن العقل الباطن بطاقة سالبة كثيفة، وتتراكم فيه مشاعر الخوف، والتوتر، والغضب، والتشاؤم، فإن هذه الشحنات المضطربة لا تبقى حبيسة الصدر، بل تكون قادرة على إحداث بعض التأثيرات المادية الملموسة في محيطها، ولو بدرجة ضعيفة جداً.

ومن خلال متابعتي لحالات كثيرة كانت تقصدني، استمتعت لقصص غريبة تجري وقائعها في بيوتهم؛ فمنهم من كان يشكي من حرائق متكررة تندلع بلا مسبب مادي

ظاهر، أو أجهزة تحترق فجأة. ومنهم من كان يؤكد سماع أصوات، أو طرقات خفيفة على الجدران، أو صريراً للأبواب وهي ساكنة، وربما شاركه أهله وذووه في سماع تلك الأصوات!

هذه الظواهر ليست أفعالاً لشياطين أو جن، بل هي في حقيقتها ارتدادات لطاقة الإنسان السالبة حين تبلغ ذروتها وتتصادم مع محيطها، وهي نتاج ما يمكن تسميته بـ "غلبة الوهم".

إن وهم الإنسان لا يقف عند حدوده الفردية، بل يمتد ليؤثر في المجال الطاقوي للآخرين. فحين يتكثف الوهم، تتفاعل عقول المحيطين به وتتأثر، فيستشعرون شيئاً مما يجري عليه. إن العقول تتلاقح ويقتبس بعضها من بعض، وربما يحدث ما يشبه "الاندراج" مع ذلك العقل في مسار هلوساته. قد لا يرون بدقة نفس الهلوسة التي يراها المريض، ولكنهم يشاركونه التأثير بالأصوات أو الانفعالات.

وهذا ليس قولاً مبتدعاً، فالتاريخ يحفل بقصص "الهلاوس الجماعية". بل إننا نجد شواهد ذلك بوضوح في السير والتراث الديني لمن ادّعوا النبوة ودخلوا في حالات من الهلوسة العميقة؛ حيث كان بعض المحيطين بهم يستشعرون شيئاً من تلك الحالة بفعل العدوى الطاقوية. ففي التراث الإسلامي، على سبيل المثال، يُروى أن علياً بن أبي طالب كان يسمع ما يشبه "صلصلة الجرس" حين كان محمد يمر بحالة نزول الوحي. وكذلك عائشة التي كانت تستشعر تغيراً وأصواتاً خفيفة حين كان محمد يسقط مغشياً عليه، فيدخل في حالة من الهذيان ورؤية الصور وسماع الأصوات. إنها، في التحليل الدقيق، عدوى الوهم حين تسيطر على المجال الطاقوي، فيتأثر بها أقرب الحاضرين.

بالتالي، يجب أن ندرك أن الدماغ البشري ليس مجرد كتلة مادية بحتة معزولة في الجمجمة، بل هو بؤرة إرسال واستقبال تتأثر وتتوثر في مسارات ومجالات طاغوية شديدة التعقيد. ولذلك، عندما كنت أعالج أولئك الذين وقعوا أسرى لهذه الهلاوس والاضطرابات التي ظنوها أفعالاً للجن والشياطين، وأوجههم لتفريغ شحناتهم السالبة وإحلال السلام الداخلي محل الخوف، كانت النتيجة دائماً واحدة: يعود البيت هادئاً، وتختفي تلك الأصوات والظواهر العجيبة فوراً.

ولا يقتصر هذا التأثير الطاقوي لـ "غلبة الوهم" على الجمادات فحسب، بل يمتد ليتجاذب مع الكائنات الحية أيضاً. ومن القصص العجيبة ذات الدلالة التي واجهتني، أن فتاة جاءتني يوماً تشكو من قط أسود يعترض طريقها أينما ذهبت. وكانت، وفقاً لما تشرّبه من عقائد التراث، توقن أن الجن يتلبس القطط السوداء. فعملتُ على تفكيك هذه الخرافة في ذهنها، وبعد حوارٍ وتعليم، استنار وعيها، والمفارقة أنها لم تشاهد ذلك القط بعد ذلك اليوم أبداً!

وحين عادت تسألني بذهول: "لماذا كنت أراه دائماً في كل مكان، ولماذا اختفى الآن؟"، كان جوابي لها: "لأنك كنتِ تستدعين هذا القط من حيث لا تشعرين. إن للحيوانات قدرة فطرية على التأثر بترددات الدماغ البشري والتفاعل معها. فخوفك الشديد من القط، ويقينك الموهوم بأنه شيطان يتربص بك، جعل منك بؤرة تبث (نداءً طاغوياً) مستمراً. لم يكن لذلك القط المسكين أي ذنب سوى أنه كان يلتقط تلك الشحنة ويتجاوب مع هذا الاستدعاء الطاقوي الكثيف. فلما استنار وعيك، وعرفت أن الخلل في داخلك، زال الوهم وانقطع الاستدعاء، ففضى القط لحال سبيله لأنك لم تعود تنادينه بطاقتك".

متى ما فهمنا طبيعة هذا العقل الجبار، وأدركنا أننا نحن من نخلق واقعنا، تتوقف هذه الظواهر، وتعود السكينة للنفوس والأماكن، ويتحرر الإنسان أخيراً من سطوة أوهامه.

إن تحرر الإنسان يبدأ من إدراكه لسطوة عقله الباطن وطاقته الكامنة. فمتى ما استوعبنا أننا صنّاع مخاوفنا، وأن ما نخشاه في العتمة ليس سوى انعكاس لظلال زرعها الموروث في حقول عقولنا، وأن طاقاتنا هي التي تبني واقعنا أو تدمره؛ حينها فقط نستعيد سيادتنا الكونية، ونحرر من أغلال الخرافة.

إن أعظم الأوهام التي يقع فيها الإنسان ليست تلك التي يرويها التراث عن الجن والشياطين والملائكة، بل الوهم الأعمق الذي يجعله ينسى أن كثيراً مما يراه في الخارج إنما نشأ أولاً في داخله. فالعقل الباطن لا يكتفي بحفظ الصور والذكريات، بل يعيد تشكيل الواقع وفق ما يحمله من مخاوف ورغبات ومعتقدات. ولهذا، فإن معركة الإنسان الحقيقية ليست مع قوى خفية تترصد به من وراء الحجب، بل مع الجهل الكامن في أعماقه، ومع البرجمات القديمة التي ورثها دون تحييص.

وحين يدرك الإنسان أن الوعي هو مفتاح التجربة كلها، وأن كثيراً من القيود التي تكبله ليست إلا صوراً صنعها بنفسه ثم منحها سلطة عليه، يبدأ طريق التحرر الحقيقي. عندئذٍ لا يعود يبحث عن الخلاص في طرد الشياطين أو استرضاء الأرواح، بل في معرفة ذاته، وتنقية وعيه، وإعادة بناء علاقته بالوجود على أساس الفهم والبصيرة. وهناك فقط.. ينكشف له أن النور الذي كان يبحث عنه في الخارج لم يكن إلا شعلة كامنة في أعماقه منذ البداية.

وهم المكاشفات

وجوه الشياطين بين خرافة الكرامة والاضطراب العصبي

في البيئات المنغلقة التي يغيب عنها الفهم العلمي الدقيق، وتطغى عليها النزعة الغيبية، يسهل جداً إعادة تأويل الاضطرابات العصبية والنفسية بوصفها "كرامات" ربانية. هناك، تتحول الهلوسة إلى "مكاشفة"، ويلبس الخلل الإدراكي لباس القداسة. وهنا تكمن الإشكالية الكبرى في الإطار الثقافي الذي يفسّر هذه الظواهر؛ فهو إطار لا يبحث عن الحقيقة بموضوعية، بل يوظف الخلل لخدمة النسق الديني وتكريس سلطته على العقول.

قصة التستري: من هلوسة المنبر إلى أسطورة الكشف

تُروى في الأوساط الحوزوية والوعظية قصة شهيرة تُنسب إلى العارف والفقيه الشيخ جعفر التستري صاحب كتاب الخصائص الحسنية. ومفاد هذه الحادثة أنه صعد المنبر يوماً ليخطب في الناس، فلما نظر إلى الحاضرين رآهم على هيئة كلاب وخنازير ومسوخ مرعبة، ففزع، وغطى رأسه بعباءته، ونزل مسرعاً وولى هارباً من المكان. وعندما تبعه تلاميذه وسألوه عن السبب، أخبرهم بما رأى، وقال إنه لم يستطع وعظ مجتمع كهذا. وقد جرى تداول هذه الحادثة لاحقاً في المجالس وعلى ألسنة الوعاظ على أنها «مكاشفة نورانية»، ودليل ساطع على انكشاف بواطن الناس وخفايا نفوسهم له! وبفضل هذه الهلوسة، ارتفعت مكانته في الذهن الجمعي بوصفه قطباً من أهل الكشف والعرفان الذين تخترق أبصارهم حُجب المادة.

مشرط العلم: تفكيك المكاشفة المزعومة

غير أن هذه الرواية، إذا نُزعت من إطارها الوعظي وصُنّديتها التراثية المغلقة، وعُرضت على ميزان العلم، ستبدو أقرب إلى توصيف دقيق لحالة إدراكية غير طبيعية، لا إلى رؤية غيبية خارقة.

فالعلم الحديث يصف حالات مشابهة تماماً بوصفها اضطراباً نادراً في الإدراك البصري، يُعرف باسم "تشوّه إدراك الوجوه" (Prosopometamorphopsia)³⁰. والمفارقة اللافتة أن هذا الاضطراب كافٍ لتغيير إدراك الواقع البصري تغييراً جذرياً؛ إذ يجعل المصاب به يرى وجوه البشر مشوّهة أو ذات ملامح "شيطانية" وحيوانية. ومع ذلك، يبقى وعي المريض وذكاءه وتفكيره المنطقي سليماً تماماً. ولأنه لا يفقد قدرته على التفكير المنطقي، يظن من حوله — ويظن هو نفسه أحياناً — أنه يرى حقيقة غيبية خفية، بينما هو في الواقع مجرد ضحية لخلل في الآلة العصبية المترجمة للصور في الدماغ.

وللتدليل على ذلك بمثال قريب وقاطع، نُشرت في الدورية الطبية المرموقة (The Lancet) تقرير عن حالة امرأة هولندية كانت تعاني من الأعراض ذاتها؛ إذ كانت ترى وجوه الناس كأنها كائنات مشوّهة شبيهة بالتنانين والوحوش، رغم احتفاظها بوعي كامل وقدرة طبيعية على التفكير والتحليل.

1. Jan Dirk Blom, Iris E. C. Sommer, Sanne Kooops, Oliver W. Sacks, "Prosopometamorphopsia and Facial Hallucinations," *The Lancet*, Vol. 384, No. 9958, 2014, p. 1998;
2. Jan Dirk Blom, Bastiaan C. ter Meulen, Jitze Dool, Dominic H. Ffytche, "A Century of Prosopometamorphopsia Studies," *Cortex*, Vol. 139, 2021, pp. 298–308.

وبعد إجراء فحوصات دقيقة، كشف التصوير بالرنين المغناطيسي عن وجود بعض التغيرات في «المادة البيضاء» من الدماغ، بالقرب من النواة العدسية³¹ وفي المركز شبه البيضاوي. وقد رجّح الباحثون أن تكون الظواهر البصرية التي عانت منها المرأة مرتبطة بنشاط كهربائي غير طبيعي في مناطق دماغية متخصصة في معالجة الوجوه والألوان. وقد شُخصت حالتها باضطراب «تشوّه إدراك الوجوه». ومع العلاج، ولا سيما باستخدام دواء الريفاستيغمين³²، تراجعت حدة الظواهر البصرية وتحسنت قدرتها على التفاعل مع الآخرين واستمرت في عملها بصورة أفضل.

إن هذه الحالة الطبية الموثقة تؤكد، بما لا يدع مجالاً للشك، أن ما يراه هؤلاء ليس "رؤية غيبية" ولا "انكشافاً للحقائق"، بل هو خلل إدراكي محدد في الدماغ. ولأن الدماغ يستمد صورته من خزان "العقل الباطن" (كما بينا في المباحث السابقة)، فإنه عندما يعجز عن معالجة ملامح الوجه البشري بشكل صحيح، يقوم بترقيع الصورة وإسقاط أقرب القوالب المشوهة والخيفة المخزنة في الذاكرة الثقافية للإنسان، وهي صورة "الشياطين والمسوخ".

³¹ النواة العدسية والمادة البيضاء (Lentiform Nucleus & White Matter): أجزاء حيوية وعميقة في الدماغ البشري؛ تمثل المادة البيضاء شبكة الألياف الناقلة للإشارات، بينما تختص النواة العدسية بتنسيق العمليات الحركية. ويمر بمحاذاة هذه المناطق والمركز شبه البيضاوي مسارات عصبية متخصصة في معالجة الصور والوجوه؛ لذا فإن أي نشاط كهربائي غير طبيعي أو خلل عضوي في هذه النطاقات يُسبب تشوهاً إدراكياً بصرياً يُعرف بـ (Prosopometamorphopsia)، مما يمنح العلم تفسيراً مادياً عصبياً خالصاً لظواهر الرؤى والهوسات.

³² الريفاستيغمين (Rivastigmine): عقار طبي يُستخدم لتحسين وظائف الإدراك وتنظيم النواقل العصبية (يوصف عادة لمرضى ألزهايمر أو باركنسون). ذكره في الهامش يؤكد للقارئ أن "المكاشفة المزعومة" عولجت كيميائياً في العيادة ولم تُعالج بالتعاويز.

إن المرأة الهولندية تعالجت وعادت لحياتها الطبيعية لأن بيئتها عرضتها على "طبيب الأعصاب"، بينما الشيخ التستري تحول إلى أسطورة مقدسة لأن بيئته عرضت هلوساته على "محراب الخرافة".

وفي ضوء رؤية «روح الحياة»، ندرك أن الإنسان متى ما فهم آلية عمل دماغه وارتباطه بوعيه، سقطت من أمامه أصنام الأوهام، وأدرك أن المعجزة الحقيقية ليست في رؤية الشياطين، بل في امتلاك العقل القادر على تبديدها بنور المعرفة.

طريق الشفاء: من سراب الوهم إلى يقين الوعي

لذلك أقول في رؤيتي بـ «روح الحياة»: من يندش الشفاء الحقيقي والتحرر من هذه المعاناة، عليه أولاً أن يسبر أغوار ذهنه، وأن يدرك كيف تتأثر نفسه وتتفاعل مع ما انطوى عليه هذا الذهن من مدارك وقوى. عليه أن يفهم طبيعة ما أودع فيه من مخزون الذكريات، وما جرى عليه من آلام وأوهام، وما تلقنه من تعاليم، بل وما حمله في خلاياه من جينات أسلافه، وما تشربه من بيئته ودينه ومجتمعه. كل هذا التراكم المزدحم لا بد للإنسان أن يعيه ليفهم لماذا يتأثر، وكيف يفعل.

وفي هذا السياق، كان البعض يسألني مستكراً: "لماذا تمنعنا من قراءة الآيات، كآية الكرسي وغيرها، عند النوم للحماية؟ أليست تنفع البعض؟" فكان جوابي لهم: نعم، هي قد تنفع البعض في لحظة قراءتها كمسكن نفسي مؤقت، لكنها تحمل في طياتها ازدواجية

مدمرة للعقل الباطن. إن الذي يعتقد أن هناك اسماً أو آية أو سورة تنفعه لطرد الشياطين والجن، يقوم فعلياً بخلق وتخزين صورتين متناقضتين في عقله الباطن:

- الصورة الأولى (وهم التهديد): الإيمان العميق بوجود كيانات شريرة (جن وشياطين) ترتبص به وتريد إيذائه.
- الصورة الثانية (وهم الحماية): الاعتقاد بأن قراءة هذه الآية أو السورة هي الدرع الذي يطرد هذا الخطر.

وهنا يكمن الفخ؛ فهذا التخزين المزدوج أمر بالغ الخطورة، لأنه يرسخ "وجود" الخطر كحقيقة مطلقة في اللاوعي. فإذا ما حدث ونسي الإنسان في إحدى الليالي تفعيل "الصورة الثانية" (أي نسي قراءة الآية)، فإن "الصورة الأولى" ستستفحل فوراً وتنقض عليه. بل إن العقل الباطن، وبسبب إيمانه الشديد والمسبق بهذا الخطر، سيقوم بخلق وتجسيد هذا الكيان الموهوم تجسيدا حسيّاً!

لهذا السبب تحديداً، يشعر المريض المستفحل عليه عقله الباطن بالوهم بأعراض مادية وجسدية مرعبة؛ فيُقسم أنه يشعر بكيان غريب يقتحم جسده، أو بشيء بارد يتسلل من أقدامه ويزحف صعوداً على جسده حتى يبلغ صدره فيكتم أنفاسه ويخنقه. إن هذا "الشئ" الذي يخنقه ليس جنّاً ولا شيطاناً، بل هو "طاقة الخوف الكثيفة" التي خلقها عقله الباطن وجسدها استجابةً لغياب التعويذة التي كان يحتمي بها.

إن الحل الجذري والأمثل لا يكمن في الاستمرار في هذه الحرب الوهمية واستخدام التعاويذ، بل في مسح كلتا الصورتين من الذهن تماماً، واستبدالهما بصورة واحدة

ووحيدة؛ وهي: اليقين القاطع بأنه لا يوجد هنالك جن أو شياطين يريدون إيذائي، إنما كل ما أراه وأشعر به هو نابع مني ومن طاقاتي الكامنة.

ومن هنا تبدأ رحلة الشفاء الفعلي؛ بأن يتعلم الإنسان كيف يتحدث مع ذاته ويخاطب ذهنه بوعي. أن يخاطب تلك الطاقات الكامنة في داخله قائلاً: "أنا أعرف أن كل الذي يجري هو مني وفي.. أنا متسامح مع ذاتي، أقبّل كل طاقاتي على ما هي عليه، وأظهر لها المحبة والامتنان". متى ما أدرك الإنسان أن هذه الطاقات ليست أعداء، بل هي أجزاء من كيانه تحتاج إلى القبول والسلام، سقط الوهم، واندجت تلك الطاقات الشاردة بحبة في نسيج وعيه. وهنا فقط، يتحرر الإنسان، ويتحقق أمر الشفاء التام.

صدى الوعي: كيف ينحت الحديث الداخلي واقعنا؟

إن أفكارنا ليست أطياًفاً عابرة تسبح في فراغ الجمجمة لتتلاشى بلا أثر؛ بل هي بذور حية تتحول مع الزمن إلى أفعال، ثم تتكثف لتصبح عادات، ثم تُنحت في النهاية لتشكّل ملامح شخصية ثابتة وواقعاً ملموساً. فنحن في حقيقتنا نتاج ما نفكر فيه، وكما نخاطب أنفسنا نتشكل من الداخل. القاعدة الكونية الصارمة هنا هي: دماغك يستمع إليك دائماً، وكل فكرة تفكر بها أو كلمة تنطق بها داخلك، يترد أثرها الطاقوي عليك مضاعفاً.

يجب أن ندرك أولاً أن "الحديث الداخلي" ليس ظاهرة غريبة أو علامة مرض، بل هو وظيفة أصيلة من وظائف الوعي. نحن نستخدم اللغة في داخلنا لتنظم سلوكنا، ونضبط انفعالاتنا. وقد أثبتت الأبحاث أن «القشرة الجبهية الأمامية» —المسؤولة عن التحكم

التنفيذي – تنشط بوضوح أثناء الحديث الذاتي، مما يمنحه السلطة الأكبر في تشكيل
مزاجك³³.

في الرؤية الكونية لـ «روح الحياة»، الكلمة والفكرة ليستا مجرد اهتزازات صوتية، بل هما
«طاقة» فاعلة. الكون لا يفهم لغاتنا البشرية ولا يستجيب لحروفنا اللفظية، بل يستجيب
للتردد الشعوري المرافق لتلك الأفكار. فإن كانت حواراتك سلبية، مشحونة بالقلق
وجلد الذات، فإنك تخلق حقل طاقة مضطرباً يمتد تأثيره ليخلق عراقيل في شؤون
حياتك. فالواقع الخارجي ليس إلا مرآة لترددات حوارنا الداخلي.

ولقد أثبتت الدراسات أن أولئك الذين اعتادوا تقريع النفس والقلق المزمن، سجلوا
تراجعاً ملحوظاً في الذاكرة وترسبات بروتينية ترتبط بـ "الزهايمر"³⁴. إن لوم النفس

³³ 1. Ray, R. D., & Zald, D. H., "Anatomical Insights into the Interaction of Emotion and Cognition in the Prefrontal Cortex," *Neuroscience & Biobehavioral Reviews*, Vol. 36, No. 1, 2012, pp. 479–501

2. Moser, J. S., et al., "Third-Person Self-Talk Facilitates Emotion Regulation Without Engaging Cognitive Control: Converging Evidence from ERP and fMRI," *Scientific Reports*, Vol. 7, 2017, Article 4519.

³⁴ 1. Natalie L. Marchant, Lise R. Lovland, Rebecca Jones, Alexa Pichet Binette, Julie Gonneaud, Eider M. Arenaza-Urquijo, Gael Chételat, Sylvia Villeneuve, "Repetitive Negative Thinking Is Associated with Amyloid, Tau, and Cognitive Decline," *Alzheimer's & Dementia*, Vol. 16, No. 7, 2020, pp. 1054–1064.

1. Golan Shahar, Megan L. Rogers, Hadar Shalev, Thomas E. Joiner, "Self-Criticism, Interpersonal Conditions, and Biosystemic Inflammation in Suicidal Thoughts and Behaviors Within Mood Disorders: A Bio-Cognitive-Interpersonal Hypothesis," *Journal of Personality*, Vol. 88, No. 1, 2020, pp. 133–145.

وتويخ الذات يُبقي الجسد في حالة طوارئ وهمية، ويرفع "الكورتيزول"³⁵، ويستنزف طاقة الدماغ، ويسبب التهاباً خلوياً مزمناً. ومع التكرار، تتحول الفكرة العابرة إلى قناعة راسخة، ويتعامل معها الدماغ كحقيقة مطلقة.

لغة التعافي: كيف تشكّل كلماتك الصامته عالمك الخارجي؟

إياك وجلد الذات، واحذر من التقريع المستمر كلما تعثرت أو أخطأت. فالقضية ليست في وقوع الخطأ ذاته، بل في الحوار الذي يدور داخلنا بعد وقوعه. والسؤال الأهم ليس: «هل أخطأنا؟»، بل: «كيف نُخاطب أنفسنا بعد الخطأ؟». فن هنا يبدأ طريق التعافي أو طريق التدمير الذاتي. وللخروج من هذه الدوامة، لا بد من إعادة صياغة حديثنا الداخلي بوعي واتزان وعلينا تغيير نوع الخطاب:

- بدلاً من: "أنا فاشل وغبي"، قل: "لم أوفق في هذه التجربة، وأنا قوي وذكي".
- وبدلاً من: "لن أنجح أبداً"، قل: "لم أجد الطريقة المناسبة بعد، لكنني سوف أنجح".

هذه التغييرات البسيطة تفصل هويتك عن الحدث، وتمنع الطاقة السالبة من تدمير بؤرتك الإدراكية. ولكي يكتمل هذا التشافي، لا بد من عقد حوار واعي مع الدماغ، يُبرز فيه اللفظ بقوة الفكرة، فتخاطب ذاتك وخلاياك بيقين: "أنا أستقبل الشفاء،

³⁵ الكورتيزول (Cortisol): هرمون يفرزه الجسم استجابة للتوتر والخطر (آلية الكر والفر). بقاءه بمستويات مرتفعة لفترات طويلة — بسبب جلد الذات والتفكير السلبي المزمن — يؤدي إلى تدمير الخلايا العصبية في الدماغ، وضعف الذاكرة، والتهابات جسدية مزمنة.

والعافية، والقوة، والسلام". وتتعاظم قوة هذا الحديث قبل النوم تحديداً. لا بد أن تغفو على وسادة الكلمات الموجبة، فإياك أن تنام شاكاً أو خائفاً. النوم على القلق يبرمج وعيك على الهدم، بينما تكرر التوكيدات الإيجابية يجعلك تستيقظ بكامل طاقتك لتصنع واقعك. وحين تستمر على هذا اليقين، ستتلمس أثره المباشر؛ كقشعريرة تسري في البدن، أو إحساسٍ بتسرب طاقةٍ ثقيلة من قدميك. هذا الإحساس هو دليل قاطع على تفريغ الشحنات المحتبسة، وإحلال طاقات النقاء مكانها.

قانون التجاذب الكوني: حين تتحول المشاعر إلى واقع ملموس

أثر حديثك الداخلي لا يتوقف عند حدود تكوينك العصبي، بل يتسع ليرسم شكل تفاعل الكون بأسره معك. وهنا يتجلى ما نطلق عليه في رؤيتنا «قانون التجاذب الكوني» (لا مجرد قانون الجذب). هذا القانون يقتضي عقد حوار مع الوجود (روح الحياة) أساسه الامتنان العميق، فتتطق بكلماتٍ من كل مكانك، كلمات تستشعرها روحك: "أنا منك وفيك، وأنا منسجمٌ معك، وأشعر بفيض عطائك يغمرني".

ولقد اخترنا هنا لفظ (التجاذب) قاصدين؛ لبيان أن الأمر ليس سحياً أحادي الاتجاه من كونٍ أصم، بل هو تفاعلٌ حي ومشاركة متبادلة. أنت تبث تردداً، والكون يتجاذب معك. والسر الكوني الدقيق هنا هو: الكون لا يتفاعل مع الفكرة المجردة، بل يتفاعل مع "المشاعر" التي تغلفها. المشاعر هي الذبذبات الحية ولغة الوجود. لكي يتحقق مرادك، يجب أن تُحيط فكرتك بيقينٍ وفرح، فإذا غلّفتها بالشك والانتظار القلق، استجاب

الكون لـ "خوفك" لا لـ "فكرتك". وللخروج من فخ القلق، يقف الحكيم أمام مسارين لتجسيد ما يصبو إليه:

المسار الأول (اليقين والفرح): أن يُضمَر في داخله تحقق غايته بيقين، ويعيش حالة من السعادة والامتنان المسبق.

المسار الثاني (التخلي والنسيان): أن يصنع فكرته ويرميها في تيار الحياة ثم "ينساها" تماماً، ويمضي سعيداً دون تعلق، لئلا يفسدها بذبذبات الانتظار. هذا هو دأب الحكيم الذي يدرك أن واقعه الخارجي انعكاسٌ لوعيه، وأن سلامه الداخلي هو المغناطيس الأعظم للوجود.

خلاصة القول هنا:

العلم لا يقرر أن فكرة سلبية عابرة ستدمر الدماغ لحظياً، لكنه يؤكد بجلاء أن التفكير السلبي المزمن والتوبيخ القاسي للذات، ليسا مجرد شأنٍ نفسي عابر؛ بل هما نمطٌ طاغوي مضطرب، وترددٌ سلبي يحمل تأثيرات معرفية وبيولوجية مدمرة، تُعيق انسجام الإنسان مع ذاته والكون.

الامتحان الأصدق لكل سالكٍ في مدارج «روح الحياة»، هو أن يقف موقف المراقب لأعماقه، ويسأل نفسه بصدق: هل حديثي الداخلي يفتح لي أبواب التقبل والحلول، أم يُبقيني أسيراً في دائرة مغلقة من اللوم والتدمير الذاتي؟

تذكر دائماً: دماغك منصتٌ مطيع، وكل كلمة تنطق بها في محرابك الداخلي هي تعويذة؛ إما أن تبنيك أو تهدمك. فاحرص على ما تُسمعه لروحك، لأن أثره سيرتد حتماً إليك.

السر الكوني العجيب: تجلي المراتد على حين غفلة

ولعلي أدركتُ هنا سرّاً من أدق أسرار هذا الوجود، أبوح به إليك أيها القارئ؛ فتي تأملت، ستجد أننا غالباً ما ننال مراداتنا على حين غفلةٍ منا. كم مرة بحثت عن شخص أو شيء لفترة طويلة وبتركيز حاد دون جدوى، ثم التقيته أو وجدته في لحظة غفلة، وحين انصرف ذهنك عنه تماماً؟

إن العقل البشري —وتحديداً الذهن المشحون بطاقة الانتظار والترقب— يميل بطبعه إلى تعقيد مسار الأشياء وتأخيرها. فحين تشتد حالة "الانتظار"، يشتد معها التوتر الطاقوي؛ لأن انتباهك الحاد الممزوج بالقلق ييثر للكون رسالة خفية مفادها: "أنا أفترق إلى هذا الشيء". هذا التردد السالب يعيق التدفق الطبيعي للأمور ويؤخر تجليها. فلو بقيت مترقباً بقلق، فلن يحدث شيء، لكن في غمرة غفلة بسيطة، يتجلى مرادك فجأة في واقعك!

وكان هنالك هندسة كونية دقيقة تربط عقولنا بهذا الوجود؛ هندسة تقتضي أن تفتح الأبواب وتتجسد الرغبات في لحظات السكون واللا التفات. فالذهن يتفاعل مع الكون، والكون يستجيب للذهن بأفضل صورة ممكنة عندما تتخلى ونسى.

لذلك، أقول دائماً لمن يشتكون قائلين: "نحن ننتظر طويلاً ولا نحصل على مرادنا".. أقول لهم بيقين: انسوا مراداتكم!

فالمرادات الكبرى تتجلى دائماً على حين غفلة. إن انتظرتموها بقلق وترقب، ستتأخر حتماً. الحل يكمن في التخلي؛ ارموا حاجاتكم في تيار الحياة، غلفوها بأفكاركم النيرة

ومشاعرهم اللطيفة، ثم انسوها تماماً وانشغلوا بهجة يومكم. فإذا نسيتموها، وتحرتم من سجن الانتظار، جاءكم تسعى إليكم.

إن الذي "يتحلى" عن فرط التفكير في الأشياء التي يريدها، ويحرر ذهنه من قيود الخوف والشك وقلق الانتظار، فإنه بذلك "يتحلى" بصفاء وعيه، إذ يُنقى إناء عقله ليصبح مرآة صافية تنسجم مع ذبذبات الكون وطاقاته بصورة صحيحة. وما إن يصل إلى هذه المرتبة من التحلي والصفاء، حتى "تتجلى" له مراداته، وتظهر أمامه كواقع ملموس استجابة لترددات السلام والتسليم التي أطلقها في الوجود.

الوعي الكوني واستظهار الأجوبة الخفية

من أعمق الظواهر الإنسانية التي تستدعي التأمل بوعي، والتي تكاد تكون تجربة متكررة في حياة البشر، أن يطارد الإنسان جواباً لمسألة ما زمناً طويلاً فلا يظفر به، ثم يتجلى له الحل فجأة وكأنه خلق من موضع خفي في نفسه. قد يُجهد عقله في فكرة أياماً أو أشهراً، ثم يستيقظ ذات صباح وقد انجلى له ما كان غامضاً، أو تلمع في ذهنه ومضة مفاجئة تفتح له أفقاً لم يكن يراه من قبل.

هذه القضية لم تأت من فراغ؛ فالعقل البشري يحتوي على قدرات هائلة تتجاوز حدود التفكير الواعي المباشر. وفي رؤيتنا؛ رؤية «روح الحياة»، لا يُنظر إلى العقل الباطن بوصفه مجرد مخزن بارد للذكريات، بل بوصفه جانباً عميقاً ونورانياً من الكيان الإنساني يتصل بهذا الكون الرحيب. فالإنسان ليس كائناً مادياً فحسب، ولا كياناً منفصلاً عن

الوجود؛ بل هو جزء من نسيجه الحي؛ لذلك قال الحكماء قديماً: "الإنسان عالم صغير، والكون إنسان كبير". لقد كانوا يدركون أن كل ما هو موجود في هذا الكون الفسيح منطبعٌ في جوهر الإنسان، ويمكنه أن يستوحيه ويدركه متى ما ارتبط ذهنه بالترابط الكوني العميق.

لكن شريطة الاستلهام هي أن يكون هناك منطق واعي، وعقل حكيم، وبحث دقيق، وتوجه تام وكامل نحو طلب المعرفة. وعند العجز عن نيل الجواب، حينها ربما يحدث التفاعل الكوني وينتج العقل الباطن الإجابة ويستظهر النتيجة الخفية. وهذا الجواب يحدث عادةً عندما يكون هنالك تعب وإرهاق شديدان وسهر طويل، حينها يظهر المكنون ويُباح عن سره المصون. ولا يحدث هذا عبثاً أو تصادفاً، بل يشترط أن يكون ذهن الإنسان سوياً وقادراً على تتبع المنطق في فهم الأشياء. فالمنطق الواعي الذي نستخدمه في يقظتنا لا يقتل "المنطق الماورائي" للعقل الباطن، بل يتكامل معه ويمهّد الطريق له؛ إذ إن للعقل الباطن منطقاً الخاص والأسرع الذي يكتشف به الأسرار ويستوحي به المعارف. ولكي تنجلي هذه المعارف الكبرى، لابد للمرء أن يكون عاقلاً، حكيماً، وبصيراً، متبعاً لطرق الحكمة بشكل صحيح، بعيداً عن كدر الأهواء أو ضيق الأنانية أو زيف التوهمات؛ فالعقل الواعي المستنير يميّز بقاء بين الصواب والخطأ، وبين الإلهام الحقيقي الصادق والوهم الخاطيء.

«الطبائع التام» وتجليات الوعي عند الحكماء

ولقد لمس الحكماء في مختلف الأزمنة هذه الوقائع وأدركوها من خلال سبر ذواتهم. ومن أشهر الشواهد المحورية في هذا السياق، ما ذكره داود الأنطاكي³⁶ في «تذكرته» ناقلاً عن الفيلسوف اليوناني أرسطو؛ حيث روي عن أرسطو أنه شغلته بعض المسائل الفلسفية والحكمية المستعصية فلم يدرك لها جواباً، فاختل بنفسه في مكان هادئ، وأخذ يتأمل ويمارس الرياضات الروحية والفكرية. وفي حالة بين اليقظة والنام، تجسد له ما أسماه بـ «طبائه التام»³⁷، فأخبره عن تلك الأجوبة وزاده معرفة وحكمة.

والطبائع التام عند الفلاسفة الأوائل يتحقق حين تستقيم طبائع الإنسان الأربعة وتتوازن. فإذا انسجمت تلك العناصر، استقام الطبع الإنساني واكتمل؛ ولعل «الطبائع التام» الذي تحدث عنه أرسطو يمثل، بلغة عصرنا، ما يُعرف بالعقل الباطن، وقد تجلّى له في صورة مرشدٍ معلّم بعد أن بلغ ذروة التوازن الداخلي والصفاء النفسي. وهذه التجربة لم تكن حكراً على أرسطو وحده، بل هي إرث مشاع تناقلته الحضارات:

³⁶ داود الأنطاكي: طبيب، وصيدلاني، وفيلسوف ضرير عاش في القرن العاشر الهجري. صاحب الموسوعة الطبية الشهيرة "تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجائب" التي تُعد مرجعاً ضخماً في الطب القديم.

³⁷ الطِّبَاعُ التام وفق نظر الأقدمين هو المقام الذي يعلو فوق الطِّبَاعِ الأربعة (أو الطبائع الأربعة). • والطِّبَاعُ الأربعة (الأخلاط): هي الأمزجة البيولوجية المادية المتفاعلة في الجسد (الدم، البغم، الصفراء، السوداء)، والتي يُمثل استقرارها وتوازنها (الاعتدال البدني والنفسي) شرطاً أساسياً لصفاء الوعي. • أما الطِّبَاعُ التام (Perfect Nature): فهو الجوهر الروحاني العلوي المتمثل في القرين التوراني أو المرشد الباطني للإنسان. ولا يبلغ الإنسان مقام الاتصال به إلا بعد تهذيب أخلاطه المادية الأربعة واستواء أزمجته، ليغدو وعيه صافياً ومؤهلاً لتلقي الفيض والاتصال بمرشده الباطني. وفي رؤية «روح الحياة»؛ نُعبر عن ذلك بالعقل الباطن.

- في اليونان: كان «فيثاغورس» يحث أتباعه على فترات من الصمت الطويل، معتقداً أن المعرفة العميقة لا تُنال بالجدل وحده، بل بصفاء النفس الذي يكشف الحقائق المحجوبة عن الإنسان.
- في الصين: أكد «لاوتسو» أن الحكمة العميقة لا تأتي من المطاردة المستمرة للأفكار، بل من السكون والانسجام مع "الطاو"، والذي يُترجم حرفياً إلى "الطريق" أو "المسار" (المبدأ الكوني الأسّي).
- في الهند: زخر التراث بروايات الحكماء الذين يغيثون في تأمل عميق، ليخرجوا برؤى استوحوها من اتصال أعمق بحقيقة الوجود تتجاوز التفكير العادي.
- في الحضارة الإسلامية: عُرف عن «ابن سينا» أنه إذا استغلق عليه باب من أبواب العلم، فزع إلى الصلاة والتأمل، فتنجلي له معضلات العلوم بعد سكونه أو عبر رؤى صادقة في نومه.

وقد يظن البعض أن هذه الإشراقات مقتصرة على فلاسفة العصور الغابرة، لكنّ العلماء المُحدّثين سجلوا تجارب تبرهن الدور الحاسم للعقل الباطن في معالجة أعقد المسائل:

- أوغست كيكوليه: العالم الكيميائي الذي أمضى زمناً يحلل بنية جزيء البنزين دون جدوى، حتى غفا غفوة رأى فيها أفعى تلتف حول نفسها وتأكل ذيلها، فقادته هذه الومضة الباطنية فوراً لاكتشاف البنية الحلقية للجزيء في واحدة من أشهر لحظات الإبداع العلمي.
- هنري بوانكاريه: الرياضي الفرنسي الفذ، الذي اعترف بأن الحلول الرياضية المعقدة التي أعجزته أياماً، كانت تباغته فجأة ودون مقدمات واعية في أوقات

من السكون والتأمل البعيد عن التفكير المباشر، مما جعله يستنتج أن للعقل الباطن دوراً خفياً وحاسماً في ربط الخيوط المتفرقة.

- سرينيفاسا رامانوجان (معادلات قادمة من وراء الحجاب): لم يتلقَ عبقرى الرياضيات الهندي تعليماً أكاديمياً كافياً، ومع ذلك قدم آلاف المعادلات الرياضية التي حيرت علماء الغرب. وحين سُئل عن مصدرها، كان يؤكد ببقاء أن "إلهة عائلته" كانت تزوره في أحلامه وتكتب المعادلات بالدم أمام عينيه، فيستيقظ ليسجلها مباشرة. لم يكن رامانوجان يستخدم المنطق الخطي المتسلسل؛ بل كان عقله الباطن يتصل بشكل مباشر ومذهل بالهندسة الكونية العليا. ومن مقولاته الشهيرة: "المعادلة لا تعني لي شيئاً ما لم تعبر عن فكرة من أفكار الإله".
- رينيه ديكارت (ولادة المنطق من رحم الحلم): المفارقة الكبرى أن "أبو الفلسفة الحديثة" ومؤسس العقلانية الصارمة، وصل إلى منهجه عبر أحلام غامضة! في ليلة 10 نوفمبر 1619، اعتكف ديكارت في غرفته بألمانيا بحثاً عن منهج يجمع العلوم. في تلك الليلة، راودته ثلاثة أحلام متتالية رأى فيها صواعق وكتباً تفتح وتغلق، وسمع صوتاً يبشره باكتشاف "أساس علم مذهل". استيقظ ديكارت وقد تبلورت في عقله الباطن فكرة توحيد الهندسة والجبر (الهندسة التحليلية)؛ ليولد أعظم نظام منطقي حديث من رحم اتصال باطني غامض.
- دميتري مندلييف (الكون يرتب فوضاه في المنام): أمضى العالم الروسي سنوات يحاول إيجاد نظام يربط العناصر الكيميائية، وظل مستيقظاً لثلاثة أيام متواصلة يرتب بطاقتها حتى انهار من التعب ونام بمكتبه. في تلك الغفوة العميقة، عمل عقله الباطن بعيداً عن التشويش الواعي، فتجسد له الجدول الدوري كاملاً

وسقط كل عنصر في مكانه الصحيح. استيقظ مندليف ورسم الجدول فوراً، بل وتنبأ من خلاله بعناصر لم تكن مكتشفة بعد.

وأما أنا شخصياً، فقد شهدت في لحظات التأمل العميق وفي بعض الرؤى المنامية ومضات معرفية فتحت أمامي أبواباً لم تكن من قبل واضحة لي، وكشفت عن أجوبة وتسؤلات ظلت زمناً عصية على الفهم. وليس هذا الموضوع مجالاً لبسط تلك التجارب أو تفصيل ما انكشف لي منها، غير أنني أذكرها شاهداً إضافياً على ما يستطيع العقل الباطن أن يبلغه حين يهدأ ضجيج الفكر الظاهر وتتسع مساحة التأمل.

ولنعد هنا إلى شخصية عبقرى الرياضيات الهندي سرينيفاسا رامانوجان، لنرى كيف أفاد البشرية بما انبثق من عقله الباطن عبر رؤاه ومناماته وكيف تم الاستهزاء به قبل ذلك.

لم تكن رحلة هذا العبقرى مفروشة بالورود، بل عاش سنوات طوالاً كمنبوذ مجهول، يعاني الفقر الشديد وغربة الروح. ففي نظر مجتمعه ومحيطه الأكاديمي، لم يكن رامانوجان سوى "شاب فاشل" ومختل عقلياً. فنذ طفولته، كان ينزل لساعات طوال، يخط رموزاً غريبة على لوح صخري ويمسحها بكوعه حتى اسودّ جلده، في مشهدٍ بدا لأهل قريته كأنه مسّ من الجنون. ولأن عقله كان يخلق في أبعاد كونية، عجز عن التكيف مع النظام التعليمي التقليدي، فرسب في دراسته الجامعية وطُرد منها لرفضه دراسة أي مادة سوى الرياضيات. وصل به الفقر إلى التجول حافي القدمين في شوارع مدراس، يستجدي الناس أوراقاً ليكتب عليها معادلاته.

وحين حاول عرض دفاثره على الأكاديميين طلباً لوظيفة تسد رmqه، قوبل بالسخرية والالتهام بالاحتيال؛ فمعادلاته كانت خالية من البراهين المألوفة، مما جعلهم يظنون أنها طلاس معتوه. حتى البروفيسور البريطاني الشهير "هاردي" اعترف بأنه حين استلم رسالة رامانوجان الأولى، ظن في الوهلة الأولى أنها "خدعة من شخص مجنون"، قبل أن يدقق فيها ويصعق بعبقريته.

في علم النفس الحديث، تُفسر حالة رامانوجان بأنها تداخل مع "متلازمة العبقري" أو عبقرية حدية فائقة. فهو لم يكن مجنوناً بالمعنى الطبي، بل كان عقله يعمل بأقصى طاقته في معالجة لغة الوجود والأنماط الكونية، على حساب وظائفه الاجتماعية والمادية. هذا الاختلاف الجذري في التفكير هو ما جعل وعيه يبدو شاذاً في نظر من لا يبصرون سوى القشور.

ورغم كل هذا الاستهزاء، أنصفه التاريخ حين تحولت ومضاته الباطنية التي رُفضت يوماً إلى حقائق علمية راسخة ومن عظيم ما نفع به البشرية :

أولاً: الجانب الرياضي (معادلات بلا براهين سبقت عصرها)

كان رامانوجان يدوّن متطابقات ومعادلات معقدة للغاية في دفاتر فريدة من نوعها، خالية تماماً من أي خطوات حل أو إثباتات. ومن أبرز إسهاماته التي تدل على هذا العمق:

- متسلسلات تقريب ثابت الدائرة (π): قدم صيغاً رياضية عجيبة تمكنت من حساب قيمة (π) بدقة فائقة وبسرعة غير مسبوقة. إحدى هذه المتسلسلات

(التي اكتشفها عام 1914) أصبحت لاحقاً، في ثمانينيات القرن الماضي، الأساس الذي بُنيت عليه خوارزميات الكمبيوتر لحساب ملايين الأرقام بعد الفاصلة لثابت الدائرة.

- دوال الموك ثيتا: كتب عنها في رسالته الأخيرة وهو على فراش الموت عام 1920. لم يفهم علماء الرياضيات كنه هذه الدوال أو طريقة عملها إلا بعد عقود طويلة. وفي القرن الحادي والعشرين، تبين أن هذه المعادلات الرياضية التي استلهمها من "رؤاه" هي أداة أساسية لشرح وتفسير سلوك الثقوب السوداء في الفيزياء الكونية ونظرية الأوتار الفائقة!

ثانياً: الجانب الفلسفي والنفسي (العقل الباطن وقنوات الإلهام)

تُدرس حالة رامانوجان حتى اليوم في علم النفس المعرفي كواحدة من أعمق تجليات "الحدس الرياضي الفائق"، ويتجلى ذلك في مسارين:

- تجاوز الوعي المنطقي (المنطق الخطي المتسلسل): في الرياضيات التقليدية، يعتمد العلماء على "البرهان الرياضي الخطي"، حيث ينتقل العالم من الخطوة (أ) إلى (ب) ثم إلى (ج) بناءً على قواعد منطقية صارمة ومتسلسلة. أما رامانوجان فلم يكن يعمل بهذه الطريقة؛ بل كان يقفز مباشرة إلى النتيجة النهائية دون تقديم أي خطوات منطقية وسيطة. يرى العلماء اليوم أن عقله الباطن كان يقوم بعمليات معالجة متوازية هائلة وفائقة السرعة، بحيث يرى الأنماط الرياضية كبنى هندسية مكتملة ومتراصة، دون الحاجة للهرور عبر "ممر" التفكير الواعي البطيء.

- تجسيد المعرفة (الرمزية الروحية): لأن هذه المعالجة العقلية كانت تحدث في مستويات عميقة جداً من اللاوعي، كان عقله يترجم هذا التدفق المعرفي الضخم على شكل "رؤى بصرية" ورموز دينية مألوفة لديه (مثل رؤية الإلهة وكتابة المعادلات بالدم أمام عينيه). لم تكن تلك الصور إلا الطريقة واللغة التي استطاع بها وعيه استيعاب هذا الكم الهائل من المعلومات المعقدة عند الاستيقاظ.

إن حالة هذا العبقري الهندي تمثل دليلاً ساطعاً ومصدقاً دقيقاً لما نطرحه في كتابنا هذا عن رؤية «روح الحياة»؛ فما حدث مع رامانوجان يكشف لنا جانباً من آلية عمل العقل الباطن حين ينفتح على مستويات أعمق من المعرفة. لقد كان عقله الباطن يلتقط المعاني الكونية المجردة، ثم يقوم بتأطيرها وإلباسها ثوب العقيدة والرموز الروحية التي نشأ عليها وانطوى عليها وجدانه منذ طفولته. فالمعرفة واحدة تفيض من النسيج الكوني، غير أن العقل الباطن يترجمها بالصور والرموز التي يألّفها الوعي، ليتمكن من استيعابها وتجسيدها في عالم الخبرة الإنسانية.

وخلاصة القول: بناءً على ما سبق، فإن فكرة استظهار الأجوبة أو استلهام المعارف ليست أمراً خرافياً، بل هي حقيقة قائمة متى ما عمل العقل الباطن في انسجام مع الحكمة والمنطق والبصيرة. فالمنطق الواعي يطرح الأسئلة ويهيئ الأرضية، لكن العقل الباطن المتصل بـ "روح الحياة" هو الذي يلتقط الأجوبة الكبرى من النسيج الكوني. وحين يهدأ ضجيج الاضطراب النفسي، ويبتعد الإنسان عن أسر الأنانية والوهم، يواصل العقل الباطن العمل حيث توقف العقل الظاهر، فينفتح على البنية الكونية الكبرى.

تتكشف له حينها معانٍ وحقائق يبدو وكأنه استخرجها من أعماقه، بينما هي في الحقيقة ثمرة ذلك الترابط المذهل بين "الإنسان الصغير" و"الكون الكبير". إن عقولنا أوسع بكثير مما ندرك، وكثير من الفتوحات الفكرية والعلمية الكبرى بدأت بومضة حدسٍ سبقت البرهان.

التفاعل الكوني: بين حظوظ المادة ونقاء البصيرة

في رؤية «روح الحياة»، لا يقف تفاعل الإنسان مع محيطه عند حدود المادة، بل يمتد ليكون تفاعلاً طاقياً ووجودياً يتجاوز الحواس. ولتفكيك إشكالية طالما حيرت العقول — وهي: لماذا تتحقق مرادات الأنانيين بيسر، بينما يتأخر حظ الطيبين؟ — يجب أن نفهم أن التفاعل المستمر بين الإنسان والكون ينقسم إلى مسارين أساسيين يحددان شكل حياته، ويرسمان ملامح مصيره:

أولاً: التفاعل الكوني العام (قانون التردد المحايد)

وهو قانون شامل ومحايد، يعمل بصرامة وانتظام كقوانين الفيزياء الثابتة (كالجاذبية مثلاً)، ولا يُميز في استجابته الأولية بين الأخيار والأشرار، تماماً كما تشرق الشمس على الجميع دون تمييز. ويندرج تحت هذا المسار ما يُعرف بقانون "التجاذب الطاقي". فالأفكار والنوايا ليست مجرد خيالات حبيسة في الجمجمة، بل هي "رسائل كونية"

وذبذبات حية تُبث عبر مسارات التكوين. وبناءً على قوانين هذا التفاعل، يرتد على الإنسان من جنس ما أرسل.

وهنا تتجلى الإجابة عن سر تفوق أصحاب الأنانية؛ فالإنسان الأناني، وصاحب المنفعة الشخصية المحضة، لا يفكر إلا في مصلحته. هذا التمحور الشديد حول الذات يخلق لديه "تركيزاً طاقوياً حاداً وموجهاً"، خالياً من مشتتات القلق على الآخرين أو التعاطف معهم. ولأن الكون (في قانونه العام) يتفاعل مع كثافة التردد، فإنه يستجيب لهذه الذبذبات الموجهة، فتتحقق مراداته المادية بسرعة وسهولة.

وهذا المشهد يتطابق تماماً مع ما نراه في عالم الطبيعة والحيوان؛ حيث تقتات الوحوش الكاسرة على الحيوانات الوديدة كالظباء. ففي عالم المادة الكثيفة، يبدو الكائن الرقيق واللطيف — بجمال نفسه ورهافة مشاعره — وكأنه ضحية لتلك الطاقات الأنانية التي تتحرك بشراسة نحو أهدافها. فقانون التجاذب العام يتفاعل مع الطرفين، لكنه في مضممار "المادة المحضة" يمنح الغلبة لصاحب التركيز الأناني الذي لا يلتفت لغيره.

ثانياً: التفاعل الكوني الخاص (نورانية الوعي)

إذا كان الأناني قد نال حظوظه المؤقتة من خلال القانون العام، فإن هناك مساراً أسمى، وتردداً كونياً أنقى، لا يُمنح إلا للإنسان الطيب الصالح الذي طهرت سريرته وتناغمت طاقته مع الوجود.

إن التزام الإنسان ببقاء القلب، وحرصه على عدم الإضرار بالكائنات، ورقة مشاعره التي قد تجعله أحياناً يتأخر في سباق المادة، لا تمنحه مجرد "راحة نفسية" عابرة، بل تفتح

له أبواب "الوعي الكوني" على مصراعيها. هذا المسار يرفع الإنسان من مرتبة "المستفيد المؤقت من قوانين الكون" إلى مرتبة "المتصل الأبدي بحكمته".

إن الوعي الكوني يتجاذب بقوة هائلة مع هذه النسخة الطيبة من البشر، فيفيض على صاحبها بالأنس الروحي، والصفاء العقلي، والسكينة العميقة التي تملأ كيانه وتُحصن بؤرته الطاقوية. هذا التفاعل الوعيوي يمنح صاحبه حكمةً عليا، واستشعاراً مرهفاً، وبصيرة نافذة لا يمكن للأنانيين الماديين المنغلقيين أن يدركوها أو يذوقوا حلاوتها، مهما أوتوا من دهاء أو براعة في حصد مكاسب الدنيا.

الخلاصة أن الأناني قد يربح قشرة المادة بقانون الجذب العام، لكن صاحب القلب الحي يربح جوهر الوجود، ويتحد مع «روح الحياة» عبر الوعي الكوني الخاص.

أخلاقيات الحكمة واستلاب المعارف: لعنة الاستحقاق الطاقوي

بناءً على فهمنا لمسارات التفاعل الكوني، يتجلى لنا بُعد ناموسي خفي في طبيعة "المعرفة" و"الحكمة". فالحكمة في رؤية «روح الحياة» ليست مجرد نصوص تُحفظ، أو مصطلحات تُردد، أو معلومات يمكن نقلها من كتاب إلى آخر؛ بل هي "حالة طاقوية" و"مقام وعيوي" يبلغه الإنسان عبر مسار التفاعل الكوني الخاص. إنها ثمرة لنقاء السريرة، والتأمل العميق، والتناغم الصادق مع الوجود.

ولذلك، يظن بعض من تستهويهم المعارف العميقة أن بإمكانهم اختصار الطريق عبر "استلاب" أفكار الحكماء، وسرقة رؤاهم ونسبتها إلى أنفسهم بغية نيل الرفعة أو الواجهة الفكرية. إنهم يتعاملون مع الحكمة بمنطق التفاعل الكوني العام، ظناً منهم أن امتلاك

"الكلمات" يعني امتلاك "الحقيقة"، وأن السطو على ثمار الآخرين وارتداء ثوب حكمة مستعار سيمنحهم ذات البريق والنور.

التصادم الطاقوي وخلل الاستحقاق

لكن ما يجهله هؤلاء هو وجود قانون كوني صارم يمكن تسميته بـ "الاستحقاق الطاقوي". إن الأفكار العميقة والرؤى الفلسفية الصادقة تحمل في ذاتها "ذبذبات عالية" وترددات نورانية تتناسب مع الوعاء الذي أُنتجت فيه. وعندما يقوم شخص ما باستلاب هذه الحكمة بخلفية مبنية على الأنانية أو الجحود؛ فإنه يُدخل تردداً طاقوياً عالياً ونقياً إلى "بؤرة إدراكية" تعج بالترددات المنخفضة. هذا التفاوت الشاسع بين نبل "الحكمة المسروقة" ودناءة "النية السارقة" يخلق تصادماً طاقوياً عنيفاً في داخل الإنسان؛ كالذي يمرر تياراً كهربائياً هائلاً في سلكٍ ضعيف، والنتيجة الحتمية هي الاحتراق والتمزق الداخلي.

ولهذا نجد في الواقع أن من يسطو على معارف الآخرين الروحية وينسبها لنفسه، يتأذى في كوامنه وتتعثّر مساراته. إن هذه الطاقة المسروقة لا تستقر في وجدانه، بل تتحول إلى قوة ضاغطة؛ لأنه ابتلع طاقة لا يملك الإنزيمات الروحية لهضمها. ينقطع عنه "مدد المعرفة"، ويفتقد لـ "الأنس الروحي"، فيصبح كمن يرتدي ثوباً مضيئاً لا يزيد ظلامه الداخلي إلا افتضاحاً.

في المقابل، لا يتضرر الحكيم الأصيل باستلاب أفكاره؛ لأن الحكمة لديه متصلة بـ "ينبوع روح الحياة" الذي لا ينضب، بينما لا يأخذ السارق سوى ما طفا على السطح.

لصوص الحكمة وتعثر المسارات

ارتباطاً بهذا الاستحقاق الطاقوي، تتجلى أمامنا ظاهرة أولئك الذين يطلبون الحكمة بغير استحقاقها. وقد جاءني يوماً أحد الذين أعرفهم يسألني، وفي صدره حيرة وضيق: "ما بالي لا أرى بركةً في عملي؟ ولماذا أرى الأبواب مغلقةً أمامي فلا أجدني أتقدم في شيء، على الرغم من أنني من محبي الحكمة، والطامحين إليها؟"

فأجبتة بإيضاح واضح، بلا مراوغة ولا مجاملة: يا صديقي العزيز، إنَّ للحكمة ناموساً خفياً لا يراه كثير من الناس. فليس العلم كلمات تُحفظ، بل هي خلقٌ تتلى به، ونسبٌ ترجع له، وروحٌ وفاءٍ لا بد منه.

وإنِّي أراك تأخذ من أقوال الحكماء ثم تلبسها لذاتك، وتخفي أسماء الذين أضاءوا لك الطريق، وكأنَّ نور الحكمة خرج منك وليس منهم. وهنا تبدأ العثرة؛ لأنَّ المعرفة لا تُبارك نفساً جاحدة، ولا تُقيم في قلبٍ يقطع جذوره عمَّن علموه. هذا الأمر —تحديداً— هو الذي يحجب عنك مسارات الوفرة وطرق المعرفة.

إن الذي يتعثر في طريق الحكمة والتدقُّ المعرفي، إنما يُحاسب في حياته لأنه يُقاد بنور المعرفة وروح الحياة. فليس كل من يخطئ يواجه التعثر فوراً؛ بل إن الذي يحمل في

ذهنه قَبَساً من أهل الحكمة، ويدّعي السير في دربهم، يجب عليه أولاً أن يتحلّى بصفاتهم النورانية. فالذي يسلك هذا المسلك الشريف دون أن يتخلّق بأخلاق أهله، ودون أن يرجع الفضل لأصحابه، ستُغلق أمامه أبواب النور؛ لأن نكران الفضل قطعٌ صريحٌ لمدد المعرفة.

يا صديقي، ليس كل من مشى على قدمين هو إنسانٌ بصفاته؛ فبعض البشر يعيشون في أجساد بشرية لكنهم من حيث الطبيعة كائناتٌ مُفترسة. هؤلاء قد تتقدم بهم الحياة المادية ويعلو شأنهم ظاهرياً؛ لأنّهم يتحرّكون بطبيعتهم الحيوانية الكثيفة ضمن التفاعل الكوني العام، ولا يطلبون أفقاً نورانياً. أمّا من يلتحف برداء الحكماء وهو يسرق خطاهم، فإنّ ناموس المعرفة يحجب عنه فيضهُ؛ فلا يوجد أشدّ ظلمةً من نفسٍ تقتبس الضياء ثمّ تجهد في إخفاء مصدره!

إن الحقيقة الأزلية التي جرت بها سنن التكوين، هي أن سرقة ثمار العقول ليست مجرد خطأ أخلاقي، بل هو "خلل في نواميس الوفرة والبركة". فمن قطع جذوره، جفّ غصنه وذبلت أوراقه. وهذه الحالة غالباً ما تنتهي بصاحبها إلى فقرٍ وضيقٍ حال، مادياً وروحياً؛ لأن الحكمة الحقّة تفيض من نفسٍ ممتلئة بالامتنان.

محراب المعرفة وطريق الخلاص

يا ابن روح الحياة: مَنْ سَرَقَ سِرَاجَ غَيْرِهِ لِيُضِيَ بِهِ دَارَهُ، أَطْفَأَتْ رُوحَ الْحَيَاةِ بَصِيرَتَهُ وَحَرَمَتْهُ دِفْءَ الْمَعْرِفَةِ. فَالْأَفْكَارُ ثَمَارُ لَا تَمُوتُ إِلَّا فِي تُرَابِ الْاِمْتِنَانِ.

يا ابن الأم المقدسة: لَا تُبْنِ الْهَيْبَةَ عَلَى أَنْقَاضِ عُقُولِ الْآخَرِينَ. مَنْ ادَّعَى النُّبُوغَ بِلِسَانٍ غَيْرِهِ، كُسِيَ ثَوْبًا مِنْ الْفَاقَةِ؛ وَمَنْ بَخَلَ بِذِكْرِ مُعَلِّمِهِ، بَخَلَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا بِبِرْكَتِهَا.

اعلم أن في ميزان الحكمة الحقيقية، الحكيم الحق هو مَنْ يَقِفُ عَلَى أَكْتَافِ الْعُظَمَاءِ وَيَقُولُ: "لَوْلَا هُمْ مَا رَأَيْتُ الْأَفُقَّ". إِنْ الْاِمْتِنَانُ هُوَ مِفْتَاحُ الْوَفَرَةِ، وَنِسْبَةُ الْفَضْلِ لِأَهْلِهِ تُرْسِي عِمَادَ التَّوْفِيقِ. إِنْ مَنْ يَسْرِقُ حِكْمَةَ غَيْرِهِ يَظُنُّ أَنَّهُ يَبْنِي لِنَفْسِهِ شَأْنًا، لَكِنَّهُ يَخْفِرُ بُرًّا مِنْ الْوَهْمِ؛ فَالْعِلْمُ رَحْمٌ بَيْنَ أَهْلِهِ، وَقَطْعُ هَذَا الرَّحْمِ مُحَقٌّ لِلْبِرْكَاتِ وَعَاقِبَتُهُ الْفَقْرُ وَالشَّتَاتُ.

إِنْ أَرَدْتَ لِابْتَوَابِ الْمَعْرِفَةِ الْحَقَّةِ أَنْ تَنْفَتِحَ، فَاخْلَعْ عَنْكَ ثَوْبَ الْاِنْتِحَالِ وَتَحَلَّ بِنَقَاءِ السَّالِكِينَ. أَرْجِعِ الْفَضْلَ لِأَهْلِهِ، وَاجْعَلِ الْاِمْتِنَانَ جَذْرَ وَجُودِكَ؛ فَكُلَّمَا سَقَيْتَ الْجَذُورَ بِالْاِعْتِرَافِ، أَثْمَرْتَ أَغْصَانُ حَيَاتِكَ بِبِرْكَةٍ دَائِمَةٍ تَفِيضُ مِنْ رُوحِ الْحَيَاةِ الْمُبَارَكَةِ.

وأقول هنا بروح الحياة لروح الحياة: "يَا شُعْلَةَ النُّورِ الْكَامِنَةِ فِي كُلِّ كَيَانٍ، مِنْكَ وَبِكَ بَدَأَ الْبَادِي، وَبِهَدْيِكَ يَمْضِي الْآلَنَ. فَتَبَارَكْتَ يَا سِرَّ ظُهُورِ الْإِمْكَانِ، وَتَقَدَّسَتْ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَأَوَّانٍ، يَا أُمِّي، يَا سِرَّ وَجُودِي، يَا مَنْبَعَ فَيْضِ الْإِنْسَانِ."

خلاصة الفصل الخامس

إن كثيراً مما نُسب عبر التاريخ إلى قوى خفية أو كائنات ماورائية، يمكن فهمه بدقة في ضوء عمل العقل الباطن ومسارات الوعي الإنساني. وفي ضوء رؤية «روح الحياة»، نُجمل أسس هذا الفصل في خمس ركائز:

أولاً: العقل الباطن هو مسرح الظواهر الماورائية. فالجاثوم، والهلاوس، والتجارب التي فُسرت بوصفها مساً أو حضوراً لكيانات خفية، ليست سوى انعكاسات لحالات نفسية وعصبية، حوّلها الجهل بآلياتها إلى أساطير وتفسيرات غيبية راسخة.

ثانياً: حديث الذات يصوغ الواقع. الكلمات التي يكررها الإنسان في داخله لا تتلاشى كأصوات عابرة، بل تتكشف لتصبح أنماطاً شعورية توجه بوصلة تفاعله مع العالم. ومن هنا، يُعد الوعي باللغة الداخلية الركن الأساس في رحلة البناء النفسي والتوازن الذاتي.

ثالثاً: التفاعل مع الوجود يتجاوز المادة. الإنسان ليس كياناً معزولاً، بل هو بؤرة تتفاعل مع محيطها الكوني عبر منظومة المشاعر والاتجاهات الذهنية. وكلما ارتقى انسجامه الداخلي وصفا ووعيه، تعاظمت قدرته على التجاذب الإيجابي مع مسارات الحياة.

رابعاً: الوعي بوابة لاستظهار الأجوبة الكونية. العقل الباطن ليس مجرد مسرح للأوهام، بل هو، متى ما صفا وارتقى بالمنطق النوراني، سيكون نافذة حقيقية لاستلهام الحكمة الكبرى، والتقاط المعارف والفتوحات العلمية من نسيج الكون الواسع، كما أثبتت تجارب الحكماء والعلماء عبر التاريخ.

خامساً: الحكمة استحقاق لا غنيمة. المعرفة الحقّة لا تُختزل في حفظ الكلمات، بل ترتبط بالقدرة على تحويل الفهم إلى وعي وسلوك. لذلك، فإن الامتنان، والصدق الفكري، والاعتراف بالفضل، ليست مجرد مُثُل أخلاقية؛ بل هي نواميس طاغوية وشروط حتمية للارتقاء في مدارج المعرفة.

ختاماً، لا تدعونا «روح الحياة» إلى الخوف من المجهول بل إلى فهمه، ولا إلى الاستسلام للأوهام بل إلى تفكيكها. فكلما تعمقت معرفة الإنسان بنفسه، واتسع وعيه بما يجري في أعماقه، أدرك موقعه الحقيقي في هذا الوجود، وأيقن أن طريق التحرر يبدأ من الوعي لا من الخوف، ومن المعرفة لا من الوهم.

الفصل السادس

الإنسان والمعنى والأخلاق في روح الحياة

الإنسان ليس ذرة غبار

من أكثر الأفكار التي أراها مجحفة بحق الإنسان أن يقال عنه إنه مجرد «ذرة غبار» في هذا الكون الهائل.

صحيح أن الإنسان صغير جداً إذا قيس بحجم المجرات والمسافات الكونية، وأن الأرض نفسها ليست سوى نقطة ضئيلة في بحر الوجود الواسع. لكن الحجم المادي ليس المعيار الوحيد للقيمة أو الأهمية. فالمقياس الذي يعتمد على الامتداد والحجم وحدهما يغفل جوانب أخرى لا تقل عمقاً وخطورة.

فالإنسان يحمل في داخله عالماً بالغ التعقيد. يحمل الذاكرة والخيال، ويحمل الحب والخوف والأمل، ويحمل القدرة على التفكير والتساؤل والإبداع. ويحمل تاريخاً من التجارب والمعاني والانفعالات التي لا تختزل في وزن الجسد أو حجمه أو موقعه في الفضاء.

وهو أيضاً كائن شديد التأثير والتأثير. فقد ينهكه الحزن حتى يمرض جسده، وقد تبعث فيه كلمة طيبة أو فرحة عميقة قوة جديدة على الحياة. ويتأثر بالخوف والطمأنينة، وبالأمل والألم، وبما يحيط به من طاقات ومؤثرات مادية ونفسية.

فالإنسان ليس كتلة جامدة من المادة، بل كيان حي تتفاعل فيه الأحاسيس والمشاعر والأفكار والجسد في شبكة معقدة من التأثيرات المتبادلة.

إن مقدار ما يحمله الإنسان من وعي وإحساس وحيوية يفوق بكثير ما توحى به صورته المادية المحدودة. فقد تدمعه ذكرى، ويؤلمه فراق، ويغير مسار حياته حلم أو فكرة أو حب أو أمل. وهذه القدرة الهائلة على التأثر والتفاعل ليست سمة لذرة غبار تائهة في الكون، بل سمة كائن يحمل في داخله عالماً كاملاً من الحياة والتجربة والمعنى.

ولهذا فإن الإنسان ليس مجرد ذرة صغيرة في فضاء واسع، بل إناء للحياة والوعي والإحساس. يؤثر ويتأثر، ويغير ويتغير، ويحمل في داخله من الطاقات والانفعالات والقدرات ما يجعل قيمته أكبر من أن تقاس بحجمه المادي وحده.

إنه الكائن الذي استطاع أن يبني الحضارات، ويبتكر العلوم، ويكتشف قوانين الطبيعة، ويرصد المجرات البعيدة، ثم يعود ليسأل عن نفسه وعن أصل وجوده ومعنى حياته. وهو في الوقت ذاته ما زال عاجزاً عن الإحاطة الكاملة بأسرار وعيه وكنه ذاته، وكأن أعظم ألغاز الكون ما زالت تسكن في داخله.

ولهذا فإن قيمة الإنسان لا تنبع من حجمه الفيزيائي، بل من كونه كائناً واعياً ومدركاً وقادراً على التأمل. فحبة صغيرة من المادة لا تدرك نفسها، أما الإنسان فيستطيع أن يتأمل ذاته، وأن يتساءل عن بدايته ونهايته، وأن يبحث في أصل الكون الذي نشأ فيه.

ومن هذه الجهة لا يكون الإنسان مجرد كتلة صغيرة في فضاء شاسع، بل نقطة التقاء بين المادة والوعي، وبين التجربة والمعنى، وبين الوجود والسؤال. إنه صورة من صور الوجود بلغت درجة من التعقيد جعلتها قادرة على النظر في أصلها والتفكير في مسارها.

وفي رؤية «روح الحياة» لا يُنظر إلى الإنسان بوصفه سيد الكون المطلق، كما لا يُنظر إليه بوصفه شيئاً تافهاً لا قيمة له. فهو ليس مركز الوجود الذي خلقت الأشياء كلها لأجله، لكنه أيضاً ليس ذرة غبار ضائعة بلا معنى. إنه أحد تجليات روح الحياة، وأحد أشكال ظهورها، وحلقة من حلقات تطورها الطويل.

ومن هذه الزاوية يمكن القول إن الإنسان ليس منفصلاً عن الكون، بل هو جزء منه ومتصل بأصله. وهو في الوقت نفسه إحدى الصور التي أصبح بها الوجود قادراً على التأمل في ذاته، وإحدى المرايا التي انعكس فيها سؤال الأصل والمصير والمعنى. ولذلك فإن قيمة الإنسان لا تأتي من حجمه، بل من وعيه، ولا من موقعه في الكون، بل من كونه جزءاً من ذلك الوجود الذي أصبح، من خلاله، قادراً على أن يسأل عن نفسه.

الإنسان والمعنى والالتقاء

ومع كل ما تقدم، فإن الإنسان ليس كائناً يعيش بالمعرفة المجردة وحدها؛ فالإنسان يحتاج إلى المعنى، ويحتاج إلى الشعور بالانتماء، والمحبة، والصدقة، والتعاون، كما يحتاج إلى مجتمع يشعر داخله بأنه جزء من شيء أكبر من ذاته الفردية.

غير أن هذا الاحتياج الإنساني المشروع لا يعني بالضرورة أن يسلم عقله إلى سلطة دينية أو مؤسسة تدّعي امتلاك الحقيقة النهائية؛ فالانتماء لا يشترط الخضوع، والمعنى لا يشترط الطاعة العمياء، والمحبة لا تحتاج إلى وصاية.

يمكن للإنسان أن يعيش حياة ذات معنى، وأن يشعر بالانتماء إلى الوجود وإلى الإنسانية والمجتمع الذي يحيط به، دون أن يتخلى عن حقه في التفكير الحر.

فالإنسان بطبيعته كائن اجتماعي، لا يكفي بالعيش منفرداً. إنه يبحث عن يشاركه الأفكار والمشاعر والأهداف والقيم. ولهذا نشأت عبر التاريخ الأسر والقبائل والمجتمعات والمدارس الفكرية والأديان والفلسفات. وليس في ذلك ما يعيب الإنسان، لأن حاجته إلى الانتماء جزء من تكوينه النفسي والاجتماعي.

غير أن الانتماء الصحي لا يقوم على إلغاء العقل أو إنحاد السؤال، بل على المشاركة الحرة والاحترام المتبادل والسعي المشترك نحو الفهم والحياة الأفضل. ومن هنا يمكن للناس أن يجتمعوا على المعرفة والمحبة والتعاون، دون أن يتحول هذا الاجتماع إلى سلطة تعلو على العقل أو إلى مؤسسة تدّعي امتلاك الحقيقة المطلقة.

إظهار الامتنان

يتجلى الوجود بأسره كطاقة مترابطة تنبض بروح الحياة؛ وإظهار الامتنان لها هو في جوهره امتنان لأمننا الكونية الأولى التي انبثقت منها كل موجود. فالامتنان بهذا المعنى يتجاوز حدود اللفظ العابر، ليصبح وعياً عميقاً بأن حياتنا تستند إلى شبكة هائلة من

العلاقات والتأثيرات المتبادلة. نحن لسنا جزءاً معزولة في محيط الوجود، بل خيوط حية تتشابك في نسيج كوني واحد.

وإذا كان الإنسان يدرك بعقله ووجدانه فضل أبيه عليه، ويشعر بالامتنان لمعلبيه ومربيه وكل من أسهم في تكوينه ورعايته، فإن هذا الشعور يتسع في رؤية روح الحياة ليشمل الأصل الكوني الذي انبثقت منه الموجودات كلها.

فكما يشكر الإنسان أمه وأباه لأنهما كانا سبباً في نشأته وتربيته، كذلك يشعر بالامتنان لروح الحياة التي ظهرت بها الموجودات جميعاً، والتي انبثقت من خلالها مسيرة الوجود بما فيها من حياة ووعي ومحبة ورعاية وعطاء.

فالأم التي حملت طفلها وربته وأحاطته بعاطفتها، والأب الذي بذل جهده في حمايته ورعايته، ليسا منفصلين عن هذا النهر العظيم من الحياة، بل هما من مظاهره وتجلياته. ومن خلالهما ظهرت تلك المشاعر العظيمة من المحبة والحنان والرعاية التي استمرت بها الحياة وتطورت عبر أجيال لا حصر لها.

ومن هنا لا يقتصر الامتنان على الإنسان وحده، بل يمتد إلى الوجود كله. فالشجرة التي تمنح الظل والثمر والهواء، والماء الذي تقوم عليه الحياة، والحيوان الذي يشارك الإنسان رحلته على هذه الأرض، بل وحتى العناصر التي قامت عليها الحضارات الإنسانية، كلها تسهم بدرجات مختلفة في شبكة العطاء الكوني التي تجعل استمرار الحياة ممكناً.

ولهذا فإن الامتنان، في هذه الرؤية، ليس مجرد شعور عابر أو ممارسة لفظية، بل حالة من الوعي العميق بالترابط الذي يصل الإنسان بكل ما حوله. إنه إدراك بأن وجودنا لم

ينشأ في عزلة، وأن ما نملكه من حياة ومعرفة وخبرة هو ثمرة شبكة هائلة من العلاقات والعوامل والموجودات التي أسهمت بصورة مباشرة أو غير مباشرة في تكويننا واستمرارنا.

وترى روح الحياة أن الإنسان لا يعيش بمعزل عن الوجود، بل يشارك باستمرار في شبكة واسعة من التأثيرات المتبادلة. فكل فكرة، وكل كلمة، وكل فعل، بل وحتى كل شعور صادق من محبة أو امتنان أو كراهية أو عدا، يمثل صورة من صور الطاقة التي يرسلها الإنسان إلى العالم من حوله.

ومن هذا المنطلق أرى أنه لا شيء يضيع في الوجود دون أثر. فالخير يترك أثره، والمحبة تترك أثرها، والامتنان يترك أثره، كما يترك الأذى والكراهية والعدوان آثارهم أيضاً. وكل ما يصدر عن الإنسان يدخل في شبكة التفاعلات الوجودية ويعود ليؤثر فيه وفي العالم الذي يحيط به بصورة من الصور.

ولهذا فإن الإنسان حين يختار الخير والمحبة والامتنان والسلام لا يغير العالم من حوله فحسب، بل يغير نفسه أيضاً، ويصبح أكثر انسجاماً مع روح الحياة ومسارها. فإن كان ما يرسله خيراً عاد أثره خيراً، وإن كان شراً عاد أثره شراً، لأن الوجود شبكة مترابطة من التأثيرات لا تنفصل أجزاؤها بعضها عن بعض.

ولهذا فإن نشر الخير والجمال والمحبة والامتنان ليس مجرد واجب أخلاقي، بل هو انسجام مع روح الحياة نفسها؛ لأن الإنسان حين يمنح الحياة أفضل ما فيه، يصبح أكثر انسجاماً مع ذلك الوجود العظيم الذي انبثق منه، وأكثر قدرة على اكتشاف المعنى الكامن في رحلته داخله.

الكون بدن واحد ونحن خلاياه

إذا نظرنا إلى الكون بوصفه كياناً مترابطاً ومتفاعلاً، أمكننا أن ننظر إلى الإنسان بوصفه خلية من خلايا هذا البدن الكوني الكبير.

فالخلية الحية السليمة تؤدي وظيفتها، وتتعاون مع ما يحيط بها، وتسهم في بقاء الجسد ونموه وتوازنه. أما الخلية الفاسدة فإنها تخرج عن النظام الذي تنتمي إليه، وتبدأ في الإضرار بما حولها، حتى تصبح شبيهة بالخلية السرطانية التي تفسد الأنسجة وتستنزف الجسد الذي تعيش فيه.

وهكذا يكون الإنسان في علاقته بالوجود.

فإذا كان صالحاً في ذاته، نافعاً لمن حوله، متوازناً في سلوكه وأفعاله، كان أشبه بخلية سليمة تضيف إلى الحياة قوة وانسجاماً. أما إذا كان ظالماً أو مفسداً أو مدمراً، فإنه يتحول إلى عنصر اضطراب داخل النسيج الذي ينتمي إليه، ويصبح شبيهاً بالخلية التي تعمل ضد سلامة الجسد الكلي.

ومن هنا فإن الأخلاق ليست مجرد أوامر مفروضة على الإنسان من خارج وجوده، وليست مجموعة تعليمات اعتبارية أُعطيت له بلا سبب. بل هي جزء من طبيعة موقعه داخل الكل، وجزء من العلاقة التي تربطه بالوجود الذي نشأ فيه.

فالخير، في أحد معانيه العميقة، هو انسجام مع المسار.

والشر هو خروج عن التوازن وإفساد لهذا الانسجام.

ولهذا لا يحتاج الإنسان بالضرورة إلى تصور الثواب والعقاب بالصورة التقليدية كي يفهم نتائج أفعاله. فأفعاله نفسها تدخل في النسيج الذي يحيط به، وتصبح جزءاً من المسار الذي يسلكه، وتنتج آثارها وفق طبيعتها.

إن كل فعل يترك أثراً.

وكل أثر يدخل في شبكة الوجود.

وكل مسار سيقود إلى نتائج تنسجم مع طبيعته.

وفي هذه الرؤية لا ينتقل الإنسان من الوجود إلى العدم المطلق، بل يدخل في مسارات أخرى من التحول والتغير. فالطاقة لا تَفنى³⁸، وإنما تتغير صورها، وتنتقل من حالة إلى حالة، ومن شكل إلى شكل.

ولهذا لا أرى أن السؤال الأهم هو: ماذا سأصبح بعد الموت؟

بل أرى أن السؤال الأهم هو:

كيف أكون الآن؟

هل أعيش بحكمة؟

هل أعيش بسلام مع نفسي ومع الآخرين؟

³⁸ **قانون حفظ الطاقة (الديناميكا الحرارية):** مبدأ فيزيائي أساسي ينص على أن الطاقة لا تُفنى ولا تُستحدث من العدم، بل تتحول من صورة إلى أخرى. وتأتي استعارة هذا المبدأ تأكيداً على أنه في هذه الرؤية لا ينتقل الإنسان من الوجود إلى العدم المطلق، بل يدخل في مسارات أخرى من التحول والتغير، فالطاقة لا تَفنى، وإنما تتغير صورها، وتنتقل من حالة إلى حالة، ومن شكل إلى شكل ضمن نسيج الوجود الكلي.

هل أضيف إلى الحياة خيراً أم أضيف إليها فساداً؟

فهذا هو السؤال الذي لا بد أن يسأل، والذي هو أليق بالحياة من الانشغال الدائم بـصور الغيب التي لا يملك الإنسان يقيناً كاملاً بشأنها.

القيم الأخلاقية في روح الحياة

إذا كانت روح الحياة هي الأصل الذي انبثقت منه الموجودات، وإذا كان الإنسان جزءاً من هذا الوجود لا كياناً منفصلاً عنه، فإن الأخلاق لا تكون أوامر مفروضة من خارج الإنسان، بل تنشأ من طبيعة علاقته بنفسه وبالآخرين وبالعالم الذي ينتمي إليه.

فالخير، في رؤية روح الحياة، هو كل ما يحقق الانسجام والبناء والتعاون ويخفف الألم ويعزز ازدهار الحياة. أما الشر فهو كل ما يؤدي إلى الإفساد والاعتداء والتمزيق وإلحاق الأذى بالموجودات. ولهذا فإن الأخلاق ليست شيئاً منفصلاً عن الحياة، بل هي جزء من طبيعتها، لأنها تنظم علاقة الإنسان بنفسه وبمن حوله.

ولا تنبع المسؤولية الأخلاقية من الخوف، بل من الوعي. فالإنسان كلما ازداد فهماً لنفسه وللوجود ازداد إدراكاً لنتائج أفعاله، وأصبح أكثر قدرة على اختيار ما يخدم الحياة ويحقق الخير. فالإنسان يصنع نفسه من خلال أفعاله كما يصنع مسار حياته من خلال اختياراته.

وفي رؤية روح الحياة لا يوجد شعب مختار، ولا جماعة مقدسة، ولا طائفة تمتلك الحقيقة وحدها. فجميع البشر ينتمون إلى الأصل نفسه، وإن اختلفت ألوانهم ولغاتهم وثقافتهم وتجاربهم. والاختلاف ليس لعنة، بل أحد مظاهر غنى الحياة وتنوعها.

ومن هنا تنشأ قيمة التسامح واحترام الآخرين. فالإنسان لا يصبح أكثر حكمة حين يكره المختلف عنه، بل حين يفهمه. ولا يصبح أكثر قوة حين يسعى إلى إلغائه، بل حين يتعلم كيف يتعايش معه ويتعاون معه رغم الاختلاف.

كما أن الصدق ليس فضيلة لأنه مأمور به فحسب، بل لأنه يقرب الإنسان من الواقع والحقيقة. والكذب ليس رذيلة لأنه منهى عنه فقط، بل لأنه يشوه علاقة الإنسان بنفسه وبالآخرين، ويغذي الأوهام والانقسامات.

والرحمة ليست مجرد التزام أخلاقي، بل تعبير عن إدراك وحدة الأصل والترابط بين الموجودات. فالذي يدرك أن الكائنات تشترك معه في رحلة الوجود يصبح أكثر ميلاً إلى الرفق وأقل ميلاً إلى القسوة. ولهذا لا ينبغي أن تقتصر الرحمة على البشر وحدهم، بل تمتد إلى الحيوان والطبيعة وكل ما يشاركنا هذه الحياة.

أما الحرية فليست انفلاتاً من المسؤولية، بل قدرة الإنسان على التفكير والاختيار وتحمل نتائج اختياراته. فالإنسان الحر ليس من يفعل ما يشاء بلا قيد، وإنما من يوجه حياته بوعي ويتحمل تبعات أفعاله بشجاعة.

ومن القيم الأساسية أيضاً قيمة البحث المستمر. فالحكيم ليس من يظن أنه امتلك الحقيقة النهائية، بل من يبقى مستعداً للتعلم والمراجعة والتأمل. وكثيراً ما أغلق اليقين المطلق أبواب المعرفة، بينما كان السؤال الصادق بداية الاكتشاف وطريق التقدم.

ولهذا فإن روح الحياة لا تدعو إلى الاستسلام للخوف أو العيش تحت سلطة الأوهام، بل تدعو الإنسان إلى بناء نفسه، وتوسيع وعيه، وتحمل مسؤوليته، والإسهام في جعل العالم أكثر عدلاً ورحمة وحكمة.

ومن هنا لا تكون الأخلاق عبئاً مفروضاً على الإنسان، بل الطريق الذي يحقق به انسجامه مع نفسه ومع الآخرين ومع روح الحياة التي ينتمي إليها.

الأخلاق بوصفها فطرة كامنة

حين أتأمل في معنى الأخلاق، أتذكر سؤالاً وُجِّه إليّ في أوائل التسعينيات، عندما كنت شاباً أدرس العلوم الدينية في الحوزة. كان أحد أصدقائي يكتب زاوية أسبوعية في مجلة عربية تصدر آنذاك في مدينة قم مخصصة لطلبة الحوزة، وكان يريد أن يجعل في تلك الزاوية الأخلاقية بدايةً ثابتة عن تعريف الأخلاق، وكان يبحث عن عبارة قصيرة يضعها في مقدمة كل موضوع.

سألني يومها: كيف تعرف الأخلاق؟

فكتبت له تعريفاً ما زلت أراه قريباً مما أوّمن به إلى يومنا هذا، وقلت:

«الأخلاق حالة باطنية تتجلى بها الصورة الظاهرية للإنسان»

وكنت أقصد بذلك أن الأخلاق لا تبدأ من الأفعال الظاهرة، بل من الأعماق. إنها تنشأ أولاً في كوامن الإنسان وطبائعه الداخلية، ثم تنعكس بعد ذلك على أقواله وسلوكه ومواقفه وطريقة تعامله مع الآخرين. فما يراه الناس من أخلاق الإنسان ليس إلا الصورة الظاهرة لما يخترنه باطنه من صفات واستعدادات ومشاعر وقيم.

ومن هذا المنطلق أرى، في رؤية روح الحياة، أن الأخلاق في أصلها الأول فطرية. فالإنسان لا يولد صفحة بيضاء خالية تماماً من كل ميل أخلاقي، بل يولد وفيه بذور كامنة لكثير من الصفات والاستعدادات. ثم تأتي الحياة بعد ذلك فتغذي بعض هذه البذور أو تضعفها، وتنبئ بعضها أو تشوهها.

فالأخلاق وليدة الفطرة، لكنها ليست وليدة الفطرة وحدها. إنها أيضاً وليدة التربية، والتجارب، والتعليم، والمحيط الاجتماعي، وما يرثه الإنسان من آبائه وأجداده، وما يمر به من ظروف وأحداث. وكل هذه العناصر تتفاعل معاً لتشكل البنية الأخلاقية التي تظهر للناس بعد ذلك في صورة إنسان كريم أو بخيل، رحيم أو قاسٍ، متسامح أو متعصب.

ومن هنا أرى أن الأخلاق أقدم من الأديان والمذاهب والنظم الفكرية التي عرفها الإنسان عبر التاريخ. فلو كانت الأخلاق وليدة الأديان وحدها، لما وجدنا الرحمة والمحبة والوفاء والتعاون عند أمم لم تعرف هذه الأديان، ولما رأينا صور التضحية والعطف والرعاية عند كثير من الحيوانات والكائنات الحية.

إن الأم التي تحمي صغيرها، والطائر الذي يخاطر بنفسه دفاعاً عن فراخه، بل والتعاطف مع غيره، والإنسان الذي يندفع لإنقاذ غريب لا يعرفه، كل هذه الصور تشير إلى أن بذور الأخلاق أعمق من الانتماءات الدينية والفكرية. فالأديان والفلسفات قد تعزز الأخلاق أو تضعفها، وقد ترتقي بها أو تشوهها، لكنها ليست المصدر الأول لوجودها. في رؤية روح الحياة، الأخلاق جزء من البنية الفطرية للحياة نفسها، وهي من المظاهر التي تكشف عن حضور الوعي في الموجودات وعن سعيها نحو الانسجام والبقاء والتعاون.

ولهذا كنت دائماً أستغرب من بعض التصورات التي تحارب كل ما هو فطري في الإنسان، وتحاول أن تصوره وكأنه شر محض.

ومن الأمثلة التي كنت أذكرها قديماً قضية الموسيقى. فقد كنت أتساءل: كيف يمكن تحريم شيء يتجاوب معه الإنسان بفطرته الأولى؟

إن الطفل الصغير، قبل أن يعرف ديناً أو مذهباً أو فلسفة، وقبل أن يتعلم مفاهيم الحلال والحرام، إذا سمع لحناً جميلاً أو إيقاعاً محبباً، فإنه يتحرك معه بصورة طبيعية وعفوية؛ يرقص أو يبتسم أو يتفاعل دون أن يطلب منه أحد ذلك أو يعلمه.

وليس الأمر مقتصرًا على الأطفال وحدهم؛ فقد أشارت تجارب عديدة إلى تأثير بعض الحيوانات بالموسيقى، كما تحدث باحثون عن تأثير الألحان الهادئة في النباتات والأشجار وبعض الكائنات الحية الأخرى.

وسواء اتفقنا مع كل هذه الدراسات أو اختلفنا في تفاصيلها، فإنها تشير إلى حقيقة أعمق، وهي أن الكائن الحي يحمل في داخله قابلية فطرية للتجاوب مع الجمال والانسجام والإيقاع.

ولهذا فإنني أرى أن كثيراً من القيم والمشاعر الإنسانية تنبع من هذه الفطرة العميقة التي أودعتها روح الحياة في الموجودات.

غير أن الفطرة ليست معصومة من التشويه: فالإنسان يولد وفيه استعداد للرحمة، لكنه قد يتعلم القسوة. ويولد وفيه قابلية للتسامح، لكنه قد يتربى على الكراهية. ويولد وفيه ميل للتعاون، لكنه قد يُدفع إلى التعصب والعدوان.

ولهذا فإن الأخلاق ليست ثابتة على حال واحدة، بل تتأثر باستمرار بما يتلقاه الإنسان من مؤثرات فكرية ونفسية واجتماعية.

وفي هذا السياق أرى أن بعض التعاليم الدينية، حين تتحول إلى منظومات مغلقة تقوم على التكفير والكراهية واحتقار المختلف، تستطيع أن تشوه الفطرة الأخلاقية للإنسان، وأن تدفعه إلى قبول أفعال كان سيرفضها لو احتكم إلى وجدانه الإنساني الأول.

فالإنسان قد يولد وهو ينفر من القتل والظلم وإيذاء الآخرين، ثم تأتي منظومة فكرية ما فتقنعه بأن قتل المخالف فضيلة، وأن اضطهاد الآخر قرينة، وأن الكراهية واجب مقدس. وهنا لا تكون المشكلة في الفطرة، بل في ما فرض عليها من أفكار شوهت مسارها الطبيعي.

ولهذا ترى رؤية روح الحياة أن الأخلاق أسبق من العقائد، وأن الوجدان الإنساني السليم أقدم من المذاهب والنظم الفكرية. فالعقيدة ينبغي أن ترتقي بالأخلاق، لا أن تهدمها، وأن توسع دائرة الرحمة، لا أن تضيقها.

كما أن الأخلاق لا تتشكل فقط من خلال التربية المباشرة، بل تتأثر بعوامل كثيرة متشابهة. فالموروثات العائلية، والبيئة الاجتماعية، والظروف الجغرافية، ونوعية الغذاء، وطبيعة الحياة التي يعيشها الإنسان، كلها تدخل بدرجات متفاوتة في تشكيل شخصية الإنسان وسلوكه.

لكننا قد نجد أحياناً أشخاصاً يولدون في بيئات مضطربة أو متخلفة، ومع ذلك يكونون أكثر تسامحاً وتقبلاً ورحمةً ممن نشأوا في بيئات أكثر استقراراً. وفي المقابل، قد نجد أشخاصاً عاشوا في بيئات متحضرة تُعلي من قيم التسامح والتعايش، لكنهم يحملون في داخلهم نزعات عدوانية أو قاسية. وما ذلك إلا لأن الموروث الجيني قد يغلب أحياناً ما يتلقاه الإنسان من تعليم وتربية، إذ لا يكون التعليم وحده كافياً دائماً لطمس بعض الاستعدادات الموروثة أو تغييرها تغييراً كاملاً.

وعليه، فالأخلاق ليست نتيجة عاملٍ واحد، بل هي حصيلة شبكة واسعة من المؤثرات المتداخلة التي تعمل في الإنسان منذ ولادته، بل وقبل ولادته أيضاً عبر ما يحمله من آثار موروثة من أجيال سابقة.

كما أن ورؤية روح الحياة لا تحصر الأخلاق في الإنسان وحده، بل ترى أن لها صوراً ودرجات مختلفة في سائر الكائنات الحية الأخرى.

فالحوانات أيضاً تتفاوت في طبائعها وسلوكها؛ فمنها ما يبدو أكثر وداعة وألفة، ومنها ما يميل إلى الشراسة والعدوان. وحتى داخل النوع الواحد نجد فروقاً واضحة بين الأفراد، فليست جميع الكلاب سواء في طباعها، ولا جميع القطط سواء في سلوكها، كما أن البشر أنفسهم ليسوا سواء في أخلاقهم وميولهم.

وهذا يدل على أن السلوك والطباع ليسا أموراً مصطنعة بالكامل، بل يرتبطان ببنية الكائن ذاته واستعداداته الداخلية وما يحمله من خصائص كامنة.

ومن هنا فإن الأخلاق، في رؤية روح الحياة، ليست قانوناً خارجياً يفرض على الموجودات، بل هي تعبير عن طبيعتها الداخلية ومستوى وعيها وتفاعلها مع الحياة. وهي تبدأ فطرة، ثم تتشكل بالتجربة، وتتأثر بالبيئة، وقد ترتقي بالحكمة والمعرفة، أو تنحرف بالجهل والتعصب.

ولهذا فإن المهمة الأخلاقية الكبرى للإنسان ليست أن يستبدل فطرته بتعاليم جامدة، بل أن يحافظ على صفاء تلك الفطرة، وأن ينمي ما فيها من رحمة وعدل ومحبة وحكمة، حتى يصبح أكثر انسجاماً مع روح الحياة التي انبثقت منها، وأكثر قدرة على منح الخير لنفسه ولمن حوله.

أثر الأخلاق الفاضلة في الإنسان ومساره الوجودي

ومن الأمور التي تستحق التأمل في حياتنا اليومية، أن الإنسان كثيراً ما يستطيع أن يقرأ شيئاً من العالم الداخلي للآخرين من خلال ملاحظتهم وطريقة حضورهم في الحياة؛ فالإنسان الطيب، المتخلق بأخلاق الرحمة والمحبة والسلام، والمتسامح مع الوجود، كثيراً ما تظهر على وجهه هالةٌ ومسحةٌ من الطمأنينة والسكينة والوداعة، وكأن في حضوره نوراً خفيفاً ينعكس عن السلام الداخلي الذي استقر في أعماقه.

وعلى النقيض من ذلك، نجد الإنسان العصبي المتصلب، الممتلئ بالغضب والعداء والقسوة وشديد الضراوة، كثيراً ما تحمل ملامحه وآثاره النفسية ما يكشف عن اضطرابه الداخلي وصراعه المستمر. فلكل إنسان سماتٌ حية تدل بدرجة ما وتشف عما يكمن في داخله من مشاعر وأفكار وطبائع.

وليس المقصود بالنور هنا نوراً مادياً تراه الأبصار بالضرورة، بل تلك الآثار والانعكاسات التي تتركها النفس في صاحبها، وتفصح عنها سماته ونظرتة وكأنه قد ختم على وجهه بجثم طاقته الشديدة الغليظة.

ومن هذا المنطلق، كثيراً ما يسألني البعض: لماذا تعتبر الأخلاق الطيبة واجبة ومطلوبة؟ ولماذا يجب علينا أن نلتزم بها ونسعى إلى المحبة والتسامح والعدل والإحسان؟ وما الذي سوف نستفيد منه من تمسكنا بالأخلاق الفاضلة؟

وأقول باختصار: إن الأخلاق الفاضلة واجبٌ عقليٌّ ولا بد أن تنسجم مع طبيعة الوجود ذاته؛ فالإنسان جزءٌ من شبكة كونية مترابطة، وخليّةٌ حية في هذا البدن الكوني العظيم

الذي أسميه روح الحياة. فإما أن يكون هذا الإنسان خلية سرطانية مؤذية تُشيع الفساد والاضطراب وتعمل على الإضرار بهذا البدن وإفساد توازنه، وإما أن يكون خلية طيبة نيرة ذات منفعة وصالح لهذا الجسد الوجودي الكبير تساهم في سلامه ونموه.

ولهذا فإن الأخلاق ليست مجرد أوامر أو نواهٍ مفروضة من الخارج، ولا قيماً اعتباطية، وإنما هي صورٌ حية من الانسجام مع روح الحياة ومسارها العام نحو البناء والتكامل.

ومن هذا المنطلق، أرى أن الإنسان الذي يصوغ نفسه على القيم الرفيعة والأدب السامي والمحبة والسلام، يكون في داخله بنية طاقوية مسالمة أكثر صفاءً واتزاناً ونورانية. وإذا حدث يوماً ما انفكاكٌ لهذه الطاقة المدركة عن الجسد المادي، فإن تلك الطاقة المتسامية قد تجذب وتندكُ بعالمٍ نوراني يشابهها، أو تلتحق بمستوى طاقتي أعظم ينسجم مع صفائها ولطفها.

وبالتالي، فإن الخلق الرفيع والتسامح ليس نافعاً للآخرين فحسب، بل هو أيضاً بناءً للإنسان نفسه، وسلوكٌ له مردودٌ طاقتيٌّ نافع ومؤثر بعد الانفكاك عن هذا العالم المادي؛ فبالرغم من أننا لا نملك معرفة يقينية بتفاصيل ما يحدث بعد الموت، ولا نعلم على وجه القطع المسار التفصيلي الذي يؤول إليه الإنسان، إلا أننا نرى أن الخير لا يضيع، وأن ما يبنيه الإنسان في داخله من سلام ونبل يترك أثره في وجوده—سواء في حياته الحاضرة، أو في المسارات التي قد تنتظره بعد انفكاكه عن بدنه ليكون أكثر انسجاماً مع روح الحياة التي انبثق منها وإليها يعود.

خلاصة الفصل السادس

يتضح من هذا الفصل أن الإنسان، في رؤية «روح الحياة»، ليس كائناً تافهاً ضائعاً في غبار الكون، كما أنه ليس مركز الوجود المطلق الذي تدور حوله جميع الأشياء. إنه أحد تجليات روح الحياة، وصورة من صور الوعي التي بلغت درجة من التعقيد جعلتها قادرة على التأمل في ذاتها والتساؤل عن أصلها ومصيرها ومعنى وجودها.

كما يتبين أن قيمة الإنسان لا تنبع من حجمه المادي، بل من وعيه وقدرته على الفهم والتفكير والإبداع وإضفاء المعنى على تجربته الحياتية. فهو ليس مجرد كتلة من المادة، بل كائن يحمل في داخله عالماً من المشاعر والأفكار والذكريات والآمال، ويتفاعل باستمرار مع ما يحيط به من موجودات ومؤثرات.

ويظهر كذلك أن الإنسان لا يعيش بالمعرفة المجردة وحدها، بل يحتاج إلى المعنى والانتماء والمحبة والتعاون. غير أن هذا الانتماء لا يستلزم التخلي عن حرية التفكير أو إغلاق باب التساؤل، بل يقوم على المشاركة الحرة والسعي المشترك نحو فهم أعمق للحياة والوجود.

ومن هذا الفهم ينشأ الامتتان بوصفه وعياً بالترابط العميق الذي يصل الإنسان بكل ما حوله. فالإنسان ليس معزولاً عن الوجود، بل هو ثمرة شبكة واسعة من العلاقات والعوامل والموجودات التي أسهمت في تكوينه واستمراره. ولذلك يصبح الخير والمحبة والتعاون والامتتان صوراً من صور الانسجام مع روح الحياة ومسارها.

كما تؤكد رؤية «روح الحياة» أن الأخلاق ليست قيوداً مفروضة على الإنسان من خارج طبيعته، بل امتداد لما أودع فيه من استعدادات فطرية نحو الرحمة والعدل والإحسان والتعاون. فالخير ليس طاعة عمياء لأوامر خارجية، بل صورة من صور الانسجام بين الإنسان والوجود الذي ينتمي إليه، كما أن الشر يمثل خلافاً في هذا الانسجام وإفساداً للعلاقات التي تقوم عليها الحياة. ومن هذا المنظور تنبع الأخلاق من الوعي والفطرة أكثر مما تنبع من الخوف أو الإكراه، وتتجلى في الرحمة والتسامح والمحبة التي تتسع لتشمل الإنسان وسائر الكائنات. كما أن القيم الفاضلة لا تقتصر آثارها على الجانب الاجتماعي فحسب، بل تسهم في بناء حالة داخلية من الصفاء والاتزان والانسجام، في حين تقود الأناثية والعدوان والظلم إلى التنافر والاضطراب وإضعاف الروابط التي تقوم عليها الحياة.

وهكذا تدعو «روح الحياة» الإنسان إلى أن يدرك قيمته دون غرور، وأن يعرف مكانه دون انتقاص، وأن يعيش منفثاً على المعرفة، متصالحاً مع الوجود، باحثاً عن المعنى، ومتمسكاً بالأخلاق، ومشاركاً في صنع عالم أكثر وعياً ومحبةً وانسجاماً.

الفصل السابع

السياسة وبناء الدولة

القيادة والمجتمع في ميزان الوعي

بعد أن طُفنا في الفصول السابقة في أرجاء الوعي الفردي، وفككنا قيود العقل الباطن، وحررنا الإنسان من أوهام الماورائيات وسجون الكهنوت، لا بد لـ"ابن النور" أن يخرج من صومعته التأملية ليتفاعل مع الواقع المادي الكثيف. فالفرد، مهما ارتقى وعيه، لا يعيش في فراغ معزول، بل هو نسيج يتشابك مع كيان طاقوي وبشري أكبر، نُطلق عليه اسم "المجتمع".

وهنا تتجلى الحاجة الماسّة إلى تجسيد مبادئ «روح الحياة» ونواميسها الكونية في نظام سياسي واجتماعي ملهوس على أرض الواقع. فإذا كان الكون يُدار بنواميس التناغم والانسجام، فكيف ينبغي أن تبدو القيادة البشرية؟ وكيف يُدار المجتمع وفق هذا الوعي الكوني المستنير، بعيداً عن شريعة الغاب؟

القائد العظيم: بين وهم البطولات واستبداد الأنا

على امتداد التاريخ البشري الملطخ بالدماء، وتحت وطأة العقل الجمعي³⁹ المبرمج على الخوف، وبتأثير مباشر من النزعات الدينية التي مجّدت ثقافة الموت، ارتبط مفهوم "القيادة العظيمة" بقعقة السيوف وصهيل الخيول في ساحات الوغى. لقد ترسخ في أذهان الشعوب أن القائد العظيم هو ذلك الذي تُقاس عظمته بعدد المعارك التي خاضها، والشعوب التي أخضعها، والمدن التي فتحها أو أحرقها من أجل أيديولوجية أو دين، ليُخلد اسمه في بطون الكتب، وتُتلى بطولاته على المنابر وفي مجالس المطبلين.

لكن حين نزن هذا الموروث في ميزان «روح الحياة» – التي هي النبع الأول للوجود – تسقط هذه المعايير الزائفة فوراً، وتُتعرّى تلك البطولات المزعومة لتبدو على حقيقتها البشعة؛ إذ ليست سوى تضخمٍ مرضيٍّ للأنا، وأنانية مفرطة غُلّقت بثياب القداسة والشرف والدفاع عن العقيدة.

إن القائد العظيم في رؤية «روح الحياة» ليس من يصنع أجداده عبر النزالات والحروب، ولا من يُسخر مقدرات أمته لصناعة آلات الدمار. فالعظمة ليست في دفع الشباب نحو محارق الموت طمعاً في بطولة، أو سعياً إلى خلودٍ موهوم في منازل الأبرار والشهداء الأخيار. والقائد الذي يُحوّل الأوطان إلى مقابر ليشتري مجداً تاريخياً زائفاً، هو في حقيقته إنسان غلبته أوهامه وأسرتة نزعة التعظيم الذاتي، فارتكب بذلك أبشع خطيئة

³⁹ العقل الجمعي: مفهوم في علم الاجتماع (صاغه إميل دوركايم) يشير إلى مجموعة المعتقدات، والأفكار، والمواقف الأخلاقية التي تشترك فيها أغلبية أفراد مجتمع ما، والتي تعمل كقوة موحدة ومحركة لسلوكهم. وفي المجتمعات المغلقة، غالباً ما يُبرمج هذا العقل بالخرافة لتسهيل السيطرة عليه.

كونية؛ إذ يُضحى بالحياة الملموسة — أقدس تجليات الوجود — من أجل وهمٍ غيبي،
جاعلاً من دماء الأبرياء وعذابات الأمهات جسراً يعبر عليه نحو نرجسيته المريضة.

إن أعظم انتصار يحققه القائد ليس هزيمة جيوش الأعداء، بل هزيمة الأنا المتضخمة في
داخله. فالقائد المستنير من يسحق كبريائه لئلا تُهان كرامة أمته، ويُضحى بمجده
الشخصي ليحيا شعبه بكرامة وعيشٍ رغيد.

لقد علمونا أن العظمة تُقاس بالتصلب في المواقف، والصلف في وجه الأعداء، ورفض
التنازل حتى لو احترق البلد بمن فيه، فقط ليُسجَل اسم الزعيم في صفحات التاريخ
بحروف من دم، ويُقال عنه إنه "البطل العظيم الذي لا يُقهر".

أما في منهج «روح الحياة»، فتختلف مقاييس العظمة اختلافاً جذرياً. فالقائد العظيم
ليس من ينتصر لكبريائه، بل من ينتصر لحياة شعبه. إنه الإنسان الذي يمتلك شجاعة
التراجع حين يكون التراجع أهون من الحرب، ويملك حكمة التنازل حين يكون التنازل
أثمن من أنانية القائد. القائد العظيم هو من لا يخشى أن يتحمل اللوم أو أن يخسر شيئاً
من مجده الشخصي إذا كان في ذلك نجاةً للناس وصوناً لأرواحهم. فهو يدرك أن قيمة
الإنسان أعلى من اعتبارات المكانة والهيبه، وأن حياة الأبرياء أثمن من أن تُقدّم قرباناً
لطموحات الزعماء وأوهام البطولات.

إن القائد المستنير هو من يجعل غايته القصوى أن ينعم شعبه بالخير والوفرة، وأن يحيا
الناس في سلامٍ ودعةٍ وطمأنينة في هذه الحياة الدنيا، لا أن يعيشوا في ملاجئ الخوف،
وتحت أزيز الطائرات، ووطأة الشعارات الرنانة التي لا تُسمن ولا تُغني من جوع.

إن القيادة في ميزان الوعي الكوني ليست زعامة تُبنى على الأنقاض، ولا سلطة تُفرض بالحديد والنار، بل هي أبوة روحية ومظلة من الحماية والرعاية. فالقائد العظيم لا يصنع الموت ليعيش اسمه، بل هو من يُميت كبريائه ليعيش شعبه.

المجتمع الواعي: دولة الخبراء وتجاوز نخ الأغلبية

في رؤية «روح الحياة»، تسقط نظرية القطيع والرعاة. الأمة ليست قطعاً يساق بعضا الترهيب، والقائد ليس "ظلاً للإله في الأرض" ولا راعياً يحكم بتفويض من السماء. بل المجتمع في حقيقته هو "جسدٌ طاقويٌّ حيٌّ"، يتنفس بوعي أفرادهِ، ويزدهر بالتناغم بين خلاياه.

إن العلاقة بين القائد والشعب في دولة أبناء النور لا تُبنى أبداً على الخوف والتبعية، ولا تُؤسس على التقديس والرهبنة والخضوع الأعمى. بل هي علاقة تُبنى على الاحترام المتبادل النابع من الوعي العميق بقدسية الإنسان. يحترم القائد شعبه حين يرى فيهم تجليات «روح الحياة» الحرة، فيصون كرامتهم، ويخدم رفاهيتهم دون منّة أو استعلاء. وفي المقابل، يحترم الشعب قائده لا بوصفه صنماً مقدساً يُعبد، أو كياناً معصوماً لا يُسأل عما يفعل، بل بوصفه إنساناً نبيلًا شجاعاً، تتحمل مسؤولية الإدارة الثقيلة، وتنازل عن راحتِه ومكاسبه الشخصية ليحمي شعبه ويزيدهم وفرة في المعيشة ويبلغ بهم منازل الأمن الأمان. هذا هو القائد العظيم في نظر روح الحياة وهذا هو "التناغم الوجودي" الفاعل الذي تدعو إليه رؤيتنا؛ تكاملٌ في الأدوار، لا سيادة واستعباد.

حكمة العقل ودستور الاختصاص

ولأن هذا الجسد المجتمعي يحتاج إلى عقلٍ يديره لا إلى سوطٍ يجلده، فإن إدارة شؤون المجتمع وتأمين رفاهيته ليست شأنًا غيبياً يُنتظر حله بالمعجزات، ولا هي خطابات وعظية بأئسة تُلقى من على المنابر لتحذير الجياع بوعود الآخرة. الإدارة هي علمٌ ماديٌّ دقيق، وهندسةٌ حقيقية للواقع، وفنٌ من أرق فنون توجيه الطاقات البشرية. لذلك، فإن رؤية «روح الحياة» تقتضي أن تُدار دفعة المجتمع عبر مؤسسات صارمة يطلق عليها "دولة الخبراء والمختصين".

يجب أن تُدار مفاصل الدولة عبر مؤسسات متخصصة، يرأسها أناسٌ من ذوي الكفاءة العالية والاختصاص الدقيق؛ فيوضع كلٌ خبير في مجاله الطبيعي، ولا يُوسد الأمر لغير أهله إرضاءً لولاءاتٍ عمياء.

وهؤلاء الخبراء النخبويون — من علماء الاجتماع، وخبراء الاقتصاد، وفلاسفة القانون، وعباقة الإدارة — هم الذين يُنَاط بهم كتابة "دستور البلاد". وهذا الدستور لن يستمد نصوصه من نصوص موروثه غابرة كُتبت لزمانٍ اندثر وللمجتمعات بادت أو قهرت، بل يُبنى حصراً على أسس العلم الحديث، ومواثيق حقوق الإنسان، ومقتضيات تأمين الرفاهية، ليكون هذا الدستور المكتوب بمداد العقل هو "العقد الاجتماعي" المقدس والذي يجب احترامه، ويكون هو الحاكم على الجميع، فلا يتجاوزهُ قائد، ولا تلتف عليه فئة.

الحياة المدنية والفرد الحر

وفي ظل خيمة هذا الدستور الواعي، يجب أن تتنفس الأمة هواء "الحياة المدنية" الخالصة، بعيداً عن أي وصاية دينية أو كهنوتية. مجتمع «روح الحياة» هو مجتمع التفاهم والتناغم والرحابة، مجتمع يتقبل الآخر ولا يقصيه لمجرد اختلافه في الفكر أو المعتقد.

إن الفرد في هذا المجتمع يجب أن يُربى ليكون إنساناً حراً، مستنير الواعي، ومشاركاً تفاعلياً في بناء وطنه. والأهم من ذلك كله، أن يكون هذا الفرد مؤمناً إيماناً مطلقاً بحرية الآخرين؛ لأن وعيه يدرك تماماً أن حريته الشخصية تنتهي فوراً حيث تبدأ حرية غيره، وأن التنوع الفكري والثقافي ليس تهديداً للوجود كما يظن المنغلقون، بل هو سيمفونية رائعة وإثراء حقيقي لتجليات الوجود.

تجاوز نخ "الديمقراطية العددية"

وهنا، يجب أن نقف بوعي صارم ونظرة نقدية ثابتة أمام مصطلح براق طالما خُذع به الكثيرون. فنحن في الرؤية الكونية لأبناء النور لا يمكن أن نكتفي بالقول الساذج والترديد الأعمى لشعار "نحن نريد ديمقراطية" وكأنه الحل السحري لكل عللنا. إن "الديمقراطية العددية" المفتقرة إلى الوعي هي نخ مميت وخطرٌ جسيم! فكثيراً ما تكون الديمقراطية — في المجتمعات المثقلة بالهلوسات الجمعية، والموروثات العقائدية، والانقسامات المتجذرة — أداة طيعة وسلماً لاختيار حاكمٍ دكتاتوري قمعي عبر صناديق

الاقتراع نفسها! وكثيراً ما تؤدي سيطرة (الأغلبية المغيبة) إلى صياغة دستورٍ مجحف يضر بالأقليات، ويصادر حقوق الباقين، ويخنق الحريات، وكل ذلك يُبرر زوراً باسم "خيار الشعب" وإرادة الجماهير. إن الديمقراطية التي تُنتج طغيان الأغلبية وتسلب حقوق المخالفين ليست حلاً، بل هي "استبدادٌ مقنّع" وشرٌ مستطير. لذلك، فإن رؤية «روح الحياة» لا تعول أبداً على (الكثرة العددية) الغافلة التي تُحركها العواطف والغرائز الطائفية، بل تعول بالدرجة الأساس على (المنظومة الدستورية الواعية) التي يضعها الخبراء والمختصون. إنها منظومةٌ قانونية صارمة، تحمي الفرد من طغيان الجماعة، وتضمن الحريات الأساسية للجميع كحقوق فطرية غير قابلة للمساس، بحيث لا يمكن لأي "أغلبية" — مهما بلغت كثرتها — أن تُصوّت على سلب حقوق الآخرين، أو تهيمشهم، أو إيدائهم. إن المجتمع الواعي حقاً، هو ذلك الذي تحكمه المؤسسات الراسخة، ويحميه وعي الخبراء، وتظله حياة مدنية تقيّد اندفاعات الغوغائيين مغبي العقل وانفلاتاتهم، وتضمن أن تكون بوصلة المسار المجتمعي موجهة دائماً وأبداً نحو النور، والرفاهية، والسلام المشترك.

إن دولة الخبراء التي نُطالب بها في «روح الحياة» لا تقف مسؤولياتها عند حدود تأمين الخبز وتعبيد الطرقات فحسب، بل تتجاوز ذلك إلى مسؤولية أسمى وهي: "حماية العقل الجمعي". فكما تتدخل الدولة بحزم لمنع بيع الأطعمة الفاسدة التي تلحق الضرر بالأجساد، يجب أن تمتلك الحزم نفسه لمنع بثّ الأفكار المسمومة التي تُفسد العقول وتشوّه الوعي. إن حرية التعبير في مجتمع الوعي لا تعني أبداً فتح المنابر للمشعوذين، وتجار الماورائيات، والخطباء الذين يبثون الرعب والترهيب الديني في نفوس الناس. فتخويف المجتمع

باليكانات الغيبية، أو إخضاعه عبر التهديد المستمر بالعذاب والعقاب الأبدي، ليس حرية رأي ولا ممارسة فكرية بريئة، بل هو اعتداء على العقل الإنساني والنفس البشرية.

فمثل هذا الخطاب الكهنوتي لا يكتفي بإنتاج الخوف والقلق والاضطرابات النفسية وما يرافقها من آثار جسدية، بل يُضعف ملكة التفكير الحر، ويغذي الجهل والخرافة، ويزرع بذور الانقسام والتناحر بين أبناء المجتمع الواحد. وحين يُبنى الوعي على الطائفية والكراهية والارتياب المتبادل، تتراجع قيم التعاون والتعايش، ويتحول الإنسان من شريك في بناء المجتمع إلى خصم لمن يختلف معه في الاعتقاد أو الهوية.

ولهذا فإن هذا الخطاب لا يعيق نمو الفرد فحسب، بل يعرقل أيضاً تطور المجتمع بأسره، ويقوض أسس الاستقرار والانسجام التي تقوم عليها الحياة المدنية السليمة.

لذلك، فإن دستور دولة أبناء النور ينص صراحةً على حماية الأمن النفسي والذهني للمجتمع؛ فلا يُسمح لأيّ جهة، مهما ارتدت من أثواب القداسة أو ادّعت امتلاك الحقيقة المطلقة، أن تتلاعب بالعقل الباطن للطفل أو الشاب، أو أن تستثمر مخاوف الناس لصناعة أتباع ينقادون لها دون وعي. فالمجتمع الذي يُسمح فيه بتسميم العقول، واستغلال الهواجس الإنسانية، ونشر الخوف باسم المقدسات، لن يحصد في نهاية المطاف إلا نفوساً منهكة، وعقولاً مقيدة، وأفراداً عاجزين عن الإبداع والمشاركة الحرة في بناء مستقبلهم.

البديل الواقعي: "المستبد الحكيم" وضرورة المرحلة

وهنا، وفي خضم تنظيرنا لدولة الوعي، قد يعترضنا تساؤلٌ واقعيٌّ مُلحٌّ ومُرين: ماذا لو تعذّر تحقيق هذا المجتمع المثالي الوعي الذي نصبو إليه؟ ماذا لو كانت الأمة غارقة في سباتها العميق، عاجزة تماماً عن تفويض الخبراء، ومُسيّرةً بقطعان من المغييين معرفياً وفكرياً؟ فإلى ماذا نطمح في ظل هذا الخراب الشامل؟

إننا ندرك تماماً أنه في مجتمعاتنا التي أثقلتها قرونٌ طويلة من التجهيل والتخدير الممنهج، لا يمكن الركون أبداً إلى "أصوات الجماهير" أو الاحتكام بسذاجة إلى "صناديق الاقتراع". فالشعوب التي سلبت إرادتها الحرة، وعُطّلت عقولها بالخرافة، وتلفت مساراتها العصبية بالخوف من الماورائيات؛ متى ما مُنحت "حرية الاختيار" في ظل غياب الوعي، فإنها لن تُنتج سوى جلاديتها! لن تُفرز هذه الصناديق سوى قياداتٍ دينيةٍ مختلةٍ ذهنيّاً، أو زعامات طائفية دموية، أو عصابات فساد سياسي منظمة.

وفي هكذا بيئة موبوءة، يُصبح صنّاع القرار الحقيقيون هم "تجار الدين" والساسة الفاسدون، الذين يأكلون الأخضر واليابس، ويسرقون مقدرات الأجيال باسم "الله" تارة، وباسم "الوطن" والمقدسات تارة أخرى، ليضحكوا في غرفهم المغلقة على ذقون المغفلين الذين يتبعونهم كالقطيع المساق إلى حتفه.

لذلك، وفي غياب الوعي المجتمعي القادر على حماية نفسه وتشكيل دولته المدنية، فإن طموحنا المرحلي، والبديل الواقعي لإرساء أسس الحياة المدنية وإنقاذ ما يمكن إنقاذه، يتجسد في ظهور: "القائد الدكتاتور المستنير، العادل والحكيم"⁴⁰.

وحين نستخدم مصطلح "دكتاتور" أو "مستبد" هنا، فإننا لا نعني بأي حال من الأحوال ذلك الطاغية الدموي المعتوه الذي يضطهد شعبه، أو يسلب الفقراء قوت يومهم، أو يزوج بالأبرياء وأصحاب الفكر في زنازين السجون. بل نقصد به ذلك الحاكم القوي، الصارم، الذي يتفرد بالسلطة لغاية نبيلة ومرحلة استثنائية؛ حاكمٌ يمتلك من الشجاعة ما يكفي ليلغي "مهرلة الانتخابات الصورية" التي لا تفعل شيئاً سوى إعادة تدوير الفساد. حاكمٌ يصادر بشجاعة "مساحات الحرية المزعومة" التي لا يستغلها سوى "الرؤوس الكبيرة" والذئاب الشريرة لتدمير البلد، ونهب خيراته، وتخدير العقول باسم الدين.

نحن نطمح إلى "مستبدٍ حكيم" يضرب بعضاً من حديد رؤوس المفسدين، ويُحجّم سطوة رجال الدين ومؤسسات الكهنوت بقوة السلطان وجبروت القانون. إنه مستبدٌ لا يؤدي شعبه المنكوب، بل يؤدي أولئك الذين "افترسوا" شعبه! يفعل ذلك لكي ينعم الفقراء، والمساكين، والمغيبون، والمحتاجون بحياة كريمة، وأمن حقيقي ملموس، ورفاهية اقتصادية لم يذوقوها في ظل فوضى الديمقراطية الزائفة.

إن هذا القائد الحكيم يدرك تماماً، ويطبق بحزم، ما نؤكد عليه دائماً في أدبيات «روح الحياة»، وهو أن: "الشیطان الأكبر.. هو ذلك الذي يأتي بلباس الدين، ليحكم الناس

⁴⁰ القائد الدكتاتور الحكيم: المقصود به هنا هو الحاكم المطلق الذي يستخدم سلطته غير المقيدة لفرض إصلاحات عقلانية وقانونية تخدم رفاهية الشعب، وتكسر شوكة المتنفيين ورجال الكهنوت، ممهداً الطريق لجمع مدني حديث.

بسيف الشريعة". فهذا الشيطان المتدثر بعباءة القداسة لا يسعى يوماً لهداية الناس أو الارتقاء بأرواحهم، بل يسعى حصراً لاستعباد البشر، والسيطرة على ثرواتهم، وحكم رقابهم باسم سماء صامتة لا تنطق إلا بلسانه، وباسم إله جعله واجهةً لمطامعه.

لذلك، فإن عجزنا عن إرساء "دولة الخبراء والمؤسسات" بالخيار الطوعي والوعي الجمعي، يجعل من تولي هذا "المستبد الحكيم" لزمام الأمور ضرورةً تاريخية لا غنى عنها. إنه يمثل "التدخل الجراحي العنيف" والدواء المر الذي لا بد منه لتنظيف الجسد المجتمعي من الطفيليات الكهنوتية والسياسية التي امتصت دماءه. إنه القوة القاهرة التي تؤسس —بصرامة— بنية تحتية مدنية وعلمانية قوية، تُعبّد الطريق وتُطهر الأرض للأجيال القادمة، لكي تنهض يوماً من سباتها، وتتنفس هواء الوعي والحرية الحقيقية، في مجتمع يليق بـ أبناء النور. وكما قيل في القدم: "آخر العلاج الكي".

استعادة التوازن: تحرير المرأة من أسر الكهنوت

ولا يمكن أن يكتمل بناء هذا المجتمع الواعي والمتناغم دون الإشارة إلى أحد أخطر التصدعات التي أصابت الجسد البشري بسبب الموروثات العقائدية، ألا وهو "قع المرأة". لقد قامت معظم التفسيرات الدينية التاريخية على تضخيم النزعة الذكورية، فشكّلت مجتمعات قاسية، عنيفة، تحتفي بالبطش وتستعرض القوة، وتنظر إلى المرأة على أنها "عورة" يجب طمسها، أو "كائن ناقص" يجب إخضاعه. إن هذا الإقصاء لم يكن مجرد ظلم اجتماعي، بل كان خلاً طاقياً ووجودياً جسيماً ضرب التوازن الذي فُطرت عليه

«روح الحياة». فالأنوثة في ميزان الوجود ليست مجرد تركيب بيولوجي، بل هي طاقة الحنان، والاحتواء، والسكون، والجمال الذي يُعادل طاقة الاندفاع الذكوري ويهذبها. وحين يُغيب المجتمع طاقة الأنوثة تحت وطأة الكبت والترهيب والمحرمات، فإنه يتحول إلى مجتمع أعرج، يعاني من الجفاف الروحي، والتوتر الدائم، والاندفاع نحو العنف والتدمير. إن تحرير المرأة في دولة الخبراء وأبناء النور ليس منّة قانونية، ولا استعراضاً مدنياً، بل هو "ضرورة كونية" لاستعادة التناغم. لا بد للمرأة أن تستعيد مساراتها الفطرية الحرة في القيادة، والعمل، والإبداع، بلا شعور دائم بالإثم أو الخوف من الماورائيات. فمتى ما تنفست المرأة هواء حريتها، وعادت طاقة الأنوثة لتأخذ حجمها الطبيعي في الجسد المجتمعي، تراجعت آثار الكبت والخوف والتهميش، واستعاد المجتمع شيئاً من توازنه النفسي والروحي والإنساني المفقود.

الطفل: البذرة الأولى للمجتمع الواعي

إن بناء المجتمع لا يبدأ من البرلمان ولا من القصور الحكومية، بل يبدأ من الطفل. فكل مجتمع إنما يحصد في الكبر ما زرعه في عقول أطفاله في الصغر. ولهذا فإن رؤية «روح الحياة» تنظر إلى التعليم بوصفه أهم استثمار يمكن أن تقوم به أي أمة، لأنه ليس مجرد نقل للمعلومات، بل صناعة للإنسان نفسه.

فالطفل لا يولد محملاً بعقد الخوف والكراهية والتمييز، وإنما يولد على قدر كبير من العفوية والتلقائية والانفتاح على العالم. وحين نراقب الأطفال في سنواتهم الأولى

نجد أنهم يتعاملون مع بعضهم بصورة طبيعية لا تعرف كثيراً من الحواجز التي يصنعها الكبار لاحقاً. لكن المجتمعات المنغلقة تبدأ مبكراً بزرع الجدران النفسية في أذهانهم؛ فتملاً وعيهم بالمحرمات والمخاوف والشكوك، وتدفعهم إلى النظر إلى الآخر بوصفه تهديداً بدلاً من النظر إليه بوصفه شريكاً في الوجود.

ومن هنا ترى «روح الحياة» أن البيئة التعليمية الصحية هي البيئة التي تسمح للأطفال بالنمو الطبيعي، والتفاعل الإنساني السليم، واكتشاف العالم دون خوف مرضي أو شعور دائم بالذنب. فالمبالغة في القمع والتخويف لا تصنع إنساناً أخلاقياً، بل تصنع إنساناً مرتبكاً وممزقاً بين فطرته وما زرع فيه من مخاوف. كما أن الأخلاق في جوهرها لا تُبنى فقط عبر الأوامر والنواهي، بل تنمو من خلال التعاطف والتجربة والوعي بالآخر. فالطفل يتعلم الرحمة حين يمارسها، ويتعلم التعاون حين يعيشه، ويتعلم الاحترام حين يُعامل باحترام. ولذلك فإن التربية القائمة على الفهم والحوار والقدوة أكثر رسوخاً من التربية القائمة على التخويف والعقاب المستمر.

إن مهمة المجتمع ليست أن يملأ عقل الطفل بكل الإجابات الجاهزة، بل أن يمنحه الأدوات التي تمكنه من البحث والفهم والتفكير. فالإنسان الحر لا يُصنع بالحفظ والتلقين، وإنما يُصنع حين يتعلم كيف يسأل وكيف يفكر وكيف يراجع ما يقال له دون خوف.

ولهذا لا تضع «روح الحياة» نموذجاً تعليمياً مغلقاً أو مناهج تفصيلية ثابتة لكل زمان ومكان، لأن هذه المهمة تبقى من اختصاص علماء التربية والاجتماع

والنفس والخبراء القادرين على دراسة حاجات كل مجتمع وظروفه. لكنها تؤكد مبدأً أساسياً لا غنى عنه: أن بناء الإنسان الحر الواعي هو الأساس الذي تُبنى عليه الدولة الواعية، وأن إصلاح المجتمع يبدأ من الطفولة قبل أن يبدأ من السياسة.

إن المجتمع في رؤية «روح الحياة» ليس قطعياً يُطلب منه أن يفكر بطريقة واحدة، ولا جماعة تُلزم أبناءها بترديد شعارات موحدة. فالتنوع الفكري ليس خطراً ينبغي القضاء عليه، بل هو علامة صحة وحيوية. إن المجتمع المستنير لا يُقاس بعدد المتفقيين فيه، ولا يقوم على منطق الكثرة العددية وحده، بل بقدرته على إيجاد التفاهم بين المختلفين، واستيعاب التنوع دون عداوة، والنقد دون قطيعة، والحوار دون خوف.

ولهذا فإن أبناء «روح الحياة» ليسوا مطالبين بأن يكونوا نسخاً متشابهة من بعضهم بعضاً. فقد يختلفون في الفلسفة والسياسة والفنون وطرائق العيش، لكنهم يلتقون عند قيم أعمق: احترام العقل، ومحبة الإنسان، ورفض الكراهية، والإيمان بحرية البحث والسؤال.

إن الغاية ليست إنشاء جماعة مغلقة تدافع عن نفسها في مواجهة العالم، بل المساهمة في بناء إنسان أكثر وعياً واتزاناً ورحمة. فكل مجتمع ينغلق على ذاته يتحول مع الزمن إلى سجن فكري يضيق بأهله ويكبّلهم بأغلال الجهل والتخلف، أما المجتمع الذي يُبقي أبوابه مفتوحة للحوار والمراجعة والتجدد، فيظل قادراً على النمو والتطور والانسجام مع حركة الحياة.

المراسم والأعياد: بين التناغم الكوني والتنظيم المدني

وفي ختام هذا الطرح، ربما سائل يسألنا هنا: هل لكم مراسم وأعياد خاصة في رؤية «روح الحياة»؟ ونقول: إن رؤية «روح الحياة» لا تفرض أعياداً مبنية على أساطير تاريخية أو أحداث غيبية، بل هي رؤية تنسجم انسجاماً تاماً مع الطبيعة والكون ودوراهما الحية.

وكما كان أجدادنا الأوائل — بفطرتهم الصافية — يمتلكون مواسم وأعياداً خاصة بهم، استلهموها لا شعورياً من قوانين الطبيعة وسنن التكوين، فإننا في هذه الرؤية نرى في ذلك التناغم الكوني مساراً أصيلاً. فقد كان القدماء يقدسون زمن "الربيع" ويعتبرونه العيد الأكبر؛ لأنه يمثل انبعاث الحياة وتجدد النور وذروة العطاء؛ مثل عيد «الأكيثو» وهو عيد رأس السنة لدى الحضارة السومرية والبابلية والأكدية، احتفاءً بـ«روح الحياة» وهي تبعث الدفء والخصوبة في الأرض بعد جمود الشتاء.

وكان لديهم موسم آخر عظيم يمثل العيد الثاني في دورتهم السنوية، وهو «عيد الحصاد» الذي عُرف في تلك الحضارات العريقة باسم عيد «زاكموك» (Zagmuk). ففي زمن الاعتدال الخريفي، وعند حلول موسم حصاد الحنطة والشعير وقطف التمر، كانوا يجمعون غلالهم ويحتفون بوفرة الأرض وما جادت به طبيعتها، استعداداً لدورة زراعية وحياتية جديدة.

واللافت للوعي في هذا الإرث البشري العميق، أن السومريين الأوائل كانوا يحتفلون بعيد «الأكيثو» مرتين في السنة: مرة في الربيع (نيسانو) احتفاءً بتجدد الطبيعة وانبثاق

الزرع، ومرة في الخريف تزامناً مع أعياد «زاكوك» لاختتام موسم الحصاد الأكبر. إن هذه الازدواجية في الاحتفاء بالاعتدالين (الربيعي والخريفي) تدعم بوضوح وجلاء مفهوم "البذرة والكُمون" الذي يبناه في فصولنا السابقة. فالخريف (زاكوك) يمثل حالة الكُمون وعودة البذرة إلى رحم الأرض لتخزن طاقاتها، والربيع (الأكيتو) يمثل حالة الانفتاح والانبعاث وظهور الوعي والزرع. هما إذن وجهان لعملة كونية واحدة، ونبضتان متكاملتان في قلب «روح الحياة».

إن ارتباط أفراحهم بهذين الموسمين لم يكن توافقاً اعتباطياً أو مصادفة عابرة، بل هو تعبير عن "توافق كوني" دقيق. فكما تندفع الأشجار والنباتات في هذه الأوقات لتتفتح وتعطي خيراتها، كذلك يندفع البدن الإنساني وتتجدد طاقاته وتتدفق حيويته؛ لأن الإنسان ليس منفصلاً عن الطبيعة، بل هو جزء حي من نسيجها، يتأثر بدوراتها وتبدل ذبذباته بتبدل فصولها.

أما ما عدا ذلك من مناسبات وأعياد وطنية أو اجتماعية تقتضيها حاجة الإنسان المعاصر، فهي ليست شأنًا دينياً يفرض بوهم التقديس، بل هي شأنٌ تنظيمي ومدني بحث. وهذا الأمر يُترك لإقراره وتحديد لـ "دولة الخبراء والمختصين"؛ أولئك الذين تعتمد عليهم الدولة الواعية في كتابة دستورها وصياغة قوانينها، بما يخدم رفاهية المجتمع ويعزز وحدته وينظم له أوقاته في مسراته. كما أننا نشارك جميع أهل الأرض أفراحهم ونحترم خصوصياتهم، إيماناً منا بالدولة المدنية التي تسنّ بخبرائها كل ما فيه صالح الإنسان وارتقاء المجتمع.

خلاصة الفصل السابع

خلاصة القول هنا: إن بناء المجتمع لا يبدأ من القوانين وحدها، ولا من الحكومات وحدها، ولا من الشعارات التي تُرفع في الساحات، بل يبدأ من الإنسان نفسه. فكل نظام سياسي ليس في النهاية سوى انعكاس لمستوى الوعي السائد في المجتمع الذي يحمله ويمنحه الاستمرار. وفي ضوء رؤية «روح الحياة»، يمكن إجمال أسس البناء المجتمعي والسياسي في ست ركائز رئيسية:

أولاً: الإنسان قبل الدولة. فإصلاح المجتمع يبدأ من الطفولة والتربية والتعليم. الطفل ليس مشروع مواطن فحسب، بل هو البذرة التي سيتشكل منها مستقبل الأمة كلها. لذلك فإن بناء العقل الحر، وتنمية القدرة على التفكير والنقد والتعاون، أهم من أي مشروع سياسي أو اقتصادي عابر.

ثانياً: سقوط بطولة الدمار وعظمة التخلي. فالقائد العظيم ليس من يورث شعبه المقابر والخراب ليخلد اسمه في كتب التاريخ، بل من يمتلك الشجاعة الكافية للتنازل عن أوهام المجد الشخصي، وكسر أناه المتضخمة، حفاظاً على حياة الناس وكرامتهم واستقرارهم.

ثالثاً: دولة الخبراء وحاكمة الدستور. فإدارة المجتمعات ليست ميداناً للارتجال أو المواظ أو الصراعات الأيديولوجية، بل هي علم يحتاج إلى المعرفة والخبرة والتخطيط. ولهذا يجب أن تقوم الدولة على مؤسسات متخصصة ودستور عادل يحفظ الحقوق ويمنع تغول الأفراد والجماعات، ويحمي "الأمن النفسي والذهني" للمجتمع من سموم الخرافة والترهيب الكهنوتي.

رابعاً: الحذر من استبداد الأغلبية وحماية الحقوق. فالأعداد الكبيرة لا تصنع الحقيقة بالضرورة، كما أن الكثرة ليست مرادفة للحكمة. والمجتمع الذي لم يبلغ مستوى كافياً من الوعي قد يستخدم الديمقراطية نفسها وسيلة لإعادة إنتاج الجهل والتعصب والفساد. لذلك لا بد من منظومة دستورية ومؤسسية تحمي حقوق الإنسان، بحيث لا تستطيع أي أغلبية أن تصدر حقوق المخالفين أو تسلبهم حرياتهم الأساسية.

خامساً: استعادة التوازن والتناغم الكوني. فلا يكتمل بناء المجتمع إلا بتحرير المرأة واستعادة "طاقة الأنوثة" ليعود للجسد المجتمعي توازنه ورحمته، وبناء حياة مدنية تحتفي بأفراح الإنسان وتتناغم مع دورات الطبيعة بعيداً عن أوهام التقديس.

سادساً: الوعي غاية كل إصلاح. فالسياسة والاقتصاد والقانون ليست أهدافاً بحد ذاتها، وإنما أدوات لخدمة الإنسان والارتقاء بحياته. وكل إصلاح لا يقود في النهاية إلى توسيع مساحة المعرفة والحرية والكرامة الإنسانية يبقى إصلاحاً ناقصاً مهما بدا ناجحاً في ظاهره.

وفي النهاية، لا ترى «روح الحياة» المجتمع ساحة صراع دائم بين الحاكم والمحكوم، ولا تنظر إلى الإنسان بوصفه مجرد رقم في آلة الدولة، بل تراه كائناً واعياً يحمل في داخله إمكانات هائلة للنمو والتطور. ولهذا فإن المجتمع الأفضل ليس المجتمع الذي يملك أقوى الجيوش أو أكبر الثروات، بل المجتمع الذي ينجح في بناء إنسان حر ومتوازن، قادر على التفكير والمحبة والتعاون؛ لأن كل حضارة تبدأ من الإنسان، وكل نهضة حقيقية تنبع منه وتعود إليه في النهاية.

الفصل الثامن

الموت ومسار الحياة المستقبلي

ما بعد الموت: انتقال طاقي، لا بعث جسدي

إن سؤال الموت من أكثر الأسئلة التي شغلت الإنسان منذ أقدم العصور، وربما كان من أعمق الأسئلة التي دفعت البشر إلى بناء الأديان والأساطير والفلسفات المختلفة. ولهذا قد يُسأل صاحب رؤية روح الحياة: هل تؤمن بالحياة بعد الموت؟

وأجد أن الجواب يحتاج أولاً إلى توضيح وتفكيك معنى السؤال نفسه؛ فعبارة «الحياة بعد الموت» تفترض في الذهن التقليدي وجود موت كامل وتوقف تام، يعقبه إحياء وبعث جسدي جديد. أما ما أراه في إطار رؤية روح الحياة فهو مختلف تماماً؛ إذ لا أتعامل مع الموت بوصفه فناً مطلقاً يعقبه خلق جديد، بل بوصفه انتقالاً وانفكاكاً من طور إلى طور آخر من أطوار الوجود.

فالإنسان ليس جسداً مادياً فحسب، بل هو بؤرة طاقوية تكثفت فيها منظومة عظمى من الإدراكات، والمشاعر، والذكريات، والوعي، والخبرة المتراكمة. وهذه العناصر كلها متجمعة في بؤرة وجودية محورية تمنح الإنسان إحساسه بذاته وهويته وشعوره بأنه «أنا» وهذه الأنا، في رؤيتنا، ليست إلا صورة من صور الطاقة الحية.

وعندما يتوقف الجسد المادي عن أداء وظائفه الحيوية وينفصل عن محركه الحيوي، فإنه يتفكك ويندمج في مساراته الأرضية؛ فيتحول إلى تراب وعناصر طبيعية تندمج مع التربة والديدان والموجودات الأخرى لتكتمل الدورة الكونية الكبرى. أما الطاقة الحية وبؤرة الوعي التي كانت تمنح الإنسان شعوره بذاته، فالقانون الكوني يخبرنا أنها لا تزول، ولا تحول، ولا تفتنى، ولا تتفكك إلى عدم؛ بل تنتقل إلى مسارات أخرى لا نعرف تفاصيلها.

إن هذه الطاقة المدركة، بمجرد انفكاكها عن الجسد، ربما تندمج وتلتحق بطاقات ومسارات تناسبها، أو تندكُ بمعناها الأول وأصلها الأعظم؛ بشجرة الحياة وأما الكونية، وقد تلتقي هناك بأقربائها وما يناسب جوهرها.

وهذا الانتقال الطاقوي أقول به من باب «الإمكان العقلي الوجودي»⁴¹؛ فلا أملك دليلاً يفرض الوجوب العقلي القاطع الذي يجبر العقل على الإقرار بجماعته، كما لا أملك دليلاً يثبت الاستحالة العقلية التي تجبره على نفيه. فهو ليس واجباً عقلياً يتوجب وقوعه بالضرورة، ولا مستحيلاً عقلاً يمتنع حدوثه، بل هو احتمال ومسار ممكن مقدور لا تُحيله العقول.

ومن هذا المنطلق، لا أرى أن ما يحدث بعد انفصال الوعي عن الجسد هو «بعث جسدي» بالمعنى التقليدي الذي تتحدث عنه الأديان، بل هو استمرار الوجود في صورة

⁴¹الإمكان العقلي (Logical Possibility): مفهوم محوري في علم المنطق والفلسفة، يُقصد به كل ما لا ينطوي فرض وجوده أو عدمه على تناقض منطقي؛ فهو ما لا يرفض العقل إمكانية تحققه في الواقع، وبذلك يقف وسيطاً بين المستحيل العقلي (المتنع لذاته) والواجب العقلي (الذي لا يمكن تصور عدمه).

أخرى؛ فالطاقة الحاضنة للمشاعر والإدراك لم تمت ذهنياً ولا طاقوياً ثم أُحييت من جديد، وإنما انفكت عن غلافها الجسدي المادي وانتقلت إلى مسارات وجودية أخرى.

وفي رؤية روح الحياة، ينبغي الاعتراف الشجاع بحدود المعرفة الإنسانية في هذا المجال؛ إذ لا يمكن لأي إنسان على وجه الأرض أن يجزم بطبيعة تلك المسارات أو يقدم فيها جواباً تفصيلياً، لأنه لم يذهب أحد إلى هناك ثم عاد ليخبرنا بحقيقة الأمر وماهيته.

إن الكثير مما يروى عن العالم الآخر يعتمد على الرؤى، والمنامات، والأحلام، وتجارب الإغماء الشديد، والاقتراب من الموت، والتصورات الدينية والمذهبية الموروثة. ولا أرى أن هذه الأمور تكفي لبناء معرفة يقينية موضوعية؛ لأن العقل الباطن للإنسان في مثل تلك الحالات الشديدة يستفحل ويثار، فيتأثر الشخص بمخزونه النفسي والثقافي والديني، ويرى صوراً تتوافق مع بيئته وما تربى عليه أكثر مما تنتمي إلى واقع موضوعي يمكن التحقق منه.

ولهذا، فإن رؤية روح الحياة لا نعتمد فيها هذه الهلوسات والرؤى، ولا تدّعي امتلاك وصف تفصيلي للعالم الآخر، ولا تزعم معرفة ما يجري بعد انفصال الوعي عن الجسد على وجه القطع واليقين. بل نكتفي بالقول إن الطاقة عندما تنفك عن الجسد تمضي في مساراتها الخاصة التي لم نطلع على تفاصيلها لنخوض فيها بادعاء المعرفة الكاملة، وأن ما نجهله في هذا المجال أكبر بكثير مما نعلمه.

لكن، وحتى لا يفهم من نفينا واعتمادنا على العقل والواقع أننا نُسقط كل الظواهر غير المادية إسقاطاً تاماً؛ ينبغي التوضيح بأننا لا ندّعي ولا نعتقد بأن كل المنامات كاذبة، أو أنها مجرد هلوسات لا مصداقية لها. بل ندرك أن هناك رؤى تنطوي على إشارات

عميقة تُفسر وفق رموزها، وهناك حالات نادرة جداً تقع فيها الرؤيا في الواقع الخارجي كما رآها صاحبها تماماً. كما أننا لا ننكر ما يعرض للإنسان من ومضات "الحدس" والإشراقات الداخلية التي تجعله يدرك بعض الأمور - من حيث يشعر أو لا يشعر - قبل وقوعها.

إن هذه الظواهر الوجدانية حقيقية، لكن المنهج الذي نتبناه في «روح الحياة» يقتضي ألا يُعَوَّل عليها تعويلاً كلياً لبناء عقائد أو ادعاء معرفة تفصيلية بالعالم الآخر، ما لم تقترن بشواهد وقرائن تصدقها في الواقع الملموس.

البراهين الذوقية والتجارب الشخصية

ومن هذا الاستثناء الدقيق، يبرز تساؤل مشروع: إذا كنا لا نعتمد على الرؤى والمنامات لوصف تفاصيل (ما بعد الموت)، فما الذي يجعلنا نرجح أصلاً أن للإنسان طاقةً واعيةً تنفصل عن الجسد وتستمر بعد فناءه؟ أليس من الممكن أن يكون الوعي مجرد تفاعلات كيميائية محبوسة داخل الدماغ، تتلاشى بتوقفه؟

الجواب يكمن في ما نختبره في حياتنا الدنيا. فنحن نستخدم هذه الإشراقات والتجارب الذوقية، لا لرسم خريطة للعالم الآخر، بل لنثبت قاطعاً أن الوعي الإنساني ليس مجرد كتلة مادية مغلقة داخل الجمجمة. فإذا أثبتت هذه التجارب أن وعينا قادرٌ على تجاوز حواجز الزمان والمكان والمادة وهو لا يزال متصلاً بالجسد الحي، صار من المنطقي جداً إدراك قدرته على البقاء والانتقال كطاقة حرة بعد فناء هذا الجسد.

ومن أبرز هذه البراهين: قدرة بعض الأشخاص على التقاط وانتقاء معلومات من الشخص المقابل بمجرد النظر إليه والتفاعل معه. وأنا شخصياً عايشة هذا الأمر والتقيت بأناس يمتلكون هذه القدرة، بل وكنت أمارس في مراحل من حياتي بعض الأعمال والتجارب التي أستطيع من خلالها معرفة بعض الأشياء بمجرد النظر إلى الشخص المقابل، والتأثير فيه تأثيراً واقعياً ومحسوساً.

وهذه التجارب وإن كانت صعبة ومعقدة ولم يخضها أو يدركها الجميع، إلا أنها واقع ملموس خاضه الكثير من أصحاب التجارب الروحية والطاوية.

والسؤال المحوري هنا: كيف للوعي أن يقتبس معلومات مستقبلية، أو يؤثر في الآخرين بمجرد الرؤية والتفاعل الذهني؟ وكيف لبعض الرؤى المنامية أن تتحقق في الواقع الخارجي بتفاصيلها الدقيقة؟

وقد مررتُ شخصياً بتجارب كانت من أكثر ما دفعني إلى التأمل في طبيعة الوعي وإمكان استمراره بعد الموت. ومن أبرز تلك التجارب ما حدث لي في أوائل تسعينات القرن الماضي، حين كنتُ في إحدى الليالي أمارس تأملاتي المعتادة، فأخذتني غفوة فرأيتُ رؤيا عجيبة:

كنتُ كأني في معسكر كبير وأنا نائم، وسمعتُ شخصين يتكلمان بجواري - لا أرى وجوههما ولكن يتحدثان معي - قال أحدهما للآخر: «إنه نائم»، فأيقظاني داخل منامي لا في الواقع المادي، وطلبا مني القدوم معهما، فسألتهما باستغراب: «إلى أين؟ وأين أنا؟»، فقالا: «أنت في معسكر في هذا الموقع، ولكم فيه نحو عشرين سنة». سألتهما بعجبٍ عما حدث، فقالا:

«إن أمريكا قد دخلت العراق مع الأحزاب الإسلامية، وكان الحزب الحاكم هو حزب الدعوة⁴²».

ثم شعرت بالجوع فأخبرتهما بذلك، فسارا بي إلى مكتب كبير كان المدير أو الحاكم فيه شخصاً ينتمي لحزب الدعوة، فقيل له: «هذا فلان الذي تعرفونه»، فأعطاني مبلغاً مالياً من الدنانير! فاستشطت غضباً وانزعجت انزعاجاً شديداً من هذا الموقف، فضغطت تلك الدنانير بيدي حتى تجعدت ورميتها في وجهه، وذكرته بمسيرتي وتضحياتي وما قت به ضد النظام البائد، وما انطبع على جسدي من إصابات وإطلاقات نارية.

ثم خرجت ومعني الشخصان اللذان لم أر وجهيهما، وأنا أنظر يميناً وشمالاً فأرى دماراً وخراباً في الأبنية والطرقات، فقلت أسفاً وحزناً وتعجباً: «ما هذا الدمار؟!»، فقالا لي: «هذا له عشرون عاماً وما زال لم ينته!». تأمل معي هذا الحدث: في عام 1994 - قبل أحداث الغزو العراقي وتغير السلطة بسنوات طويلة - تجلّت الرؤيا بتفاصيلها وتحديداتها المدهش لمدة العشرين عاماً! وحين تحققت الرؤيا حرفياً في الواقع بعد دخول أمريكا وتولي تلك الأحزاب للمشهد، كان البعض يسألني عن رأيي وتوقعي لتعافي العراق وخروجه من أزيمته، فكنت أقول لهم بثقة نابعة من تلك الرؤيا: «لا أعتقد أن الوضع العراقي سيستحسن قبل انقضاء العشرين سنة، أما بعد العشرين فلا أعلم ماذا سيكون».. وهذا ما وقع بالفعل وما شهدناه جميعاً.

⁴² حزب الدعوة الإسلامية: حزب سياسي عراقي ذو توجه إسلامي شيعي، تأسس عام 1957 لمواجهة الأفكار العلمانية والشيوعية آنذاك. شكّل الحزب الركيزة الأساسية للمعارضة الراديكالية ضد نظام الحكم في العراق طوال عقدي الثمانينيات والتسعينيات، قبل أن يتحول إلى أحد أبرز القوى الحاكمة التي تولت السلطة التنفيذية في البلاد عقب الغزو الأمريكي عام 2003.

ومرة قدم عليّ صديقٌ لي، ووجدني أقرأ في كتابٍ لتعبير المنامات، فقال لي: «ماذا تقرأ؟»، فقلتُ له: «هذا كتابٌ موسوعي لتعبير المنامات وتفسير الرؤى». وكان صديقي حينها في حدود العشرين من عمره أو دون ذلك، وكان يصغرنى سنًا. فقال لي: «لقد رأيتُ رؤيا قبل فترة؛ كأني جلستُ على منبر، فتهدّم بي المنبر وتفلّش (انهار بالكامل)». فقلتُ له مستحضرًا ما تذكره بعض التفاسير: «إن هدم المنبر في بعض التأويلات يرمز إلى موت الأم»، فتعجب جداً وقال لي بذهول: «نعم، لقد توفيت أُمِّي بعد تلك الرؤيا بأشهر»، ولم أكن أعلم حينها أن أمه متوفاة.

وهنا قد يتساءل متسائل عن سر تجسد الأشخاص والشخصيات في المنامات، وكيف رأيتُ شخصين يخاطباني في تلك الرؤيا؟

وجوابي هو: إن هذه الشخصيات ليست كائنات غيبية هبطت عليّ من المحلّ الأرفع، بل هي — كما أوضحنا سابقاً — من خلق «العقل الباطن» ونسجه، بناءً على ما يحمله الإنسان في أعماقه من مكنونات ومخزونات فكرية وعقائدية. فالمنامات في حقيقتها شاشة تعرض مكامن العقل الباطن؛ والكثير منها يكون باطلاً أو أضغاث أحلام، تفرزها حالات نفسية مضطربة، أو إرهاق جسدي، أو حتى تجمّة طعام. لكن في المقابل، هناك بعض المنامات تكون «صادقة»، تقع في الواقع على ما هي عليه بوضوح، وهذا نوع نادر جداً. وهناك نوع آخر يأتي على شكل «رموز» تحتاج إلى تفكيك وتفسير.

أما كيف تتشكل صور الشخصيات في هذه المنامات؟ فالأمر يخضع لحال الإنسان وما انطوت عليه ذاته. فالعقل الباطن يأخذ «الرمز الإدراكي» ويلبسه ثوباً من الصور المخزنة لديه مسبقاً وفق ما يعتقد. لذلك نجد أن الهندي الأحمر، على سبيل المثال، تتجسد له في

مناماته الطوطميات⁴³ وفق عقيدته؛ فيرى دُباً مقدساً يحادثه، أو ذئباً يوجهه، استناداً إلى ما تشربه من حكايات أجداده وآبائه، وما صدّقه وتخزّن فيه منذ طفولته. وهكذا تتسع مدارك الإنسان، فيخلق وعيه الباطن صورته وفق ما يميل إليه ويؤمن به.

ومثال ذلك في التراث الديني: أن الذي يحب علي بن أبي طالب سيراه في منامه بصورة بهية جميلة، بينما قد يرى الشيعة الذي يحمل موقفاً سلبياً من عمر بن الخطاب صورة غير جميلة له، في حين أن السني سيراه في أبهى وأجمل صورة. كل هذه التجليات يفرزها العقل الباطن؛ فهو "المخرج" الذي يؤطر الرموز بالصور التي تتوافق مع قنوات صاحبه. ولهذا تختلف تجسّدات المنامات ومظاهرها؛ فترى أن البوذي، والطاوي، والهندوسي، والمسلم، والمسيحي، كلٌّ منهم يرى حقائقه وأوهامه ورموزه متجسدة وفق عقيدته وما تأثر به في بيئته.

إن هنالك أموراً خفية وقوى طاغية تُفعل العقل الباطن ليرى هذه المنامات. وفي حالات نادرة وصافية جداً، يستطيع هذا العقل أن يخلق رموزاً صحيحة، تُفسر وتتحقق في الواقع الخارجي كما هي. وهذه هي الخلاصة الأعمق لكشف أسرار الرؤى المنامية وآلية عملها في الوعي البشري.

ثم إن هناك ما هو أكثر غرابة ومثاراً للتعجب؛ وهو ما حدث في أواخر ثمانينات القرن الماضي خلال مرحلة الشباب، إذ حدث أمرٌ خاص جعلني أكرر اسم امرأة معينة لسببٍ ما أو طلبٍ اقتضى ذلك. كنتُ في مكانٍ ضيق ومغلق، وأردد الاسم بصوتٍ

⁴³ الطوطمية: نظام عقائدي واجتماعي قديم، يعتقد فيه الإنسان بوجود ارتباط أو قرابة روحية بين عشيرته وبين كائن طبيعي (حيوان أو نبات) يُسمى "الطوطم"، فيُتخذ كرمز مقدس وحامٍ روحي للقبيلة.

خافت جداً لا يكاد يُسمع. وفي اليوم التالي مباشرة، جاءت تلك المرأة مرعوبةً وأخبرت والدتي بأنها سمعتني أنادي باسمها بنفس النبرة والرنين في تلك الليلة! ومع أن المكان لم يكن في مدينة أخرى بل في نفس المنطقة، إلا أن السؤال المهم هو: كيف استطاعت هذه المرأة أن تسمع هذا الصوت بوضوح، رغم اختلاف المكان وبعد المسافة؟ إننا هنا لا نتحدث عن تفسيرات خرافية، ولا ندعي بأن جنّاً أو ملائكة أو شياطين هي من تهمس وتنقل الأصوات، بل هو «ذهن البشر» حين يتصل بكوامنه ووعيه الباطني بالآخرين عن بُعد.

فالدماغ البشري ليس مجرد كتلة من المادة الصماء، بل هو جزء من شبكة وعي أوسع تتصل بالوجود من حولها، ومن خلال هذا الترابط يمكن تفسير بعض حالات التأثير والإدراك التي تتجاوز حدود الحواس التقليدية.

أي إن في الإنسان قدرات وإمكاناتٍ يحملها الدماغ والوعي، تتصل بالوجود الخارجي عبر ممراتٍ ومساراتٍ ما زالت خافيةً عنا، تكتنفها وتشابك فيها موافقاتٌ زمانية ومكانية ونفسية وذهنية. فإذا اجتمعت هذه التوافقات في لحظةٍ ما، وقع ذلك التفاعل الإيحائي أو الاتصال الذهني بين إنسان وآخر، وهذا ما يفسر أيضاً تلك الظواهر الوجدانية التي يمر بها المقربون والمحبون؛ كالأم التي ينزل على قلبها انقباضٌ مفاجئ وتغمرها حسرة، فتدرك في لحظةٍ أن ابنتها أو ابنها قد أصابه مكروهٌ في تلك اللحظة بالذات رغم تباعد المسافات. فلو لم يكن هنالك ترابطٌ طاقوي غير مرئي ينتسج بين الوعي البشري وجوهر روح الحياة، لما أمكن لهذه المخاطبات والإدراكات العابرة للمكان والزمان أن تحدث. إن هذه التجارب المباشرة من أقوى الشواهد التي دفعتني إلى الاعتقاد على أن

الإنسان ليس مجرد جسدٍ مادي فاقد للحس، بل هو بؤرةٌ واعية تسبح في فلك شبكة طاقة قوية كبرى، تؤثر وتتأثر وتستشف ما وراء الحواس المادية الصماء.

وأكرر هنا ماؤكدّه دائماً: إنني لا أفسر هذه الظواهر بالجن أو الأرواح أو الخوارق التقليدية، بل أعتقد اعتقاداً راسخاً أن الوعي الإنساني أعمق وأوسع بكثير مما نتصور، وأن بين البشر أشكالاً من الترابط والتأثير المتبادل لم نكتشف قوانينها الطبيعية كاملةً بعد. فلو كان الإدراك محصوراً حصراً في الدماغ المادي وتفاعلاته الكيميائية وحدها، لما أمكن تفسير كثيرٍ من حالات التأثير المتبادل أو انتقال بعض الانطباعات والمعلومات بطرائق تتجاوز المألوف. وإن وقوع مثل هذه الظواهر يدفعني إلى الاعتقاد بأن الوعي ليس مجرد نشاط مادي مغلق داخل حدود الجسد، بل هو بؤرةٌ واعية ذات أبعاد طاقة أرحب، قادرة على الامتداد والتواصل والتجاوز بوسائل ما زالت جوانب كثيرة منها مجهولة لنا.

الموت بين التردد واختلاف المسار

واستكمالاً لما بدأناه من حديث عن الموت، يبرز السؤال الأهم: أين تنتقل طاقاتنا الإدراكية حين تنفك عن أبدانها المادية؟

أقول: قد يكون من الممكن تصور العوالم والمسارات التي تنتقل إليها هذه الطاقة على أنها هي عين عالمنا هذا الذي نعيش فيه، ولكن في مستويات وجودية وترددات طاقة مختلفة لا تتداخل فيما بينها، رغم وجودها معاً في الحيز الزمكاني نفسه.

ولتقريب هذا المعنى إلى الأذهان، يمكن تشبيه الأمر بكابل الاتصالات الضوئي أو السلكي؛ فهذا الكابل الواحد يُبثُّ عبره، في الوقت نفسه واللحظة ذاتها، بثُّ لقنوات الراديو الصوتية، وبثُّ لقنوات التلفزيون المرئية، وبثُّ لبيانات الإنترنت الرقمية، وإشارات الاتصال الهاتفي. تتعدد أنواع البث وتختلف أنماطها، ومع ذلك تمر جميعها عبر الوسط الفيزيائي نفسه دون أن تختلط أو تتصادم أو تلغي إحداها الأخرى؛ وذلك بسبب اختلاف نطاقاتها الترددية وطبيعة شفراتها وآليات انتقالها.

وكما نرى في الفيزياء الحديثة والطيف الكهرومغناطيسي⁴⁴، فإن أعيننا البشرية لا ترى إلا شريحة ضئيلة جداً تُسمى «الضوء المرئي» (Visible Light)، بينما يحتفظ الفضاء من حولنا بموجات الراديو والميكروويف والأشعة السينية وغيرها من الموجات التي لا ندركها حواسنا بصورة مباشرة.

ولست أقدم هذا المثال بوصفه تفسيراً علمياً تفصيلياً لما يحدث بعد الموت، وإنما أطرحه على سبيل التقريب الذهني؛ لإظهار إمكانية وجود عوالم ومسارات متداخلة مكاناً، لكنها مستقلة عن بعضها بسبب اختلاف الترددات أو طبيعة الوجود ذاته. ولأن ترددات تلك العوالم ونطاقاتها قد تختلف جذرياً عن النطاق الذي تعمل ضمنه حواسنا الجسدية، فإننا لا نستطيع استشعارها أو إدراكها ما دمنا محصورين ضمن حدود هذا البدن المادي.

⁴⁴ الطيف الكهرومغناطيسي (Electromagnetic Spectrum): مصطلح فيزيائي يشمل جميع الترددات الممكنة للإشعاع (من موجات الراديو الطويلة جداً إلى أشعة غاما شديدة القصر)، ولا تُدرك العين البشرية منها سوى شريحة ضئيلة جداً تُسمى (الضوء المرئي).

وأقول أيضاً: إن الأمر قد لا يتوقف عند حدود الاختلاف في «التردد الطاقوي» ضمن الحيز الواحد، بل يمكن تصور احتمالٍ أعمق وأبعد؛ يتمثل في اختلاف «طبيعة المسار» ذاته. فإذا كان اختلاف الترددات يفسر وجود عوالم تتشارك الوسط الوجودي نفسه دون أن تتداخل (كما في مثال كابل الاتصالات)، فإن اختلاف المسار يعني انتقال الطاقة المدركة إلى بُعدٍ وجودي مغاير تماماً، لا يشترك مع عالمنا المادي في قوانينه أو طبيعة تكوينه، بل هو مسارٌ مختلف جذرياً في أصله.

فنحن في عالمنا المادي نرى أن بعض الظواهر قد تشترك في الوسط نفسه مع اختلاف خصائصها وتردداتها، بينما توجد ظواهر أخرى تختلف في طبيعة مساراتها وقوانينها اختلافاً جوهرياً. ومن هنا يمكن تصور أن الطاقة الإدراكية، حين تنفك عن البدن المادي، قد تنتقل إلى مرتبة أخرى تختلف عن عالمنا إما باختلاف التردد، أو باختلاف المسار.

وعلى هذا الأساس، قد تكون بعض العوالم متجاوزة معنا في الحيز الكوني ذاته لكنها محجوبة عنا بسبب اختلاف تردداتها، وقد تكون عوالم أخرى قائمة على مسارات وجودية مختلفة في أصل تكوينها وطبيعة قوانينها. وفي الحالتين يبقى الإنسان محكوماً بحدود أدواته الجسدية التي لا تلتقط إلا ما يناسب هذا الطور المادي الذي يعيش فيه.

فإذا كان الجسد المادي هو الأداة المناسبة لهذا المسار الأرضي، فقد يكون انفكاك الطاقة عنه انتقالاً إلى طور آخر، سواء كان ذلك عبر تغير التردد، أو عبر الانتقال إلى مسار وجودي مختلف. وحينئذٍ لا يكون الموت خروجاً من الوجود، بل تحولاً من هيئة

إلى هيئة، ومن طور إلى طور، ومن مسار إلى مسار، ضمن حركة «روح الحياة» المستمرة في تحولات الوجود ومراتبه المختلفة.

ومن هنا، فإن رؤية روح الحياة لا تتبنى فكرة «الفناء المطلق» التي تجعل الإنسان مجرد عدم يزول بلا أثر، كما لا تتبنى التصورات التقليدية للبعث الجسدي بحرفيتها وشكلها في الموروث الديني. كما أنها لا تدّعي معرفةً يقينية تفصيلية لما يحدث بعد انفكاك الجسد، لكنها ترى أن انفصال الطاقة الإدراكية عن غلافها المادي ليس إلا انتقالاً سلساً إلى طور آخر من أطوار الوجود، وانضماماً إلى مساراتٍ طاقوية أوسع، أو اندماجاً في طاقة كلية أعظم لا نملك أدوات الإحاطة بها كلياً في مرحلتنا الحالية.

فالموت، في هذه الرؤية الصافية، ليس نهايةً مطلقة أو هاويةً مظلمة، بقدر ما هو تحول في صورة الوجود، وانفكاك في شفرة التردد، وانتقال في نوع المسار. أما تفاصيل ما وراء ذلك الانتقال، فسيتبقى من الأسرار الكبرى التي ينبغي أن نتعامل معها بالتواضع المعرفي؛ دون ادعاءٍ لليقين الكامل القاطع، ودون إغلاقٍ لأبواب التأمل والبحث والتدقيق الفكري.

الذاكرة بين المادة والوعي: ردُّ على اعتراض الزهايمر وتلف الدماغ

وهنا قد يعترض معترض فيقول: إذا كان للإنسان بُعدٌ طاقوي غير مادي، فلماذا نرى أن إصابة الدماغ تؤثر مباشرة في الذاكرة والإدراك؟ ولماذا يفقد المصابون بمرض الزهايمر⁴⁵ أو حوادث الرأس قدرتهم على التذكر والتعرف على الأشخاص والأشياء؟

ويبدو هذا الاعتراض للوهلة الأولى دليلاً مادياً ظاهرياً على أن الوعي والذاكرة ليسا سوى نتاج للمادة الدماغية وحدها، فإذا تضرر الدماغ ضاعت الذاكرة. غير أنني أرى أن هذه الظاهرة هي دليلٌ لصالح رؤيتنا وليست علينا؛ إذ إنها لا تحسم المسألة بهذا الاختزال البسيط، بل تفتح باباً لتأمل فلسفي يستحق النظر.

فالطب والواقع السريري يبينان لنا أن بعض الأشخاص الذين تعرضوا لإصابات دماغية شديدة أو اضطرابات عصبية فقدوا ذاكرتهم، ثم استعادت أدمغتهم شيئاً من وظائفها لاحقاً وتجددت مساراتها، فعادت إليهم ذكرياتهم القديمة نفسها بكامل تفاصيلها بعد أن كانوا قد فقدوا القدرة على الوصول إليها.

وهنا يبرز السؤال المحوري: لو كانت تلك الخلايا والوصلات الدماغية التالفة هي المحل الوحيد الذي تُخزن فيه الذكريات، وأنها تَلَفَت وانعدمت نهائياً مع تلف المادة، فكيف أمكن استعادتها بعينها بعد تحسن الوصلات أو إعادة ترميم الممر المادي؟ ومن أين استُرجعت تلك الذكريات إذا كانت قد تلاشت تماماً بتلف المادة؟

⁴⁵ مرض الزهايمر (Alzheimer's Disease): اضطراب عصبي تنكسي متدرج يؤدي إلى تلف خلايا الدماغ وتقلص حجمه، مما يسبب فقدان الذاكرة وتراجع القدرات الإدراكية. تعريفه كـ "تلف عضوي في الروابط العصبية".

ومن هنا أميل إلى الاعتقاد بأن الدماغ ليس المصدر المولد والوحيد للوعي، بل هو أداة أو وسيط و«إناء مادي» يترجم الوعي ويظهره في عالم المادة. فكما أن تعطل جهاز الاستقبال التلفزيوني أو الإذاعي لا يعني بالضرورة زوال إشارة البث نفسها، كذلك قد يكون اضطراب الدماغ تعطلاً في وسيلة الوصول إلى الذاكرة والتعبير عنها، لا فناً للذاكرة من أصلها.

ولهذا أميل إلى تصور يرى أن للذاكرة جانباً مادياً مرتبطاً بالبنية العصبية للدماغ، وجانباً أعمق يتصل ببؤرة الوعي أو بالطبيعة الطاقوية للإنسان. وأنا لا أطرح هذا التصور بوصفه حقيقة علمية نهائية أو برهاناً قاطعاً، بل بوصفه تفسيراً فلسفياً أراه أقرب إلى فهم هذه الظواهر، وأجده أكثر انسجاماً مع رؤية روح الحياة.

فعندما يتضرر الدماغ أو تتلف بعض الوصلات العصبية، قد يختل الممر الذي يتيح للإنسان الوصول إلى ذكرياته أو التعبير عنها، فيظهر النسيان والعجز. ثم إذا استعادت البنية العصبية شيئاً من قدرتها على العمل، عاد بعض ما كان محجوباً عن الظهور. وهذا ما يجعلني أرى أن ظواهر فقدان الذاكرة واستعادتها لا تنفي بالضرورة وجود بُعد يتجاوز المادة، بل قد تشير إلى أن الوعي أعمق من أن يُحتزل اختزالاً كاملاً في التفاعلات الكيميائية الدماغية وحدها.

وبالتالي، فنحن في رؤية روح الحياة لا نؤمن بوجود موتٍ تام أو فناً مطلق للوعي، وإنما بانفكاكٍ عن هذا الغلاف المادي والجسد الكثيف إلى مسارات وعوالم أخرى لا نزعم معرفة تفاصيلها على وجه اليقين. وكل ما نقوله هنا هو اجتهاد فلسفي وتأمل وجودي يستند إلى ما نستشعره وجداناً وإلى بعض الظواهر التي نراها جديرة بالتأمل،

مع بقاء الباب مفتوحاً لما قد يكشفه البحث العلمي والفلسفي مستقبلاً عن طبيعة الوعي والذاكرة وعلاقتهما بالمادة.

سيكولوجيا الرهبة: لماذا يخاف الإنسان من الموت والظلمة؟

ومن الأسئلة العميقة التي تستحق التأمل والمرتبطة بكوامن النفس البشرية: لماذا يخاف الإنسان من الموت؟ ولماذا يرتجف كثير من الناس أمام المجهول، حتى أولئك الذين ينكرون أي وجود يتجاوز حدوده المادة؟

إننا نجد أحياناً ظاهرة لافتة؛ فبعض الملحنين الذين يؤكدون جازمين أن الوجود كله ليس إلا مادة وحركة وقوانين طبيعية، وينكرون معها أي عالم غير مادي أو حياة أخرى، ومع ذلك قد يشعرون بالخوف والوجل الشديد إذا وجدوا أنفسهم وحدهم في مكان مظلم موحش. وليس المقصود هنا الخوف من حيوان مفترس أو خطر مادي محسوس ومجسم، فذلك خوفٌ مبرر ومفهوم، وإنما المقصود ذلك الشعور الغامض القسري الذي يعتري النفس أمام الظلمة، والعزلة، والصمت، والفراغ، وينبثق من «الظلمة ذاتها» ومن «الماورائيات المرعبة» التي ينفيها المادي بلسانه وتستشعرها كوامنه. ويبدو لي أن هذا الخوف أعمق بكثير من مجرد الحسابات العقلية المباشرة؛ والسبب وفق رؤية روح الحياة يُعزى إلى عاملين جوهريين متداخلين:

1. الذاكرة التراكمية لطاقات الأسلاف والرواسب الكونية

إن الإنسان ليس كائناً وُلد في هذه اللحظة فحسب كصفحة بيضاء مجردة، بل يحمل في تكوينه وكوامنه آثار رحلة طويلة جداً من الوجود والتطور. إنه يحمل في أعماقه طبقات متراكمة من التجارب والطاقات التي مرت بها البشرية عبر آلاف السنين، وآثار المخاوف والصراعات والآمال التي صاحبت أسلافه في مسيرتهم الطويلة والتي غدت مشفرة في تركيبهم الجينية والذهنية. وكأن الوجود نفسه قد ترك بصماته وانطباعاته العميقة في نسيج النفس الإنسانية.

فالظلام، على سبيل المثال، ارتبط في الذاكرة البشرية عبر آلاف السنين بالخطر المهدد والمجهول الكامن وراء حجاب العتمة. ففي الأزمنة السحيقة كان الإنسان يرى نفسه مكشوفاً أمام مفترسات أو أخطار قد ترصد به من بين الأشجار والظلال، بينما يعجز هو عن رؤيتها أو التنبؤ بحركتها. ولهذا ارتبط الظلام بفقدان القدرة على الرؤية والاستشراف والسيطرة على ما يحيط به، فترسخت رهبته في أعماق النفس جيلاً بعد جيل، حتى غدت استجابةً غريزية يصعب التخلص منها بالكامل. ولهذا، تظل هذه الرهبة التاريخية قادرة على هزيمة أفكار الإنسان المادية والنظرية الحديثة؛ لأن كوامنه النفسية العميقة أقدم وأقوى من قناعاته الذهنية الطارئة.

2. الخوف من المجهول وانقطاع الألفة الجسدية

أما السبب الأعمق في نظري فهو أن «الإنسان عدو ما يجهل». فالنفس البشرية تستطيع التعامل مع ما تعرفه وتتوقعه، أما ما لا تعرفه فإنها تتردد أمامه وتضطرب؛ ولهذا يخاف

الإنسان من السفر إلى مكان لا يعرفه، ويخاف من المستقبل الذي لم يختبره بعد، ويخاف من المرض حين يجهل نهايته ومآله.

والموت هو «المجهول الأكبر»؛ إذ يمثل النقطة التي تنسلخ فيها النفس عن ألفتها الجسدية ووسائلها المادية، لتقف على عتبة لا نملك عنها يقيناً. ولهذا فإن رهبة الموت ليست بالضرورة دليلاً على معرفة الإنسان بما بعده، كما أنها ليست دليلاً على عدم وجود شيء بعده، وإنما هي تعبير عن مواجهة النفس البشرية لأكبر أسئلة الوجود وأكثرها غموضاً.

أما وفقاً لـ «رؤية روح الحياة»، فإن هذا الخوف يتراجع كلما أدرك الإنسان أنه خلية حية في جسد كوني أعظم، وأنه ليس كائناً منقطعاً عن الوجود ليخشى الفناء المطلق. فالورقة الساقطة لا تخرج من دورة الطبيعة، والموجة العائدة إلى عمق البحر لا تنفي؛ وكذلك الإنسان، ليس موته سوى تحول طاقي من صورة إلى أخرى، ومن طور إلى طور. وفي هذه الرؤية، لا يُقبل الإنسان على مصير انتقائي أو عذاب قاهر، بل يمضي في رحلة ينسج فيها مساره النوراني بنفسه في عوالمه اللاحقة. ومع ذلك، يقتضي التواضع المعرفي الاعتراف بأن تفاصيل ذلك الطور محجوبة عنا. فالحكمة لا تكمن في ادعاء الإحاطة المطلقة بما بعد الموت، ولا في الجزم بنفيه؛ فالموت ليس عدماً محضاً، كما أنه ليس بالضرورة مطابقاً لما رسمته الموروثات بحذافيرها، بل هو انفكاك طاقي وعبور نحو مجهول أرحب. وحين يستوعب الإنسان هذه الحقيقة، تنقلب رهبته إلى فضول وجودي، ويزوب خوفه في بحر من التأمل والطمأنينة؛ لإدراكه العميق بأنه جزء من

مسيرة أبدية، وأنه لم ينفصل يوماً عن «روح الحياة» التي انبثقت منها، بل سيظل متممياً إليها في كل أطواره.

الإنسان في أطوار روح الحياة

وهنا يتبادر إلى ذهني سؤالٌ فلسفيٌّ في غاية العمق واللطافة وهو: هل يمكن أن يكون الإنسان نفسه مرحلة جديدة من مراحل تطور روح الحياة؟

هل يمكن أن يكون هذا البدن الإنساني قد أُعدَّ عبر مسيرة طويلة من التطور الكوني ليصبح الإناء والمعمل الذي تتولد فيه صورة أرقى وأسمى من الوعي والإدراك والطاقة والروحانية؟

إنني أميل إلى التأمل في هذا الاحتمال ولا أستبعد فكرته؛ فربما لم يكن ظهور الإنسان حدثاً عارضاً في مسيرة الوجود، بل خطوة جديدة في مسار طويل من التكوين والتطور. فكما تطورت المادة عبر مراحل متعاقبة حتى ظهرت الحياة العضوية، ثم تطورت الحياة حتى ظهرت الكائنات القادرة على الإدراك والشعور، فقد يكون الإنسان بدوره يمثل مرحلة انتقالية وجسراً نحو شكل أعمق وأرقى من الوجود لم تتكشف معالمه كاملة بعد.

ولهذا فإننا في رؤية روح الحياة لا نتبنى المفاهيم التقليدية التي تفترض أن «روحاً» جاهزة كانت موجودة في عالم علوي منفصل ثم هبطت إلى الجنين أو تلبست بالجسد المادي عند لحظة معينة من تكوينه في رحم أمه.

بل أميل إلى الاعتقاد بأن الوعي، والروحانية، والطاقة المدركة لا تهبط من عالم منفصل ولا تحلّ في الجسد من خارجه، وإنما تنشأ وتتولد مع نشوء الكائن نفسه منذ اللحظات الأولى لتشكيل الجنين، حين يبدأ ذلك التلاحم البيولوجي الفريد بين الحيوان المنوي والبويضة، وتبدأ معه رحلة جديدة من التنظيم والتعقيد والتكون.

فند تلك اللحظة الأولى، يبدأ مسارٌ جديد من التنظيم والنمو والتعقيد؛ إذ تشرق النواة الأولى لهذه البؤرة الإدراكية، وتتوسع شيئاً فشيئاً مع نمو الجنين وتطور بنيته وتفاعله. ثم تستمر في الاتساع بعد الولادة عبر مروره بهذه الحياة، وخوضه الخبرات والمشاعر، والمعاناة والتعلم والمحبة والخطأ والصواب، حتى تتكون الشخصية الإنسانية بكل ما تحمله من وعي وإدراك وذاكرة وإحساس، وتكتمل ملامح هذه البؤرة الواعية عبر ما تمر به من خبرات وتجارب في الحياة، لتغدو مهياةً — إن صح هذا التصور — لطور وجودي آخر يتجاوز حدود العالم المادي.

ومن هذا المنظور، يمكن النظر إلى الحياة الأرضية كلها بوصفها أشبه بـ «معمل كوني عظيم» أعدّ لصقل وتوليد وصياغة هذه البؤرة الواعية؛ فتكون المادة هي «المرحلة الأولى والرحم الأول» الذي تنهياً فيه الطاقة النورانية وتتسامى، لتكون ما نسميه «الروح» أو «الطاقة المدركة» ثمرة حية من ثمار هذه المسيرة الطويلة، لا شيئاً منفصلاً عنها أو مقتحماً لها من الخارج.

ولبيان المراد بدقة أكبر أقول: إنني أقصد من هذا الطرح أن هذا البدن الإنساني – الذي تكون جنيناً في بطن أمه وتولدت معه قواه الإدراكية – ربما يكون قد أُعدَّ إعداداً كونياً دقيقاً ليولد «الروح» أو «الطاقة الحية» للإنسان، ويصوغها في «بدنها المثالي» المتكامل. وهذا البدن المثالي (أو القلب الطاقوي) – الذي يحمل وعي الإنسان وإدراكه بعد مفارقة الجسد الكثيف – هو الذي سيكون مهياً للانتقال من مسارٍ إلى مسارٍ وجودي أوسع.

ولا أزعم أنني أملك برهاناً قاطعاً على هذا التصور، لكنه احتمال أراه منسجماً تمام الانسجام مع رؤية روح الحياة التي ترى الوجود مسيرة متواصلة من التكون والانبثاق والتطور؛ فربما كانت المادة جسراً بين طورين من أطوار الوجود: طورٍ مادي نعرفه ونعيشه، وطورٍ نوراني روحاني أكثر رحابة لم تنكشف لنا حقيقته بعد.

وحيث لا يكون الموت نهاية لهذه المسيرة أو فناً مطلقاً، بل يكون بمثابة انفكاك وولادة جديدة في مسار تطوري أوسع؛ تنتقل فيه البؤرة الواعية التي تشكلت وتطورت خلال الحياة إلى طور جديد من أطوار الوجود. وكما تنضج الثمرة على الشجرة ثم تنفصل عنها لتبدأ دورة أخرى، فقد تكون الحياة المادية نفسها مرحلة إعداد وتكوين لما بعدها. ولا نعرف على وجه اليقين طبيعة ذلك الطور اللاحق، لكننا لا نجد ما يوجب استحالة عقلاً، كما لا نجد ما يسمح لنا بادعاء معرفته تفصيلاً أو الجزم بحقيقته النهائية.

خلاصة الفصل الثامن

خلاصة القول هنا؛ إن الموت، في رؤية «روح الحياة»، ليس فناً مطلقاً ينتهي بالعدم، كما أنه ليس مجرد انتقال آلي إلى صورة مادية أخرى، بل هو مرحلة من مراحل المسيرة الوجودية الممتدة. وفي ضوء هذه الرؤية الكونية، يمكن إجمال فلسفة الموت ومسار الحياة المستقبلي في ثلاث ركائز أساسية ذوقية وليست حتمية:

أولاً: الموت انتقالٌ لا فناً مطلق. فالموت لا يعني بالضرورة انطفاء الوعي أو زواله النهائي، بل قد يمثل انفكاك البؤرة المدركة عن الجسد الذي تشكلت معه وعملت من خلاله، لتواصل مسارها في طور آخر من أطوار الوجود.

ثانياً: الوعي أوسع من التفسير المادي الخالص. فالأحلام والرؤى والحدس العميق، إلى جانب ظواهر أخرى ما زالت تثير الأسئلة، تفتح الباب أمام احتمال أن يكون الوعي أعمق من أن يُحتزل في النشاط العصبي وحده، وأن تبقى طبيعته الحقيقية مجالاً مفتوحاً للبحث والتأمل والاكتشاف.

ثالثاً: الحياة الأرضية معملٌ لتكوين البؤرة الواعية. فالحياة ليست مرحلة عابرة بلا معنى، بل ميدان تتشكل فيه الخبرة، وتتراكم فيه التجارب، وتنضج فيه الذات المدركة عبر المعرفة والمحبة والمعاناة والاختيار، استعداداً لأطوار أخرى من مسيرة الوجود.

ختاماً، لا تنظر «روح الحياة» إلى الإنسان بوصفه كائناً ينتهي عند حدود الجسد، بل تراه جزءاً من حركة كونية أوسع وأعمق. فالموت ليس جداراً أخيراً تسقط عنده

الحكاية، بل بوابة عبور من طور إلى طور، ومن تجربة إلى تجربة، في رحلة وجودية ما تزال أسرارها أكبر من أن يحيط بها العقل البشري إحاطة كاملة.

الفصل التاسع

أجوبة معرفية في دروب النور- فصل الختام ونهاية الكلام

مقدمة وتنويه

على امتداد مسيرتي المعرفية، وعبر ما طرحته من حلقات صوتية في قناتي على منصة يوتيوب، وما دوّنته من مقالات وأبحاث ذات صلة في مواقع ومندياتي على شبكة الإنترنت، كنت دائماً في حالة تواصل حيّ وتفاعل مباشر مع العقول الشغوفة بالبحث عن الحقيقة.

وفي خضم هذه الرحلة الطويلة لفك شفرات الوجود، وردتني مئات الأسئلة والإشكاليات والمناقشات من إخوة وأخوات يشاركونني الرغبة في التحرر من قيود الموروث، والارتقاء في مدارج الوعي الكوني. ولأن السؤال الجريء هو المفتاح الأول لباب الحكمة، فقد رأيت أن يكون مسك الختام لهذا الكتاب عبارة عن "جلسة حوارية" جامعة.

لذلك، اخترت لكم في هذا الفصل الختامي باقةً منتقاةً من أهم الأسئلة التي طُرحت عليّ، والتي تمس قضايا الروح والطاقة وقانون الجذب وما وراء الطبيعة. وأضع إجاباتي عليها بين أيديكم بوصفها خلاصةً مركزةً لأبرز الإشكالات التي واجهت هذه الرؤية

الفكرية، أملاً في أن تسهم في توضيح ما قد يبقى عالقاً من تساؤلات، وأن تمنح القارئ صورة أكثر اكتمالاً واتساقاً عن نواميس «روح الحياة» ومبادئها.

إيقاع الزمن في ميزان الوعي: بين رحابة الطفولة ونهر العمر الجارف

سؤال: نلاحظ مفارقة عجيبة في إدراكنا للزمن؛ ففي طفولتنا كانت الأيام طويلة وبطيئة، وكلما تقدمنا في العمر نشعر بتسارع الأيام وانقضائها كأنها ومضة. كيف تفسر ذلك؟

وجوابي على ذلك هو:

«تغدو بطيئاً وكل شيء مسرعٌ حولك، وأنت تسير بهذا الإدراك»

حين يسير الإنسان في دروب الحياة متأملاً، يلحظ مفارقة عجيبة في علاقته بالزمن؛ إذ يبدو له العالم من حوله وكأنه يزداد سرعة عاماً بعد عام، بينما يقف وعيه الداخلي مراقباً لهذا الجريان المتدفق. وما إن يلتفت إلى طفولته حتى يتساءل: لماذا كانت الأيام آنذاك أطول، والسنوات أوسع، والمسافات أبعد مما تبدو عليه اليوم؟

يكن جانب من الجواب في طبيعة الوعي نفسه. فالطفل يعيش العالم بعين الدهشة الأولى، ويستقبل كل ما يحيط به كما لو أنه يراه للمرة الأولى. الأشياء جديدة، والتجارب غير مألوفة، والتفاصيل تتدفق إلى ذهنه بغزارة. ولهذا يمتلئ وعيه بالأحداث والانطباعات والصور، فيبدو اليوم الواحد ممتداً بما يحتويه من خبرات واكتشافات.

فالزمن في إدراكه لا يُقاس بعدد الساعات التي تمر، بل بكمية الحياة التي يعايشها داخل تلك الساعات.

ومع تقدّم العمر تتغير هذه العلاقة تدريجياً. فالأحداث التي كانت تثير الدهشة تصبح مألوفاً، والتجارب التي كانت جديدة تتحول إلى جزء من الروتين اليومي. ولم يعد الذهن يتوقف عند كل تفصيل كما كان يفعل في البدايات، بل يتجاوز كثيراً مما يراه لأنه أصبح معروفاً ومتكرراً. وهكذا تمر أيام كثيرة دون أن تترك في الذاكرة أثراً مميزاً، فينشأ الشعور بأن الزمن يتسارع وأن الأعوام تنقضي بسرعة متزايدة.

غير أن الأمر لا يرتبط بالألفة والاعتیاد وحدهما، بل يتعلق أيضاً بتبدل المقياس الداخلي الذي نقيس به العالم. فالطفل يعيش بعقل لم تتراكم فيه بعد طبقات الخبرة والذكريات، لذلك تحتل الأشياء والأحداث مساحة واسعة من إدراكه. أما الإنسان في مراحل عمره اللاحقة، فقد اتسع وعيه وامتلاً بتجارب لا حصر لها، فأصبحت الأحداث الجديدة تشغل حيزاً أصغر نسبياً داخل ذلك الأفق الإدراكي الأوسع. وما كان يبدو في الطفولة شاسعاً وممتداً يغدو مع الزمن أقرب وأقصر وأكثر اعتياداً.

ومن هنا نفهم أن الزمن الذي نشعر به ليس مجرد حركة عقارب في الخارج، بل تجربة يصوغها الوعي في الداخل. فهو يمتد حين تكون التجربة غنية بالدهشة والاكتشاف، وينكمش حين تتشابه الأيام وتتكرر المشاهد. كما أنه يتأثر بالمقياس الإدراكي الذي ننظر من خلاله إلى العالم؛ فالأشياء لا تُقاس في وعينا بحجمها المطلق، بل بمقدار الحيز الذي تشغله داخله.

ولذلك فإن إيقاع الزمن لا تحدده الساعة وحدها، بل تحدده أيضاً كثافة الحياة التي نعيشها، وعمق التجارب التي نختبرها، ومقدار الحضور الذي نمنحه للحظة الراهنة. فكما اتسعت مساحة الانتباه والدهشة في النفس، اتسع الزمن معها، وكلما خفت وهجهما بدا العمر وكأنه نهر جارف يمضي بنا أسرع مما نظن.

فن التعامل مع الأفكار وتحقيق التوازن الداخلي

سؤال: كيف تتطور معرفياً ونفسياً؟ وكيف نتخلص من هذا الثقل النفسي، والقلق المستمر، والاضطراب الذي يعكر صفو حياتنا، لنصل إلى حالة التفاعل الكوني والانسجام التام؟

وجوابي على ذلك هو:

إن الإنسان لا يثقل كاهله ما يجري حوله بقدر ما يثقله ما يجري داخله. فمعظم القلق والاضطراب والتشوش لا تنشأ من العالم الخارجي نفسه، بل من الطريقة التي يتفاعل بها وعينا معه. ولذلك فإن الارتقاء المعرفي والنفسي لا يتحقق بكثرة المعلومات وحدها، ولا بمجرد تراكم الخبرات، بل بتحول عميق في علاقة الإنسان بالوجود من حوله، وبالأفكار التي تتحرك في داخله.

ومن خلال تأملي في هذا الأمر، وجدت أن من أقرب الطرق إلى السكينة والانسجام طريقتين متكاملتين: الامتنان والسكون.

فالامتنان يعلم الإنسان كيف ينظر إلى الوجود بعين القبول والمحبة، بينما يعلمه السكون كيف يتحرر من الضجيج الداخلي الذي يبدد طاقته ويستنزف صفاءه. الأول يفتح القلب، والثاني يهدئ العقل، وإذا اجتمعا نشأت حالة من التوازن العميق بين الداخل والخارج.

أما الطريق الأول فهو إظهار الامتنان.

والمقصود به أن يتعامل الإنسان مع كل ما يحيط به بوصفه جزءاً من شبكة الوجود التي تمنحه الحياة في كل لحظة. فيشكر الهواء الذي يتنفسه، والماء الذي يرويه، والأرض التي تحملها، والناس الذين يهتمون به، بل وكل شيء يتصل به إدراكه. وليس المقصود مجرد ترديد كلمة "شكراً"، وإنما استحضار حالة داخلية من التقدير والاعتراف بقيمة ما يحيط بنا.

وحين يعتاد الإنسان هذا اللون من النظر إلى العالم، تتبدل علاقته بالحياة شيئاً فشيئاً. فبدلاً من أن يركز وعيه على النقص والحرمان، يبدأ برؤية الوفرة والحضور. وبدلاً من أن يعيش في حالة اعتراض دائم، ينتقل إلى حالة من الانفتاح والتقبل، فيشعر بخفة وطمأنينة واتساع في النفس.

وأقول للمشككين: جربوا هذه الطريقة ليوم واحد فقط بكل صدق، ثم بعد ذلك شكّكوا واعترضوا على ما أقول!

طريقها باختصار: أن تشكر كل ما يطرأ على فكرك وتتصل به حواسك. أن تشكر الهواء الذي تستنشقه ليمدك بالحياة، والماء الذي تشربه ليروي خلاياك. إذا مررت بشجرة

فاشكرها، وإذا رأيت حيواناً أو طيراً يرفرف في السماء فاشكره. بل يتعدى الأمر إلى الجمادات؛ اشكر التراب الذي تسير عليه، والكرسي الذي تجلس عليه، والكمبيوتر الذي تستخدمه، والإناء الذي تشرب منه! لا تستثنِ حجراً، ولا مدرّاً، ولا هواءً، ولا سخابة، ولا بشراً. كل شيء حولك يمكن أن يُطلق عليه اسم "شيء"، قف أمامه ولو للحظة بسيطة وقل له من أعماق كيانك، وبكل همتك وصدقك: "شكراً لك".

أما الطريق الثاني فهو إفراغ الوعاء أو السكون الذهني.

وإذا كان الامتنان يعلم الإنسان كيف ينسجم مع الوجود من حوله، فإن السكون يعلّمه كيف ينسجم مع الوجود الذي بداخله. فالإنسان لا يرهقه العالم الخارجي وحده، بل ترهقه كذلك آلاف الأفكار والصور والهواجس التي تتدفق في ذهنه دون انقطاع. وكثيراً ما يتحول العقل إلى ساحة مزدحمة بالأصوات والذكريات والاحتمالات والمخاوف، حتى يفقد الإنسان قدرته على التمتع بالحظة الحاضرة، ويصبح أسيراً لما يدور في رأسه أكثر مما يدور حوله.

ومن هنا تنبع أهمية السكون.

غير أن كثيراً من الناس يسيئون فهمه، فيظنون أن المطلوب هو الدخول في معركة مع الأفكار وطردها بالقوة من الذهن. لكن التجربة تكشف أن هذا المسلك يأتي بنتيجة معاكسة؛ لأن الفكرة التي نقاومها بشدة تصبح محور اهتمامنا، وما نحاول دفعه بعيداً يظل حاضراً أمامنا بصورة أكبر.

ولهذا فإن طريق السكون لا يقوم على المقاومة، بل على عدم الالتفات.

ولتقريب المعنى، تخيل أن شخصاً جاء إلى مجلسك وأنت لا ترغب في الحديث معه أو الانشغال به. فإذا واجهته مباشرة، أو دخلت معه في نقاش وجدال، فقد أصبحت مرتبطاً به رغم محاولتك التخلص منه. أما إذا لم تمنحه اهتماماً حقيقياً، ولم تجعله محور تركيزك، فإنه يفقد تأثيره عليك شيئاً فشيئاً.

وكذلك الأفكار.

فالفكرة العابرة لا تمتلك قوة ذاتية كبيرة، وإنما تستمد معظم قوتها من الانتباه الذي نمنحه لها. وحين تظهر في الذهن فكرة مزعجة أو ذكرى مؤلمة أو خوف من المستقبل، فإن الخطأ الشائع هو أن نشغل بها، فنحللها ونناقشها ونقاومها ونسعى إلى طردها. وفي هذه اللحظة بالذات نكون قد منحناها ما تحتاجه من طاقة وحضور لكي تبقى.

أما السالك في هذا الطريق، فإنه يتعامل معها بطريقة مختلفة. فهو لا يرحب بها ولا يحاربها، لا يمسك بها ولا يفر منها، بل يتركها تمر دون أن يمنحها اهتماماً إضافياً. وإذا شعر أن ذهنه بدأ ينحرف خلفها، أعاد انتباهه بهدوء إلى حالة الفراغ والسكون دون صراع أو توتر.

ومع الزمن يكتشف الإنسان أن معظم الأفكار التي كانت تستنزفه لم تكن قوية كما كان يتصور، بل كانت تعيش على وقود الانتباه المستمر الذي يسكب عليها. وما إن يتوقف عن تغذيتها حتى تبدأ بالذبول والانحسار من تلقاء نفسها.

إن الذهن يشبه بحيرة ماء؛ فإذا ألقيت فيها الحجارة باستمرار اضطرب سطحها وتعذر عليك رؤية أعماقها. أما إذا توقفت عن إلقاء الحجارة، فإن الماء يعود إلى صفائه بطبيعته.

وكذلك النفس الإنسانية؛ فهي لا تحتاج دائماً إلى مزيد من التفكير، بل تحتاج أحياناً إلى التوقف عن ملاحقة كل فكرة عابرة.

وحين يعتاد الإنسان هذا السكون الداخلي، يشعر بأن شيئاً من الثقل الذي كان يحمله قد بدأ يتلاشى. وتخف وطأة القلق والتوتر والانشغال الدائم، ويحل محلها شعور بالراحة والاتزان والصفاء. وكأن طبقات من الضجيج كانت تغطي أعماقه ثم أخذت تنكشف شيئاً فشيئاً.

ومن هنا كان الامتنان والسكون طريقتين متكاملتين؛ فالامتنان يملأ القلب بحالة من القبول والمحبة والتقدير، بينما يفرغ السكون الذهن من التشويش والتعلق والاستنزاف. الأول يضيف نوراً إلى الداخل، والثاني يزيل ما يحجب ذلك النور. وإذا اجتمع الطريقتان في الإنسان، أصبح أكثر قدرة على التفاعل مع الوجود بانسجام وطمأنينة واتزان.

الإنسان والكون: ذرة في الجسد وعالم في الوعي

سؤال: لماذا تُعبون أنفسكم بالبحث في الأمور الكونية الكبرى؟ الإنسان مهما عظم يبقى كائناً محدوداً، ومجرد ذرة تائهة في هذا الكون الرهيب، فلماذا يبحث في قضايا تتجاوز قدرته على الإحاطة؟

وجوابي على ذلك هو:

قد يكون الإنسان صغيراً إذا قيس بحجم الكون، لكنه ليس صغيراً إذا قيس بقدرته على الوعي. وهنا تكمن المفارقة العجيبة؛ فالكائن الذي لا يكاد يُرى أمام اتساع المجرات هو نفسه الكائن القادر على تأمل تلك المجرات، والسؤال عن أصلها، ومحاولة فهم القوانين التي تحكمها.

إن البحث ليس أمراً طارئاً على طبيعة الإنسان، بل هو جزء من تكوينه العميق. فنذ أن فتح عينيه على هذا العالم وهو يسأل ويقارن ويستكشف ويبحث عن المعنى الكامن وراء الأشياء. ولولا هذا الشغف لما نشأت المعارف، ولا تطورت الحضارات، ولا خرج الإنسان من حدود كهفه الأول إلى آفاق الفضاء الرحيب.

صحيح أن الجسد البشري ليس سوى نقطة متناهية الصغر في هذا الكون الهائل، لكن الوعي الذي يسكن هذا الجسد يحمل قدرة فريدة؛ فهو لا يكتفي بالوجود، بل يتساءل عن الوجود نفسه. إنه يحاول أن يقرأ الأنماط، ويكتشف الروابط، ويفهم ما يحيط به من أسرار وظواهر. ولهذا فإن قيمة الإنسان لا تُقاس بحجمه المادي، بل بما يملكه من قدرة على الإدراك والتأمل والفهم.

ومن العجيب أن الكون بأسره، على سعته الهائلة، لا يعرف نفسه إلا من خلال الوعي الذي يتأمله. فالنجوم لا تتأمل ضوءها، والكواكب لا تتساءل عن مساراتها، أما الإنسان فقد مُنح قدرة النظر إلى الخارج والداخل معاً؛ ينظر إلى السماء فيبحث عن أسرارها، وينظر إلى ذاته فيبحث عن حقيقة وجوده.

ولهذا فإن الاعتراف بمحدودية المعرفة لا ينبغي أن يقود إلى الاستسلام، بل إلى مزيد من السعي والتواضع. فكل اكتشاف جديد يفتح باباً لأسئلة جديدة، وكل جواب يقود

إلى آفاق أوسع من البحث. وهكذا يبقى الإنسان في رحلة لا تنتهي بين ما يعرفه وما يجهله، وبين ما أدركه وما لم يدركه بعد.

إن رؤيتنا في هذا الكتاب تنطلق من الإيمان بأن الإنسان ليس مجرد كتلة من المادة تعبر الزمن ثم تتلاشى، بل كائن يمتلك وعياً قادراً على النمو والتوسع واكتشاف المزيد من أسرار الوجود. قد يكون ذرةً في الجسد الكوني، لكنه في عالم الإدراك والوعي يحمل في داخله كوناً بأكمله، ولذلك فإن البحث ليس ترفاً فكرياً، بل أحد أسمى التعبيرات عن إنسانيته.

التخاطر بين قراءة الأفكار وإرسال الترددات

سؤال: ما حقيقة التخاطر وقراءة الأفكار وإرسال التأثيرات الذهنية؟ وكيف يمكن تفسير هذه الظواهر وفق رؤية «روح الحياة»؟

وجوابي على ذلك هو:

لفهم حقيقة التخاطر وقراءة الأفكار وإرسال التأثيرات الذهنية، لا بد أولاً من التمييز بين ظواهر مختلفة جرى جمعها تحت اسم واحد هو «التخاطر». فالكثير من الالتباس المحيط بهذا الموضوع لا يعود إلى غموض الظاهرة نفسها، بقدر ما يعود إلى الخلط بين مسارات متعددة تختلف في طبيعتها وآلياتها.

وقد دفعني إلى هذا الاستنتاج سنواتٌ من البحث والتجربة والملاحظة، فضلاً عن تجارب شخصية مررت بها بنفسي، وأخرى شَهِدتها عند أشخاصٍ كثيرٍ من ثقافات وخلفيات مختلفة. ومن خلال ذلك كله وجدت أن كثيراً مما يُفسَّر على أنه ظاهرة واحدة ليس في الحقيقة إلا مجموعة ظواهر متميزة يجمعها الناس تحت عنوان واحد.

ولأن هذه المسألة اختلطت فيها التفسيرات التراثية بالتصورات الحديثة، وتداخلت فيها الحقائق بالتأويلات والأساطير، رأيت أن أعيد قراءتها وفق المنظور الذي أتبناه في هذا الكتاب، وأن أقدم تصوراً مبسطاً يميز بين هذه المسارات ويضع كل ظاهرة في موضعها الصحيح.

ومن هنا كان لا بد أولاً من إلقاء نظرة سريعة على الجذور التاريخية لهذه الفكرة، وكيف فهمتها الأمم القديمة، وكيف انتقلت إلى التراث الروحاني والحديث، قبل أن تنتقل إلى بيان المسارات الثلاثة التي أرى أنها تشكل جوهر هذه الظاهرة.

يُشاع في العصر الحديث أن مصطلح "التخاطر" (Telepathy) صاغه الباحث "فريدريك مايرز"⁴⁶ سنة 1882م، ليصف به قدرة التواصل ونقل المعلومات والمشاعر بين عقليْن بغير الوسائل الحسية المعتادة. لكن هذا التأريخ يخص "المصطلح" فقط، أما حقيقة الظاهرة، فتمتد عميقاً في تاريخ البشرية؛ فقد عرفها البابليون، والرومان، والمصريون القدماء، وتزخر بها نصوص التراث الهندي.

⁴⁶ فريدريك مايرز (1843-1901) (Frederic W. H. Myers) باحث إنجليزي، وأحد مؤسسي "جمعية الأبحاث الروحانية" في لندن. وهو أول من صاغ مصطلح "التخاطر" (Telepathy) عام 1882م، في محاولة منهجية لتأطير الظواهر الإدراكية غير المعتادة بقلب علمي وتجريبي، بعيداً عن التفسيرات الشيطانية أو الخرافية.

وقد نالت هذه الظاهرة نصيباً وافراً في التراث العربي والإسلامي، وتغنى بها المتصوفة وأصحاب الكرامات. بل إنها كُتبت في مخطوطات السحر والروحانيات تحت مسمى "إرسال الهاتف". وأشهر من كتب في ذلك هو أحمد بن علي البوني⁴⁷ (توفي عام 622 هـ) في كتابه «شمس المعارف». لكن المتمعن في هذا التراث يدرك حجم التخبط فيه؛ فقد عجز القوم عن فهم الآلية الطاقوية الحقيقية لهذه الظاهرة، فنسبوا - عن جهل بحقيقة الوعي - إلى تدخل الجن، أو الشياطين، أو خدام الأسماء (الأرواح الموكلّة بأسماء الله في التراث الروحاني)، أو الأرواح الملائكية. لقد غاب عنهم أن أصل التأثير ومحركه الأول والوحيد هو طاقة الإنسان، وهمته، وإرادته، لا الطقوس الغامضة ولا الكيانات الموهومة.

وللخروج من فوضى التقسيمات الأكاديمية والتراثية، أ طرح هنا رؤيتي الخاصة والمبسطة، والتي تقسم هذه الظاهرة الطاقوية إلى ثلاثة مسارات رئيسية:

أولاً: التخاطر (التفاعل العفوي المتبادل) في رؤيتي الدقيقة، التخاطر هنا ليس فعلاً مُتعمداً، بل هو تفاعل "لا شعوري" يقع بين طرفين تجمعهما روابط نفسية أو كونية متناغمة (كصديقين، أو أم وابنها). وهو يقع عفوياً وفق مجاري التكوين وترددات الوعي. تتجلى هذه الحالة في أبسط صورها بـ "توارد الأفكار"؛ كأن تفكر في الاتصال بصديقك، فيسبقك هو بالاتصال في اللحظة ذاتها. هذا الترابط ينجح لأنه عفوي وخالٍ

⁴⁷ أحمد بن علي البوني (المتوفى نحو 622 هـ / 1225 م) هو باحث وعالم صوفي اشتهر بتخصصه في علوم الأسرار والحرف والعدد في التراث الإسلامي. يُعد كتابه الأشهر «شمس المعارف الكبرى» مرجعاً أساسياً في هذا المجال، إلى جانب مؤلفات أخرى بارزة مثل «منبع أصول الحكمة»، و«اللمعة النورانية في الأسرار الربانية»، و«لطائف الإشارات في أسرار الحروف العلويات».

من التكلف؛ فالفكرة تُرسل وتُنسى في تيار الحياة، فيتلقاها الطرف المتناغم معها. أما التكلف والتعمد في هذا المسار، فغالباً ما يفسد التردد ويعيق الاتصال.

ثانياً: إن قراءة الأفكار — أو ما يمكن وصفه بالالتقاط من طرف واحد — تختلف جذرياً عن التخاطر؛ فهي فعلٌ يقوم به شخص يمتلك حساسية عالية واستعداداً طاقوياً لالتقاط ما يدور في ذهن المقابل دون قصدٍ من الأخير للتفاعل. وبناءً على التجارب الطويلة والاحتكاك المباشر بعشرات ممن يمتلكون هذه القدرة عبر مختلف الثقافات، ثبتت عندي حقيقة قاطعة لا تقبل الشك: إن القارئ للأفكار عاجز تماماً عن استخراج أي معلومة ما لم تكن مستقرة ومفعلة بالفعل في ذهنك الطرف الآخر، وما لم يقترن ذلك باتصال فعلي بين الطرفين، سواء أكان باللقاء المباشر، أم عبر الهاتف، أم بالتركيز على صورة تجمعهم. إن اكتمال هذين الشرطين يمثل القانون الحاكم لهذه الظاهرة، وما لم يتحققا معاً، يستحيل على القارئ الوصول إلى أي نتيجة تذكر.

وهذا يفسر الخدعة الكبرى في برامج "تحضير الأرواح" أو الاتصال بالموتى. إن هؤلاء الوسطاء لا يتصلون بأرواح الموتى قط، بل يتصلون بـ"الأرشيف الذهني" للشخص الجالس أمامهم. هم يقرؤون اسم الميت، وصورته، والمشاعر المرتبطة به من ذهن السائل نفسه عبر ذبذبات لا واعية. ولأنهم يخبرون السائل بمعلومات دقيقة، يقع في وهم بأنهم يتحدثون مع الميت فعلاً. والحقيقة هي إنها مجرد مجارٍ ومسارات للترددات بين ذهن وآخر، ولا علاقة لها بعالم الأرواح أو الجن.

وقد تتفجر هذه القدرة عند البعض إثر صدمة جسدية أو نفسية عنيفة. لي صديق بُرت ساقه في الحرب، وبعد هذا الحادث العنيف استفاقت لديه قدرة عجيبة على قراءة

الأفكار. وكنت أختبره بأن "أزرع" فكرة خاطئة في ذهني وأركز عليها بشدة وهو مقبلٌ عليّ؛ فزرعت يوماً فكرة: "أنت متزوج ومستقر ووضعتك المالي ممتاز". وما إن وصل إليّ، حتى نطق بالجملة ذاتها بحذافيرها وهو في قمة الاستغراب، متسائلاً عن سبب ورودها في ذهنه! . وأفضل طريقة لتقوية عمل هذه القدرة هي الاستماع العفوي، دون ضغط أو توجيه متعمد للذهن.

ثالثاً: إرسال الأفكار (هندسة التأثير عن بُعد) وهو فن التأثير في الآخرين، وبث الأفكار والمشاعر (كالحب، الخوف، أو الإيهام) في عقولهم عن بُعد. وهو ما أسماه القدماء "إرسال الهاتف"، ووضعوا له طقوساً غريبة وأسماء تُتلى آلاف المرات مع الضرب بالسكاكين وغيرها، ظناً منهم أن جنأً ينفذ الأمر. والحقيقة أن الطقوس لم تكن سوى أدوات لشحذ همّة ويقين المرسل. إن التأثير يقع متى ما كان ذهن المرسل قوياً وحاداً، وكان ذهن المتلقي قابلاً للتأثر أو الإيهام. وقد أشار الشيخ الرئيس ابن سينا إلى هذا السر الكوني العظيم بقوله: "قوي النفس، يؤثر في ضعيف النفس".

وقد أثبتت التجارب السوفيتية في أبحاث علم النفس الخارق هذا الأمر عملياً؛ حيث تم وضع شخص على منصة خشبية دقيقة التوازن، وطلبوا من شخص آخر في مكان بعيد أن يرسل له إحياءات وأفكاراً ليميل يميناً أو شمالاً. وسجلت الأجهزة الدقيقة استجابة جسد المتلقي وميلانه الفعلي وفقاً للترددات الذهنية الموجهة إليه.

قوة التركيز، شهادة شخصية على إرسال الترددات الذهنية

لأقرب لكم هذه الآلية، سأروي لكم تجربة شخصية بحثت بها في شبابي. في تلك الأيام، وقع لي حادث مع جارة قريبة، سببت لي أذى نفسياً وضييقاً شديداً، وأدخلتني في دوامة من الخوف والتوتر. حاولت التخلص من تأثيرها بشتى الطرق دون جدوى.

في إحدى الليالي، وبعد حالة من الانشغال الذهني الشديد، خطرت في عقلي فكرة تطبيق (إرسال الأفكار). دخلت إلى مكان ضيق جداً (مخزن صغير مضاء)، وجلست فيه لأعزل حواسي عن المشتتات. بدأت الخطوة الأولى: ركزت ذهني بالكامل، وحصرتُ "صورتها" في مخيلتي بشدة متناهية لمدة معينة. الخطوة الثانية: بدأت أردد اسمها لفظاً بصوت خافت: "يا فلانة.. يا فلانة"، مع تثبيت صورتها في ذهني لمدة دقائق أخرى. حينها، تدفقت في جسدي طاقة هائلة وشحنة لا أستطيع وصفها، دفعتني للخطوة الثالثة: بدأت أرسل لها الأفكار على شكل أوامر، أقول: "لا تفعلي كذا.. ابتعدي عن كذا".

انتهت الجلسة، وبقيت مستيقظاً لساعتين من فرط الطاقة التي تملكنتني. وفي الصباح الباكر، استيقظت على صوت هذه المرأة في بيتنا! لقد جاءت إلى والدتي وهي في حالة رعب وانهايار، تقسم لها أنها سمعت في غرفتها - رغم وجود زوجها نائم بجانبها - ذات الكلمات التي نطقتُ بها في مخبأي، وبنفس الصيغة!

لقد نجح الأمر بصورة مذهلة، وبنسبة 100%. لم تكن هناك ظلمة، ولا بخور، ولا تعاويذ، ولا جن. لم يكن هناك سوى قوة التركيز، وتكثيف الصورة الذهنية، وإطلاق الترددات وكان الوقت ليلاً. تفاعلت هذه المرأة واستقبلت الرسالة بوضوح لأنها كانت،

لا شعورياً، من ذوي القابلية للتأثر (ضعيفة النفس). لقد تحركت الترددات في المجاري الكونية بين دماغى ودماغها، لتثبت أن العقل البشري، متى ما أدرك أسرار طاقته، كان هو القوة الأعظم في هذا الوجود.

لكن لا بد من التنبيه هنا إلى أمر مهم. فمع أنني صاحب هذه التجربة وشاهدها المباشر، فإنني لا أزعم أن ما وقع لي يمكن أن يتكرر بالصورة نفسها مع كل إنسان، أو أن أي شخص يستطيع إحداث هذا النوع من التأثير متى شاء وكيف شاء. فما تزال هناك جوانب كثيرة من هذه الظواهر يكتنفها الغموض، وتتداخل فيها عوامل ومسارات لم ندرك حقيقتها كاملة بعد.

وكل ما أستطيع الجزم به هو أن بعض حالات التوافق أو الانسجام بين شخصيتين قد تفتح مجالاً لتبادل التأثير والتلقي بصورة تتجاوز ما اعتدناه في تفاعلاتنا اليومية. وقد يكون لحدة التركيز، وقوة الانفعال، وانشغال الذهن العميق بشخص أو فكرة، دور في نشوء مثل هذه الحالات. أما التفاصيل الدقيقة والآليات الكاملة التي تحكمها، فما زالت — في نظري — تحتاج إلى مزيد من الفهم والتأمل.

أما الحادثة التي رويتها هنا، فأنا أنقلها كما عشتها وعايستها بنفسي، بكل تفاصيلها التي ما زالت راسخة في ذاكرتي إلى اليوم. وقد يختلف الناس في تفسيرها أو في فهم أسبابها، لكن وقوعها بالنسبة إليّ ليس موضع شك أو تردد، لأنها جزء من تجربة عشتها حقيقة لا رواية سمعتها من غيري.

الحدس لغة اللاوعي في قراءة مسارات الوجود

سؤال: ما حقيقة الحدس؟ ولماذا يشعر بعض الناس أحياناً بمعرفةٍ أو إحساسٍ مسبق بأمرٍ ما قبل وقوعه؟

وجوابي على ذلك هو:

لفهم ظاهرة «الحدس» وكيفية عملها في النفس البشرية، لا بد لنا أولاً أن ندرك النظرية الكامنة وراء هندسة هذا الوجود. إن الكون الذي نعيش فيه ليس مجموعة من الكتل المادية المتناثرة والمنفصلة، بل هو في حقيقته شبكة مترابطة من الطاقات والعلاقات والتأثيرات المتبادلة.

وأرجو أن تحفظوا هذه العبارة جيداً، لأنني أرى أنها تمثل مفتاحاً مهماً لفهم كثير من الظواهر التي تبدو غامضة للإنسان: «إن الكون كله طاقة، وهو بمن فيه يشكل بنية واحدة مترابطة ذات مجارٍ ومسارات متشابكة».

إننا نعيش داخل شبكة هائلة من العلاقات والتأثيرات والترددات التي لا تدركها الحواس إدراكاً مباشراً، ولا يستطيع العقل الواعي أن يحيط بها أو يحللها في كل لحظة. غير أن النفس الإنسانية لا تقتصر على هذا العقل الواعي وحده؛ فهناك طبقة أعمق من الإدراك، وهي ما نسميه بالعقل الباطن أو اللاوعي، وهذه الطبقة تمتلك قدرة مختلفة في التقاط الأنماط والإشارات والروابط الخفية التي تمر من حولنا باستمرار.

ومن هنا ينشأ الحدس.

فالحدس - في رؤيتي - ليس معرفة سحرية، ولا وحياً غيبياً بالضرورة، بل هو لحظة ينبج فيها اللاوعي في التقاط بعض الإشارات الكامنة في هذه الشبكة الوجودية الواسعة، ثم يترجمها إلى شعور داخلي أو إحساس مفاجئ أو يقين عابر يظهر للإنسان دون أن يعرف مصدره المباشر.

لماذا يصعب استدعاء الحدس؟

يخطئ كثير من الناس حين يظنون أن الحدس قدرة يمكن تشغيلها متى شاؤوا وإيقافها متى أرادوا. فالحدس ليس آلة تعمل بأمر العقل الواعي، ولا زراً نضغظ عليه عند الحاجة. إنه عملية عفوية تنتمي إلى عالم اللاوعي، ولذلك يصعب إخضاعها للرغبات المباشرة أو التحكم بها بصورة كاملة.

ولهذا لا يمكننا أن نطلب من صاحب الحدس القوي أن يستحضر هذه الحالة في كل وقت، أو أن يقرأ المسارات الخفية متى طلبنا منه ذلك؛ لأن الإدراك الحدسي لا يعمل وفق قوانين التفكير المنطقي المعتادة، بل وفق آليات أعمق وأكثر تعقيداً من أن تخضع للإرادة الواعية المباشرة.

ولتقريب الفكرة، تأمل لاعباً محترفاً في كرة السلة أو كرة القدم أو البولينغ. ففي لحظة التسديد، وقبل أن تصل الكرة إلى هدفها، يشعر أحياناً - ومنذ اللحظة الأولى لانطلاقها - بأنها ستصيب أو ستخطئ. هذا الشعور لا يكون نتيجة حساب منطقي وإع، لأن الوقت لا يسمح بذلك أصلاً، وإنما هو ثمرة قراءة سريعة ومعقدة يقوم بها اللاوعي اعتماداً على خبرات وتجارب وإشارات متراكمة التقطها في أجزاء من الثانية.

كيف نُني شجرة الحدس؟

إن بذرة الحدس موجودة في داخل كل إنسان، لكنها تختلف في درجة نموها وقوتها من شخص إلى آخر. وكما تنمو الشجرة بالرعاية والاهتمام، تنمو القدرة الحدسية بالالتفات إلى إشاراتنا وملاحظتها دون إفراط أو تكلف.

غير أن القاعدة الأهم في هذا الباب هي أن الحدس الحقيقي يأتي عفويًا، ولا يُستخرج بالقوة. ولهذا يمكن تلخيص القاعدة الذهبية بقولنا: «دع الحدس يتبع الفكرة، ولا تجعل الفكرة تطارد الحدس.»

فكلما حاول الإنسان افتعال الحدس وإجبار نفسه على توقع الأحداث، اختلط عليه الحدس الحقيقي بالأمنيات والخاوف والتخمينات. أما حين يترك للاوعي حريته في العمل، فإن الإشارات تأتي بطبيعتها وفي وقتها المناسب.

ولهذا فإن أفضل ما يمكن أن يفعله الإنسان هو أن يلاحظ هذه اللحظات الحدسية عندما تقع، وأن يمنحها شيئاً من التقدير والانتباه. فإذا صدق حدسه في موقف من المواقف، فليقف لحظة متأملاً فيما حدث، وليشكر ذاته على حسن الإصغاء لما التقطه لاوعيه من إشارات. إن هذا الالتفات الهادئ، وذلك الامتنان البسيط، يساعدان الإنسان على توثيق صلته بعالمه الداخلي، ويجعلان إدراكه أكثر حساسية تجاه تلك الإشارات الدقيقة التي تمر غالباً دون أن ينتبه إليها معظم الناس. وهكذا تنمو شجرة الحدس شيئاً فشيئاً، حتى تصبح النفس أكثر قدرة على قراءة بعض المسارات الخفية التي تجري في نهر الوجود الكبير.

قانون الجذب الكوني بين حقيقة التجلي و وهم التفاؤل

سؤال: ما هو «قانون الجذب» وكيف يعمل؟ ولماذا ينجح مع بعض الناس ويفشل مع آخرين؟ وهل هو ذات التفاؤل الذي حثّ عليه الإسلام؟

وجوابي على ذلك هو:

من أكثر المواضيع التي أُسأل عنها هو «قانون الجذب»، والذي أسميناه في فصول كتابنا السابقة بـ «قانون التجاذب الكوني». وربما كان أكثر ما يحير الناس فيه هو أنهم يسمعون عنه كثيراً، ويجربونه أحياناً، ثم لا يرون النتائج التي توقعوها، فيظنون أن الفكرة كلها باطلة أو خيالية. لكنني أرى أن معظم الإشكال لا يكمن في القانون نفسه، بل في سوء فهمه وتطبيقه.

وقبل أن ندخل في التفاصيل، دعوني أختصر رؤيتي لهذا القانون في عبارة واحدة: "أن تبني في خيالك ما تريده بناءً واضحاً، وتعيش لحظة تحققه شعورياً بفرح و يقين واطمئنان، ثم تتركه وتمضي في حياتك دون خوف أو ترقب أو تعلق". طبق ذلك كل يوم ثلاثة مرات في أوقات متفاوتة، كل مرة دقيقة او دقيقتين فقط .

هذه هي الفكرة في جوهرها. فكثير من الناس يتصورون أن الجذب يعني تكرار الأمنيات، أو الانشغال الدائم بالمطالب، أو مراقبة النتائج كل ساعة؛ بينما أرى أن هذا السلوك هو من أكبر أسباب الفشل! لأن الإنسان حين يبقى متعلقاً بطلبه تعلقاً مرضياً، خائفاً من عدم تحققه، مترقباً له في كل لحظة، فإنه في الحقيقة يغذي داخله مشاعر النقص والقلق والافتقار أكثر مما يغذي مشاعر الوفرة واليقين.

ولهذا كثيراً ما يأتيني من يقول: "لقد طبقت قانون الجذب ولم أستفد شيئاً". فأجيبه بأن أول ما ينبغي أن ينظر إليه ليس النتيجة الخارجية، بل حالته النفسية الداخلية:

- هل تستيقظ في صباحك مطمئناً أم قلقاً؟
- هل تشعر بالراحة أم بالوحشة؟
- هل تنام على يقين وفرح أم على خوف وشك؟ لأن هذه المشاعر - في نظري - هي المؤشر الأول الذي يكشف طبيعة الطاقة التي يعيشها الإنسان، والمسار الذي يسير فيه. هذا المؤشر لا يخص قانون التجاذب في أمر محدد بذاته بل في كل شؤون الإنسان في هذه الحياة، ومن هنا يعرف طريقه هل هو طريق وفرة وسرور أم هو طريق فقر وضيق .

وهنا تتجلى القاعدة الأساسية التي يغفل عنها أكثر الناس: ليس المطلوب أن تتمسك بطلبك، بل أن تحرره من التعلق. وليس المطلوب أن تراقب النتيجة باستمرار، بل أن تسمح لها بأن تسري في مجاريها الطبيعية دون أن تخنقها بالخوف والشك وقلق الانتظار. ولكي تتضح الصورة أكثر، لا بد أن نميز بين قانون التجاذب كما أفهمه، وبين مفهوم آخر يخلط الناس بينهما كثيراً؛ ألا وهو مفهوم «التفاؤل».

الفرق الجوهرى بين التجاذب-الجذب والتفاؤل

هناك الكثير من المسلمين يخلطون بين قانون التجاذب الكونى وبين مفهوم "التفاؤل"، ويظنون واهمين أن نبيهم قد أشار إلى هذا القانون حين دعا إلى التفاؤل وحسن الظن، لكن هذا القياس غير صحيح إطلاقاً.

التفاؤل يختلف جذرياً عن الجذب. فالتفاؤل في جوهره هو أن تعلق رجاءك بجهة خارجية (كالإله مثلاً)، وتأمل وتظن أنه سيهيك ما تريد. أنت في حالة التفاؤل تقول: "أثفأل بالله أن يرزقني سيارة". في هذه الحالة، السيارة بعيدة عنك، وأنت تعيش حالة "الافتقار" إليها، وتنتظر هبةً تأتيك من الخارج لسد هذا النقص.

أما قانون التجاذب، فلا يوجد فيه توكيل لأطراف خارجية، ولا مكان فيه لثنائية (المُعطي والمُتلقي). الجذب هو أن "تعيش الصورة والأحاسيس" في اللحظة الحاضرة؛ أي أن تعيش شعور حصولك على المطلوب الآن. تخيل أنك تركب تلك السيارة، وتقف بجانبها، وتلمسها، وتغمرك قمة الفرع والسرور بامتلاكها الفعلي. لذلك أقول دائماً: إن قانون التجاذب هو عملية تبدأ وتكتمل (منك، وفيك، ولك). لا يوجد في هذه المعادلة إلا أنت، وصورك الذهنية، وأحاسيسك التي تتفاعل مباشرة مع نسيج الوجود.

وحتى لو اعتبرنا أن التفاؤل خصلة نفسية جميلة، فهو يقيناً ليس اختراعاً دينياً ولا اكتشافاً نبوياً! بل هو طبع بشري أصيل، عُرف منذ فجر الوعي الإنساني. فقد كانت الشعوب القديمة والعرب تتغنى بالتفاؤل وتحذر من التطير والتشاؤم قبل ظهور الأديان بكثير. الأديان لم تخرع التفاؤل، بل استعارته من الفطرة البشرية ووظفته في نصوصها.

والخلاصة هنا: أن التفاؤل أملٌ وانتظار وطلب من كيان خارجي، أما قانون التجاذب الكوني فهو آلية طاقوية دقيقة، تعمل بقوة اليقين، وضبط الترددات، والاستشعار العميق لوفرة اللحظة، لا بمجرد توقع العطايا من الخارج. وهذا القانون يُعد أحد الأدلة المهمة على صدق رؤية «روح الحياة» التي تؤمن بالانبثاق، وبأننا نحن مظاهر «روح الحياة» المقدسة، وعلمنا أن نعيش الحالة لا أن نطلبها من إله منفصل عنا.

كيف أفعل قانون التجاذب وأنا من أصحاب النحوسات؟

سؤال: كيف أفعل قانون التجاذب وأنا أعدّ من أصحاب النحوسات؟ كيف يمكن للإنسان أن يفعل هذا القانون إذا كان مثقلاً بالخوف والقلق وسوء الظن بالحياة، واعتاد التعثر في أموره؟ أم أن نجاح هذا القانون يقتصر فقط على من يمتلكون اليقين والثقة منذ البداية؟

الجواب: من أكثر الأخطاء شيوعاً أن يحاول الإنسان تطبيق قانون التجاذب الكوني على أعظم قضاياها وأشدها حساسية منذ اللحظة الأولى؛ فهو يريد أن يحل مشاكله الكبرى دفعة واحدة، وأن يبدل واقعه كله في أيام معدودة، مع أن ذهنه ما يزال ممتلئاً بالخوف والشك والاضطراب. وهنا تقع الانتكاسة؛ لأن النفس المرتبكة لا تستطيع أن تنتقل فجأة من قاع الخوف إلى قمة اليقين الكامل.

ولذلك، فإنني أتعاطف بشدة مع كل من يقول: "حاولت تطبيق هذه المبادئ ولم أنجح". فبعض الناس يحملون أثقلاً نفسية وتجارب قاسية تجعل القلق جزءاً من نسيج حياتهم اليومية. وهناك من يشعر منذ سنوات طويلة بأن الأمور تتعثر في وجهه أكثر مما تيسر، حتى يترسخ في لاوعيه اعتقاد جازم بأنه من أصحاب "الحظ العاثر" أو المسارات المعاكسة.

وفي رؤيتي لـ «روح الحياة»، فإن هؤلاء ليسوا أقل حاجة إلى قانون التجاذب من غيرهم، بل هم أشد الناس احتياجاً إليه؛ لأنهم الأكثر معاناة من الخوف والتوقعات

السلبية. غير أن طريقهم للنجاح لا يبدأ من القضايا الكبرى والمصيرية، بل يبدأ من التفاصيل الصغيرة التي لا تثير في نفوسهم توتراً أو مقاومة.

ولهذا أنصح دائماً بـ "التدرج في بناء اليقين". لا تبدأ بتطبيق القانون على الوظيفة التي تنتظرها منذ سنوات، ولا على العلاقة التي تخشى خسارتها، ولا على المشكلة التي تستنزف أعصابك ليل نهار (لأن خوفك من الفشل فيها سيكون أقوى من يقينك بالنجاح). بل ابدأ بشيء بسيط لا يحمل شحنة انفعالية ضاغطة؛ كزيارة متجر، أو البحث عن موقف لسيارتك، أو إنجاز مهمة يومية عادية.

خطوات التدرج العملي: قبل أن تخرج من بيتك – على سبيل المثال – اجلس لدقائق معدودة، وأغمض عينيك. تخيل أنك وصلت إلى وجهتك بسهولة، وأنت وجدت موقفاً فارغاً لسيارتك وكأنه كان ينتظرك، واستشعر مدى سعادتك وارتياحك وأنت تركن سيارتك فيه بيسر. أو تخيل أنك دخلت المتجر الذي تقصده ولم تجد زحاماً أو أحداً يزججك، وأن أمورك جرت بسلاسة تامة.

عش هذا المشهد وكأنه وقع بالفعل، واستشعر الرضا والفرح اللذين ستشعر بهما عند نجاحه. ثم اشكر روح الحياة أو الوجود على هذا التيسير الذي رأيته في خيالك، وانهض بعد ذلك وامض في يومك بصورة طبيعية تماماً، دون ترقب أو قلق.

إن القيمة الحقيقية لهذا التدريب لا تكمن في الموقف نفسه، أو في المتجر، أو في المهمة الصغيرة، بل في الأثر الذي يتركه داخل النفس. فكل تجربة ناجحة تضيف لبنة جديدة إلى بناء الثقة، وكل نجاح بسيط يخفف شيئاً من مقاومة العقل الباطن، ويكسر حدة خوفه واعتراضه.

وعندما تطبق هذه الطريقة البسيطة الخالية من ضغط "الخوف من الفشل"، ستشعر
بوقعها المباشر، وسترى كيف يتجاذب معك الوجود ليصنع لك تيسيرات تبدو
كالمعجزات الصغيرة. وهنا يحدث السحر الحقيقي: سيتفاعل ذهنك، ويبدأ بتبني اليقين،
ويصدق فعلياً وعملياً بوجود هذا القانون. ومع مرور الوقت، يبدأ الذهن بالتعامل مع
هذه الممارسات بقدر أكبر من الاطمئنان، ويصبح الانتقال إلى القضايا الأكبر أسهل
وأهدأ؛ فاليقين لا يفرض على النفس فرضاً، وإنما يُبنى بالتجربة المتدرجة حتى يتحول إلى
حالة راسخة في الداخل.

والخلاصة: لا تبدأ رحلتك مع التجاذب الكوني لطلب أعظم أحلامك، بل انطلق فيه
من أبسط تفاصيل يومك. فإذا تعلّم العقل أن يثق بالخطوات الصغيرة، أصبح أكثر
استعداداً وجاهزية للسير نحو الخطوات الكبيرة.. إن قطرة الماء الأولى هي التي تشكل
النهر وتُعلمه كيف يجري.

وحدة الوجود: بين شطحات المتصوفة ورؤية «روح الحياة»

سؤال: هل تؤمن بوحدة الوجود؟ وما الذي يميز رؤيتك لها عن رؤية المتصوفة؟

وجوابي هو: إن الإجابة عن هذا السؤال لا يمكن اختزالها بكلمة «نعم» أو «لا»، لأن مصطلح «وحدة الوجود» من أكثر المصطلحات التباساً في تاريخ الفكر الإنساني. فقد استُعمل للدلالة على رؤى متباينة، بل ومتعارضة أحياناً، حتى صار كثير من الناس يوافق عليه أو يرفضه دون أن يحدد المعنى الذي يقصده منه.

ولذلك فإن الخطوة الأولى لفهم هذه القضية ليست إصدار الأحكام، بل تحرير المصطلحات وتمييز المعاني بعضها من بعض؛ لأن الخلط بينها هو أصل كثير من النزاعات الفكرية التي دارت حول هذا المفهوم عبر القرون.

ولتفكيك هذا الاشتباك وبيان موقفنا، سأبني إجابتي وفق تسلسل منهجي يوضح رؤية «روح الحياة» بدقة:

أولاً: تحرير المصطلحات (وحدة الوجود، الحلولية، الواحدية)

قبل الخوض في موقفنا، يجب التمييز بين ثلاثة مفاهيم كبرى تداخلت في الأذهان:

1. وحدة الوجود المفارقة (Panentheism): في السياق الصوفي والعرفاني، هي

الفكرة التي تقول إن الوجود حقيقة واحدة تتمثل في الله، وأن الكون ومخلوقاته

ليست منفصلة عنه بل هي مظاهر لتجلياته. لكن أصحاب هذا الاتجاه يحتفظون

للإله بحيز ذاتي متعال يتجاوز الطبيعة والمادة، كما يظهر في رؤية محي الدين بن

عربي وابن الفارض⁴⁸. ويقارب هذا المفهوم في التراث التنزيهي فكرة التعبير عن الحق عبر المظاهر. ورغم أن خصومهم أطلقوا عليهم مصطلح «الاتحادية» كنوع من الذم، إلا أن الاتحاد يفترض مسبقاً وجود كيانه منفصلين اندمجا لاحقاً، وهو ما ينفيه هولاء أصلاً.

2. الحلولية (Inherence): وهي فكرة ساذجة ومختلفة تماماً، تفترض ابتداءً أن الإله خلق الكون ككيان منفصل ومستقل، ثم «حلَّ» فيه أو في بعض أجزائه (كحلول الروح في الجسد، أو الماء في الإناء). وهذا المفهوم نرفضه رفضاً قاطعاً في فلسفتنا؛ لأنه يكرس الانفصال الثنائي أولاً، ثم يحاول ترقيعه بعملية الحلول ثانياً.

3. الواحدية المجردة (Monism): مصطلح أوسع مشتق من الفلسفة اليونانية القديمة، ويعني أن الوجود يرجع في جوهره إلى أصل واحد تندمج فيه الكثرة. وينقسم هذا المفهوم جذرياً إلى قسمين:

○ الواحدية المادية: ترى أن الكون المادي بقوانينه الفيزيائية هو الوجود الوحيد، ولا يوجد إله مفارق. وإطلاق لفظ «الإله» فيها هو مجرد اسم رمزي لقوانين الطبيعة الصارمة، وهو ما يلتقي مع الفلسفات المادية الكلاسيكية.

⁴⁸ محيي الدين بن عربي وابن الفارض: من أبرز أقطاب التصوف الإسلامي. ابن عربي (الملقب بالشيخ الأكبر) هو المنظر الفلسفي الأبرز لعقيدة "وحدة الوجود" في التراث الإسلامي، في حين يُعد ابن الفارض (سلطان العاشقين) أبرز من صاغ هذه العقيدة شعراً وجداناً.

○ الواحدة الروحانية: ترى أن الكون المادي يعبر في حقيقته عن طاقة
علياً أو روح كامنة سارية في كل ذرة، كانت موجودة قبل التكوين
المادي المشهود، وستبقى قائمة بعده.

ثانياً: العثرة الصوفية هل هي تغني شهودي أم تمثل وجودي؟

هنا أطرح إشكالي الجوهرية على المتصوفة والعرفاء الذين يدعون تبني وحدة الوجود،
وأقول: إن إيمانهم بهذا المفهوم هو غالباً «تغني شهودي» تفرزه شطحاتهم وأحوالهم
الوجدانية المؤقتة، وليس اعتقاداً وجودياً متجذراً ومتسقاً من الناحية المعرفية والسلوكية.
لماذا أقول ذلك؟ لأن وحدة الوجود الحقيقية تفرض مساواة جذرية في أصل الوجود
والتكوين. فإذا كان كل شيء في الكون هو مظهر للنور الواحد الفياض، فلا يمكن -
من حيث الأصل - تفضيل ذرة على ذرة، أو اعتبار موجودات طاهرة بذاتها وأخرى
نجسة بذاتها تكوينياً. كما لا يمكن جعل بعض الأشخاص وسائط حصرية في الخلق،
يتملكون سبقاً وجودياً متفرداً على بقية البشر، كما يزعمون مثلاً في نظرية «النور المحمدي
الأول». هذا التناقض الصارخ يفضح خلل منظومتهم الفكرية؛ فهم يشهدون الوحدة
المطلقة في لحظات الوجد والجذب، لكنهم حين يعودون إلى وعيمهم اليومي يمارسون
التفرقة، ويقدمون الأشخاص، ويخضعون لتراتبية دينية وطبقية صارمة! إنهم كمن يقرأ
كتاباً عظيماً في الأخلاق ويعجب بكلماته، لكنه يعجز عن تطبيق هذه الكلمات وعيشها
وتمثلها في واقعه.

لذلك أقول: إن ما يعيشه الصوفية هو «وحدة شهود» - أي أنهم لا يشهدون بوجودهم إلا الله في لحظة استغراق معينة - ولكنه ليس «وحدة وجود» فلسفية متسقة ترفض التفاضل الطبقي في أصل التكوين.

ثالثاً: الوحدة من منظور «روح الحياة»

إن رؤيتنا في فلسفة «روح الحياة» لا ترتحن بتمامها لأي من تلك القوالب الكلاسيكية، بل تتجاوزها لتقدم مقارنة مستقلة تتجاوز تناقضات الصوفية المائعة ومادية الفلاسفة الجافة، لتجمع بين مادية الوجود وروحانيته في نسيج واحد. في رؤيتنا، يشكل الكون بمن فيه وما فيه قطعة واحدة؛ بنية طاغوية ورقية وشبكية متصلة ذات مجار حيوية لا تنقطع. الوجود لدينا لا ينقسم إلى خالق جبار منفصل مستبد، ومخلوق ذليل محتقر. إن «روح الحياة» ليست كياناً مشخصاً يجلس على عرش مادي خارج الكون ليدبر الأمور بآلية التحكم عن بُعد؛ بل هي الطاقة الأزلية، والنور المقدس، والذبذبة الحية السارية في أعماق كل ذرة من ذرات هذا الوجود. بناءً على ذلك، تنتفي الحاجة إلى وجود وسائط أو رجال كهنوت بين الإنسان وروح الحياة. فالإنسان، والشجرة، والكوكب، يتشاركون ذات النور في الأصل التكويني الأول. والارتقاء في هذا الكون لا يتم عبر الشفاعات والتراتيبات الدينية، بل بمدى تطهير الإنسان لوعيه الخاص، وقدرته على ضبط تردداته الذاتية ليتناغم ويتحد مع هذه الشبكة الوجودية الأزلية.

رابعاً: لماذا تبدو الوحدة ضرورة فكرية حتمية؟

قد يسأل سائل: لماذا تتكرر فكرة الوحدة بانتظام في حضارات متباعدة وثقافات مختلفة؟

وجوابه: أن ذلك لا يعود إلى نزعة عاطفية للتماهي مع الطبيعة، بل إلى إشكال عقلي ومنطقي يواجه كل من يفكر في أصل الوجود. فإذا افترضنا وجود قوة عليا مطلقة، ثم جعلناها منفصلة عن الكون قائمة في جهة مخصوصة أو موضع مخصوص خارجه، وقعنا فوراً في تناقض فلسفي؛ لأن كل ما كان في جهة محددة كان متعيناً ومحدوداً بها. وكيف يكون الأصل مطلقاً وغير محدود، ثم يحده حد ويقيده قيد ويفصله فاصل عما سواه؟ من هنا كانت الوحدة محاولة حتمية لتجاوز الانفصال الحاد بين الخالق والمخلوق. غير أن رؤيتنا في «روح الحياة» لا تنكر التنوع المشهود؛ فالشجرة ليست هي الإنسان، والنجم ليس هو الكوكب. التعدد واضح في الصور والوظائف، لكنه لا ينفي الأصل الجامع. وكما تتنوع أمواج البحر في أشكالها واتجاهاتها وتعود جميعاً لماء واحد، كذلك الموجودات؛ فهي تعبيرات وظهورات متنوعة عن أصل كوني واحد. وما نسميه «روح الحياة» ليس حاكماً يقف خارج شبكة الوجود، بل هو الأصل الحي النابض الذي تستمد منه هذه الشبكة حركتها واستمرارها.

خامساً: تجليات الترابط العلمي

من هنا نفهم تكرار صور الترابط في الطبيعة على كل المستويات. الإنسان مرتبط ميكانيكياً وحيوياً بالأرض، والأرض بالمسار الشمسي، والشمس بموقعها في المجرة.

وكلما توسع العلم الحديث، اكتشف مزيداً من التشابكات الكمومية⁴⁹ بين الأشياء التي
ظنها الإنسان قديماً منفصلة. إن الوحدة في هذا التصور ليست نفيّاً للتنوع، بل هي
التفسير الوحيد له؛ وهي ليست إلغاءً للفروق، بل بحث وإعّج عن الأصل الحي الذي
تنبثق منه.

خلاصة القول: إن الإيمان بوحدة الوجود وفق رؤية «روح الحياة» لا يقوم على شطحة
وجدانية عابرة، بل يبني تصوراً فلسفياً وعلمياً متسقاً يرى الكثرة في الظاهر، والوحدة
والاتصال في الأصل العميق. كل موجود هو خيط حيوي في نسيج كوني واحد.
والوحدة هنا ليست شعاراً روحانياً، بل قانون تكويني. ومن أدرك هذه الحقيقة، لم يعد
يرى نفسه كائناً معزولاً، بل جزءاً واعياً ونورانياً من نسيج متصل بنور الوجود بلا
وساطة. فلا وجود لإله منفصل مستقر في جهة مادية؛ لأن ذلك يجعله محدوداً محتاجاً
للمكان. «روح الحياة» لا يمكن أن تكون خارج الوجود لثلاثاً، بل هي الوجود ذاته
في أسمى تجلياته الطاقوية والواعية.

⁴⁹ التشابكات الكمومية (Quantum Entanglement): ظاهرة في فيزياء الكم تثبت ارتباط الجسيمات دون الذرية ببعضها ارتباطاً وثيقاً ولحظياً مهما بلغت المسافة بينها، بحيث يؤثر ما يحدث لأحدها على الآخر فوراً. ويُستدل بهذا علمياً وفلسفياً على أن الانفصال بين الأشياء في الكون هو انفصال ظاهري فقط، بينما الوجود في عمقه شبكة واحدة متصلة.

مسألة الجبر والاختيار: بين الوعي واللاوعي

سؤال: هل الإنسان مسير أم مخير؟ وهل نملك حرية الاختيار؟

الجواب: إن الإجابة عن هذا السؤال العتيق تحمل حقيقة قد تصدم الكثيرين: نحن في الأصل مسيرون. ولكن، ليس بالمعنى اللاهوتي أو الغيبي التقليدي الذي يُصور الإنسان كدمية عاجزة تحركها خيوط قدرية قاهرة لا يملك حياها شيئاً، بل نحن مسيرون من جهة تكويننا الداخلي، وتحديداً من جهة ذلك العالم الخفي المهيمن الذي نسميه "اللاوعي" أو "اللاشعور".

يعيش الإنسان في وهمٍ مريح يجعله يظن في أكثر الأحيان أنه صاحب القرار المطلق، وأنه يختار كل شيء بإرادته الحرة الواعية، بينما الواقع أعمق من ذلك بكثير. نخلف كل قرار نتخذه، وكل ميل نشعر به، وكل انفعال يسيطر علينا، تقف منظومة هائلة من الذكريات والصور والانطباعات والتجارب المتراكمة، التي تعمل في أعماق النفس بصمت، ثم تدفع نتائجها إلى العقل الواعي على هيئة رغبات وأفكار وأحاسيس يظنها الإنسان صادرة منه اللحظة. ولتفكيك هذه الجدلية وبيان كيفية استعادتنا لحرية الاختيار، دعنا نتدرج في فهم هذه الآلية:

أولاً: بين مستودع اللاوعي وواجهة الوعي

إن اللاشعور هو مستودعنا الهائل للصور والمعلومات والأحاسيس. فبينما يحتفظ عقلك الواعي بجزء ضئيل مما يركز عليه انتباهك في اللحظة الراهنة، يقوم لاوعيك بتخزين كميات مهولة من التفاصيل. عندما تقود سيارتك في طريق مزدحم، قد تدرك بعقلك الواعي

عشرات الأشياء فقط، لكن لا وعيك يكون قد التقط وخزن آلاف المشاهد والإشارات دون أن تشعر. هذا المستودع العميق هو الذي يفيض على العقل الواعي، فيُحسّن له أموراً ويُقَبِّح أخرى، ويثير فيه الانجذابات أو النفور. من هنا تبدأ عملية التسيير الخفية؛ فالعقل الواعي غالباً ما يأتي متأخراً ليلعب دور "المترجم" الذي يشرح ويبرر القرار، لا دور "الصانع" الأول له.

ثانياً: شواهد يومية على سلطة اللاوعي

لكي ندرك مدى سلطان اللاوعي علينا، يكفي أن نتأمل يومياتنا. كم مرة أحيينا شخصاً من النظرة الأولى دون سبب منطقي؟ وكم مرة نفرنا من آخر دون مبرر؟

هل تساءلت يوماً: لماذا تشتهي أن تتلذذ بكوب قهوة هذا الصباح، بينما تميل بشدة لشرب الشاي في صباح اليوم التالي؟ لو كان الأمر مجرد تفضيل واعي ثابت، لاخترت مشروباً واحداً كل يوم بنفس الدرجة. إن هذا التنوع في الميول والقرارات المفاجئة هو نتاج تفاعلات خفية في اللاوعي؛ تنطلق شرارتها من حيث لا تشعر، لتدفع وعيك نحو اختيارٍ تتوهم فيه أن هذا الاختيار هو اختيارك الحر. ولهذا نجد الناس يكررون الأخطاء نفسها مراراً رغم إدراكهم الواعي لضررها؛ فالمعرفة العقلية وحدها لا تكفي، لأن جذور السلوك تقبع في أرض اللاوعي العميقة.

ثالثاً: قبطان السفينة والتيارات الجارفة

الإنسان في هذه الحالة أشبه بربان سفينة صغيرة تسير فوق بحرٍ لحيٍّ عظيم؛ يظن الربان أن حركة الدفة التي يمسكها بيده هي التي تحدد مسار الرحلة بالكامل، بينما توجد تحت

سطح الماء تيارات محيطية هائلة لا يراها، تؤثر في اتجاه السفينة أكثر مما يتصور. هذه التيارات الخفية هي اللاوعي. فنحن، من هذه الزاوية، مسيّرون إجبارياً بما خُزنَ فينا. ولكن أين يكمن سر الاختيار إذن؟

رابعاً: خادم البوابة: أين يكمن الاختيار الحقيقي؟

الاختيار الحقيقي لا يكمن في إيقاف عجلة التسيير، بل في التأثير عليها وتوجيهها. فالإنسان لا يستطيع أن يمنع اللاوعي من العمل، لكنه يملك القدرة التامة على "اختيار ما يودعه فيه". لا يكفي أن يردد الإنسان الكلمات الجميلة بلسانه، بينما يملأ عقله الباطن بصور الخوف والعجز والتشاؤم. اللاوعي لا يتأثر بما نقوله عرضاً، بل بما نكرره باستمرار، وما نعيشه بعمق، وما نمنحه انتباهنا المتواصل. إن كل صورة نراها، وكل كلمة نسمعها، وكل فكرة نكرها، هي بذرة تُلقى في تربة النفس. بعضها ينمو كشجرة وارفة تمنحنا القوة، وبعضها يتحول إلى أشواك تدمينا. ولذلك، فإن مسؤوليتنا الكبرى — واختيارنا الحقيقي — لا يكمن في التحكم اللحظي بكل نتائج الحياة، بل في "حراسة البذور" التي نسمح لها بالاستقرار في أعماقنا. عندما نتقي بعناية ما نقرأه ونشاهده والبيئات التي نعاشرها، فإننا نعيد برمجة مخزوننا الباطني، لتتبدل اختياراتنا ومساراتنا بصورة طبيعية.

خامساً: الجينات والمحفزات.. قوة التوجيه في رؤية «روح الحياة»

بالطبع، لا يمكننا أن ننكر المدخلة القوية والأثر العميق للعوامل الحيوية والوراثية؛ فالإنسان يرث من أسلافه حزمة من الاستعدادات والطباع التي تؤثر في جذور تصرفاته.

ولكي تتضح الصورة، لنأخذ "القتل" كمثال. في الوضع الطبيعي، فليس كل إنسان يمتلك القدرة النفسية والذهنية على إزهاق روح أخرى. نحن لا نتحدث هنا عن ساحات الحروب أو الدفاع المباشر عن النفس، بل نقصد القتل البشع؛ كقتل الغيلة والغدر، أو تصفية إنسان بدم بارد لمجرد الاختلاف معه في الدين والعقيدة، أو امتعاضاً من رأي أو منهج، أو طمعاً في سرقة ومصلحة مادية. إن الإقدام على فعل وحشي ظلامي كهذا يتطلب استعداداً جينياً وموروثاً دينياً يهيئ صاحبه لمثل هذه القسوة. فموروثات البشر — الحسنة منها والسيئة — تقبع في الأعماق كـ "كوامن"، وهذه الكوامن لا تستيقظ من تلقاء نفسها، بل تتفاعل وتتخرب "المحفزات". فإن تعرضت لمحفزات خيرة تفاعلت بالخير، وإن تعرضت لمحفزات سلبية — نتيجة لعلّة أو بيئة مشوهة — استثيرت هذه الكوامن المظلمة وظهرت للعلن. فالذي يحمل في تكوينه كوامن قاتلة، وتتوفر له المحفزات السلبية، سينتهي به المطاف قاتلاً.

وعلى هذا فإننا في رؤية «روح الحياة» لا نتعامل مع هذه العوامل الوراثية والكوامن الجينية بوصفها قدراً مغلقاً وسجناً حتمياً لا فكاك منه، بل هنا يتجلى الدور الأهم لـ "خادم البوابة" (العقل الواعي)؛ فالقاتل أو المجرم، الذي يحمل تلك الكوامن، ما كان لينحدر نحو الهاوية لولا أنه استسلم للمحفزات، وسمح للصور المشوهة والأفكار المظلمة بالتراكم في لاوعيه، فغذى جيناته المظلمة واستدعاها بدلاً من كبجها.

إن اللاوعي المهدّب، المدار بإرادة واعية ويقظة، قادر على ترويض أشرس الجينات، وإحداث تغييرات جذرية تمنع تلك الكوامن السلبية من الاستيقاظ. فالاختيار الحقيقي هنا هو أن نحرم بذور الشر الجينية من التربة الخصبة التي تحتاجها لتنمو.

خلاصة القول: السيد القوي والخادم الذكي

إن العقل الواعي منقاد للاوعي أكثر مما يتخيل معظم الناس، لكن الوعي يملك ميزة عظيمة: إنه "يملك مفاتيح المنافذ" لذلك المستودع العميق. يمكن تشبيه العقل الواعي بـ "الخادم الذكي" الذي يعمل عند سيد قوي وجبار هو "اللاوعي". الخادم لا يملك قرار القصر مباشرة، لكنه يستطيع بذكائه وصبره وما يعرضه على سيده كل يوم، أن يؤثر في قراراته ويوجهها الوجهة التي يريد.

وعليه، فطريقنا نحو حرية الإرادة لا يكون بمحاربة اللاوعي أو إنكار سلطانه، بل بفهمه وتغذيته بما نريد أن نجنه في المستقبل. نعم، نحن مسيرون من حيث الأصل بمكنوناتنا، لكننا نملك أداة التأثير: وهي بوابة الوعي التي تؤدي إلى غرس البذور في اللاوعي؛ فنختار ما نغرسه اليوم، لنؤثر في ما سيقوم بتسييرنا غداً.

وهم التناسخ وتقمص الأرواح: بين الخلل الفلسفي وعبقريّة اللاوعي

سؤال: هل تؤمن بـ «التناسخ» أو تقمص الأرواح؟ وكيف تفسر — إن كنت ترفض الفكرة — تلك الحالات الغريبة لأشخاص يدّعون تذكر تفاصيل دقيقة من حيوات سابقة، أو يتحدثون فجأة بلغات غريبة لم يتعلموها قط؟

الجواب: باختصار وبوضوح تام: أنا لا أؤمن بفكرة التناسخ أو تقمص الأرواح، ولا أرى فيها حكمة ولا عدلاً، كما أنها لا تنسجم أبداً مع الرؤية العقلانية التي أتبناها لنواميس الوجود وآليات الوعي. ولتفكيك هذه الفكرة وتفسير الظواهر الغامضة المرتبطة بها، سأقسم إجابتي إلى شقين:

أولاً: الخلل المنطقي والأخلاقي لفكرة التناسخ إذا كان دعاة التناسخ يزعمون أن الغرض منه هو «التكامل الروحي» وتطور الأرواح عبر حيوات متعددة، وأن الروح التي تبلغ كمالها وتصل إلى «النيرفانا»⁵⁰ تتحرر وتنتقل من عالمها الدنيوي إلى عالمها النوراني، فإن السؤال البديهي الذي يفرضه العقل هو: لماذا لا نرى هذا التطور الروحي والأخلاقي يتجلى بصورة واضحة وجليّة في مسيرة البشرية لتكون أكثر سلاماً ودعة؟ ولماذا تستمر الأنماط ذاتها من الجهل والعنف والصراع في الظهور جيلاً بعد جيل؟

ثم يأتي التساؤل المنطقي العجيب الذي لا بد أن يُطرح: إذا كانت الأرواح تتطور وتحرر وتغادر دورة التناسخ، فلماذا يتزايد عدد البشر باطّراد ولا يقل؟ لو أن هناك

⁵⁰ النيرفانا (Nirvana): مصطلح سنسكريتي يمثل حجر الزاوية في الفلسفات الشرقية (كالبوذية والهندوسية). يشير إلى حالة الانعتاق النهائي والخلّاص التام من دورة التناسخ والولادات المتكررة، وبلوغ السكينة المطلقة بانطفاء نيران الرغبات والأوهام المادية.

أرواحاً قد تحررت ووصلت إلى عوالمها النورانية حقاً، لكن من المفترض أن تتناقص أعداد البشرية بمرور الزمن، لكن الواقع يشهد العكس تماماً؛ فنحن نكثر عدداً ولا نقل!

أما إذا قيل إن التناسخ صورة من صور العقاب (الكارما⁵¹)، وإن الروح تعود لتحصّد نتائج أخطاء ارتكبتها في حياة سابقة، فإن الإشكال يصبح أعمق؛ إذ كيف يستقيم في ميزان العدالة أن يُعاقب إنسان في حياته الحالية على ذنب لا يتذكره، ولا يعيه، ولا يعلم بوقوعه أصلاً؟ إن التعلم لا يتحقق إلا بوجود "ذاكرة" تربط بين الخطأ ونتيجته، وبين التجربة والدروس المستفادة منها. أما أن تُمحي جميع الذكريات السابقة ثم يُطلب من الإنسان أن يدفع ثمنها، فذلك لا يبدو تطوراً ولا عدلاً، بل عبثاً محضاً. ولهذا أقول دائماً: إن هذه الفكرة تشبه تماماً أن تعاقب طفلاً صغيراً في يقظته على خطأ ارتكبه أثناء حلمه، ثم تطالبه بأن يتعلم من العقوبة وهو لا يعرف أساساً ما الجريمة التي عوقب عليها!

ثانياً: تفسير الظواهر الغامضة وفق رؤية «روح الحياة» إذن، كيف نفسر تلك الظواهر العجيبة التي يستند إليها أنصار التناسخ؟ هنا أطرح تفسيراً مختلفاً نابعاً من رؤية «روح الحياة» وفهم آليات الوعي واللاوعي، وهو ما يتضح عبر النقاط الآتية:

النقطة الأولى: الممرات الطاقوية وبقايا الذاكرة المكانية لقد أوضحت في مواضع سابقة أن الكون عبارة عن شبكة مترابطة من المسارات والمجاري الطاقوية. وفي هذه الشبكة لا تتحرك المادة وحدها، بل تتحرك أيضاً المعلومات، والانطباعات، والآثار النفسية، والترددات. أحياناً، يتمكن بعض الأشخاص — ممن يمتلكون حساسية استثنائية أو قابلية

⁵¹ الكارما (Karma): عقيدة شرقية محورية تعني "الفعل" أو "العمل"، وتُعبّر عن قانون "السبب والنتيجة" الأخلاقي. تنص على أن أفعال الإنسان ونواياه في حياته السابقة تحدد حتماً طبيعة معاناته، أو سعادته، أو الطبقة التي سيولد فيها في حياته اللاحقة.

خاصة — من التقاط آثار ومعلومات لا تخصهم بصورة مباشرة. فقد يقف إنسان في مكان شهد أحداثاً استثنائية عنيفة، أو عاش فيه شخص ذو حضور وتأثير عميق، فتلتقط نفسه بعض البقايا الطاقوية المرتبطة بذلك المكان أو الشخص. وحين تنتقل هذه المعلومات إلى أعماق اللاوعي، يبدأ العقل الباطن بترجمتها إلى صور ومشاهد وانطباعات، تبدو لصاحبها وكأنها ذكريات شخصية عاشها بنفسه. ومن هنا يقتنع البعض بأنهم عاشوا حياة سابقة، بينما ما يحدث حقيقة هو تفاعل مع ذبذبات التقطها العقل من خارج حدوده الشخصية.

النقطة الثانية: الاقتباس الذهني (سر اللقاء بعائلات المتوفين) من أكثر الظواهر التي يستدل بها المؤمنون بالتناسخ، ادعاء شخص أنه روح إنسان ميت، ثم يلتقي بأهل المتوفى ويخبرهم بتفاصيل دقيقة لا يعرفها الغرباء. التفسير هنا يكمن في ظاهرة "الاقتباس الذهني" (قراءة الأفكار). فعندما يقف هذا الشخص أمام عائلة المتوفى، تكون أذهانهم مشبعة بصور فقيدهم وذكرياتهم معه. في هذه اللحظة، يلتقط العقل الحساس لهذا الشخص قدراً من تلك المعلومات المخزنة والمشعة من عقولهم، ثم يعيد إنتاجها بصورة لا واعية. فيظهر الأمر وكأن روح الميت تتحدث من خلاله، بينما الذي حدث في الواقع هو "انتقال للمعلومة" عبر مجرى ذهني أو طاقوي بين الأحياء، وليس انتقالاً لروح الميت! ولأن المعلومات تكون صحيحة ومدهشة، يقع الجميع في وهم التناسخ.

النقطة الثالثة: التحدث بلغات مجهولة (عبقرية اللاوعي التخزينية) أما الظاهرة الأخرى (التحدث بلغات مجهولة): فهي كذلك لا تستلزم اقتراض انتقال الأرواح. فكما أوضحنا، يمتلك العقل الباطن قدرة هائلة على تخزين المعلومات. يمر الإنسان خلال حياته بكم لا يُحصى من الأصوات والكلمات والمشاهد التي لا ينتبه إليها وعيه المباشر، لكنها تستقر في

أعماق اللاوعي. قد يسمع الطفل كلمات أجنبية في فيلم، أو يلتقط عبارات من مسافر عابر، فتتراكم هذه الشذرات اللغوية في مستودع اللاشعور. ثم تأتي لحظة معينة (نتيجة صدمة، انفعال، استرخاء عميق، أو اضطراب نفسي) يُعاد فيها استدعاء هذه المخزونات بطريقة غير متوقعة. وقد يضيف اللاوعي إليها عمليات دمج معقدة تجعل المشهد مذهلاً، فيتوهم البعض أنهم أمام روح قديمة تتكلم بلسانها، بينما الأمر تجلُّ لقدرات العقل الباطن واتساع مخزونه.

خلاصة القول هنا:

إن الإنسان حين يعجز عن فهم بعض الظواهر النفسية والطاقوية المعقدة، يميل بطبيعته إلى إلباسها ثوب الغيب والأسطورة؛ ملء الفراغ الذي يتركه الجهل بالآليات الحقيقية للأشياء. إن العقل البشري أعظم وأعقد مما نزن، وما زلنا في بداية الطريق لفهم مسارات تفاعله مع الوجود. لا توجد أرواح تتناسخ لتعاقب على ذنب منسي، ولا موتى يسرقون أجساد الأحياء ليعودوا إلى الدنيا. كل ما في الأمر أن العقل البشري هو "أعظم لاقط للترددات والمعلومات" في هذا الوجود. فإذا لم نفهم ميكانيكية عمله، وقدرته على الاقتباس الذهني، وطبيعة الممرات الطاقوية، فسنستمر في إلباس ظواهره المدهشة ثوب الخرافة، بينما تكمن الحقيقة في أعماق الوعي نفسه، لا في انتقال الأرواح.

الجاثوم والتشافي بالامتنان: كيف نروض طاقاتنا الشاردة؟

سؤال: ما هو علاج بعض الظواهر والأعراض النفسية المربعة مثل "الجاثوم" (شلل النوم) أو ما يُوهم الناس بأنه "جن عاشق" يهاجم الإنسان ليلاً ويكبس على أنفاسه؟ وكيف نفسر هذه الظواهر ونعالجها وفق رؤية «روح الحياة»؟

الجواب: إن ما يُسمى بـ "الجاثوم" (أو شلل النوم)، وغيره من الظواهر المشابهة التي تُرهّب الناس، قد تعددت تفسيراته بين الأمم والشعوب؛ فالبعض يراه من فعل الشياطين، والبعض الآخر يفسره بالأرواح الخبيثة أو الجن. ولا تهمني هنا تلك التفسيرات الموروثة ولا أقف عندها كثيراً، بل يهمني أن أضع بين يديك طريقةً واحدةً أراها يسيرةً وحاسمةً، تستطيع بها أن تدفع هذا العارض عنك، وألا يعود إليك مرةً أخرى.

إن هذا الجاثوم الذي يأتيك ليلاً، ويكبس على أنفاسك ويخنقك، ليس كائناً خارجياً غريباً عنك؛ بل هو - وفق رؤيتي - جزء منك أنت. إنه قطعة من ذاتك، نابعة من دماغك ومن قاع لاشعورك. هو طاقة سالبة كامنة في داخلك، تحفزت وتجسدت بصورة خاطئة لأسباب عديدة. ولأنك تقابلها بالخوف والرعب والمقاومة، فإنها تزداد قوةً في إدراكك، وبتكثف حضورها في وعيك.

أما العلاج فهو سهل وبسيط، ولا يحتاج إلى أدوية، ولا إلى أطباء نفسيين، ولا إلى تعاويد وطقوس، وإنما يكمن في سر واحد وهو: إظهار الامتنان والتفاعل مع الذات.

وطريقة ذلك: أن توجه هذا الخطاب لوعيك بصدقٍ قبل أن تنام؛ لترويض تلك الطاقات مسبقاً. ولكن، إن غفلت عن ذلك، وباغتك الجاثوم ليلاً وكبس على أنفاسك، فاستحضر وعيك في تلك اللحظة، ولا تستقبله برعب أو صراع، بل خاطبه ذهنياً - أو لفظياً إن استطعت - بيقينٍ قائلاً: "لك السلام، ولك المحبة. أنا أعرف أنك قطعة مني، وأدرك أنك جزء مني. أنا متصالح مع ذاتي، وراضٍ عنك. أشكرك، وأقدم لك الامتنان، وأقبلك كجزء مني لتندمج مع ذاتي في طاقة واحدة متناغمة."

إن هذه الكلمات ليست مجرد حروف تُقال، بل هي طاقة وترددات ومعانٍ توجهها إلى أعماقك. فحين تخاطب هذه الحالة بلطف، وترسل إليها مشاعر المحبة والامتنان بدلاً من الرفض والرعب، فإنك تفعل إرادتك الواعية لاحتواء هذه الطاقة الشاردة ودمجها في كيانك. وعندما يحدث هذا الاندماج بصورة صحيحة، تتلاشى تلك البؤرة المضطربة التي كانت تتجسد في صورة الكيان الذي يؤذي.

وأنا أعطيك ضمانتي من واقع تجاربي الشخصية، ومن واقع تجارب كثيرين ممن نصحتهم بهذه الطريقة فاستفادوا منها؛ فمن أول مرة تطبق فيها هذا الخطاب بصدق، قد يختفي العارض ولا يعود أبداً. وإن لم يختفِ بصورة كاملة من الليلة الأولى، فإنه سيضعف ويخف بدرجة كبيرة جداً. وفي المرة الثانية التي تتعامل فيها معه بهذا التقبل والامتنان، ستفاجأ بأنه فقد معظم تأثيره، وربما زال تماماً ولم يعد إليك بعد ذلك أبداً. هذا هو طريق التشافي، وهذا هو النور والإدراك الكوني الذي أدعو إليه.

ومن هنا ينبغي أن نوسع الدائرة، ليمتد هذا الامتنان من حدود ذاتك ليشمل كل موجود أوجدته «روح الحياة». فالامتنان لا يقتصر على التصالح مع طاقاتك الداخلية

فحسب، بل يتسع ليغمر كل ما يطرأ على فكرك وتتصل به حواسك. عليك أن تشكر الهواء الذي تستنشق، والماء الذي تشربه، والطعام الذي يغذي خلاياك، بل وتشكر حتى الطير الذي في السماء والشجر الذي يمنحك الأكسجين؛ فلأشجار ذبذبات وجودية عجيبية، وأسرار طاقوية كامنّة في كل بستان تدخله، لا يحس بها أغلب أهل الأرض بسبب صلادتهم وشدة كثافتهم وانشغالهم بالمادة، حتى غابت عنهم الترددات اللطيفة التي تملأ الوجود.

عليك أن تشكر كل موجود يقدم لك خدمة أو يشاركك رحلة الوجود، بل وأن تتعلم النظر إلى العالم بعين الامتنان لا بعين الاعتياد والغفلة. فإذا أظهرت هذا الامتنان العميق لكل منبثق عن «روح الحياة»، غمرتك لذة الوجود، ودبت فيك حيوية الروح، وشعرت بسمو فكري وإنساني يرفعك درجة بعد درجة نحو الوعي الكوني المنشود.

وختاماً أقول: إن كنت ممن يستشكل أو يستنكر ما أطرحه، فإني أدعوك لأن تجرب هذا الامتنان الصادق والتقبل التام ليوم واحد أو أسبوع كامل، ثم احكم بنفسك وانظر.. هل سيبقى في قلبك متسع للاعتراض أم لا؟

الجن والملائكة: بين أوهام الموروث وبرمجة العقل الباطن

سؤال: ماذا عن الجن والملائكة؟ هل لهما وجود حقيقي؟

وجوابي على ذلك هو:

من حيث ما أرى، ومن حيث اليقين الذي وصلت إليه بعد سنوات طويلة من البحث والتفكير والمراجعة، فإنني لا أؤمن بوجود الجن والملائكة وفق الصورة التي تقدمها الموروثات الدينية الإبراهيمية الشائعة. وهذا الموقف ليس جديداً عليّ، بل أعلنته منذ سنوات طويلة، حتى في المراحل الأخيرة من حياتي الفكرية حين كنت ما أزال أحاول تأويل النصوص الدينية والتوفيق بينها وبين ما أراه من إشكالات عقلية. وقد كتبت آنذاك مقالات ونقاشات مطولة في هذا الموضوع، وما زال كثير منها منشوراً لمن أراد الرجوع إليه.

وحتى لو افترضنا - على سبيل الجدل - وجود عوالم أخرى في هذا الكون المترامي الأطراف، فإن ذلك لا يستلزم أبداً قدرتها على التداخل مع عالمنا المادي المباشر. فالعوالم - إن وجدت - تعمل ضمن ترددات ومسارات مختلفة. والترددات المختلفة لا تتقاطع بالضرورة ولا تتداخل.

ولتقريب الفكرة، يمكن تشبيه الأمر بالسلك الناقل الذي تمر فيه مئات القنوات والإشارات في الوقت نفسه؛ فكل قناة تسير ضمن ترددها الخاص دون أن تختلط صورها أو أصواتها بغيرها. ومن هذا المنظور أرى أن فكرة التداخل المستمر بين البشر

وكيانات غيبية خفية تصاحبهم وتؤثر فيهم تأثيراً مباشراً، تفتقر إلى الأساس المنطقي والطاقوي.

وإذا تجاوزنا ذلك إلى الموروث الديني نفسه، وجدنا كما كبيراً من التصورات التي تثير أسئلة لا تنتهي. فالروايات التراثية تصف الجن بأنهم أمم هائلة العدد، كثيرة التناسل، منتشرة في كل مكان، وتمنحهم في الوقت نفسه قدرات خارقة على التأثير والحركة والتشكل. ومع ذلك لا نجد أثراً مادياً واضحاً يدل على وجودهم بوصفهم كائنات فاعلة تشارك البشر عالمهم. فلا نرى لهم حضارة مستقلة، ولا منجزات علمية، ولا بصمة ملهوسة في مسيرة الأرض، رغم ما يُنسب إليهم من قدرات استثنائية.

وإن تعجب، فاعجب من العقل الذي يقرأ نصوص موروثه ثم لا يرى التناقض الرهيب فيها! فمن يقرأ الروايات الإسلامية عن الجن يدرك حجم المهزلة التي سُجنت فيها العقول؛ فهم يزعمون أن الجن أضعاف البشر ويتناسلون بسرعة، وأن طعامهم هو "الروث والعظام" (كما في الروايات التي تنهى عن الاستنجاء بها)، وأنت لو رششت الملح لتساقطت حباته على رؤوسهم من كثرتهم! هل يُعقل أن كيانات بهذه الكثافة والقدرات الخارقة تعيش بيننا ولا نرى لها أثراً مادياً واحداً؟

بل إن القرآن نفسه يناقض بعضه بعضاً في هذه المسألة؛ فتارة يُقال إن الجن "مكلفون" (كما في سورة الجن)، وتارة تُنسف هذه الفكرة تماماً، كما في سورة الأحزاب: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ). لقد عُرِضت الأمانة على كيانات غير عاقلة كالجبال، وحملها الإنسان.. فأين

الجن من هذا التكليف الكوني؟ لا أثر لهم! إن تفكيك هذه النصوص يثبت عقلاً ونقلاً أن قضية الجن ليست سوى خرافة وأسطورة ورثتها الأجيال.

لكن القضية الأهم في نظري لا تكمن في نقد الروايات، بل في فهم السبب الذي يجعل الناس يرون هذه الأشياء ويؤمنون بها ويقسمون على حقيقتها.

وهنا نصل إلى جوهر المسألة: آلية عمل العقل البشري.

إن الدماغ يشبه نظاماً شديد التعقيد يعمل وفق ما أُودع فيه من صور ومفاهيم ومعلومات. فالإنسان لا يولد صفحة فارغة تماماً، بل يتشكل وعيه عبر طبقات متراكمة من التأثيرات الدينية والبيئية والاجتماعية والثقافية، بل وحتى عبر الموروثات الجينية العميقة التي ما زال العلم يكتشف جوانب جديدة من آثارها.

إن الإنسان يحمل في داخله أرشيفاً هائلاً من الصور والرموز والمخاوف والتوقعات، تراكت فيه عبر سنوات حياته، وربما عبر تاريخ طويل من الخبرات التي انتقلت إليه من بيئته وأسلافه.

وعندما يتعرض الإنسان لضغط نفسي شديد، أو مرض، أو خوف، أو كبت، أو إنهاك جسدي وعصبي، يحدث اضطراب في منظومة الإدراك. وهنا يبدأ العقل بمحاولة تفسير ما يجري داخله.

لكنه لا يفسر ذلك من فراغ، بل يعود إلى أرشيفه المسبق، ثم يلبس هذا الاضطراب الداخلي اللباس الذي يعرفه ويألفه.

ولهذا أقول دائماً إن الإنسان لا يرى الجن لأن الجن ظهر له، بل يرى الصورة التي برمج عقله على استخدامها لتفسير ذلك الإحساس أو الاضطراب.

ففي بيئة تؤمن بالجن قد يظهر الاضطراب على هيئة جنّي أو شيطان. وفي بيئة أخرى قد يظهر على هيئة روح، أو قديس، أو ملاك، أو كائن فضائي، أو أي صورة أخرى متاحة في المخزون الذهني للشخص.

إن الطاقة واحدة، لكن الترجمة تختلف باختلاف البرمجة.

ولكي أختبر هذه الفكرة عملياً، أجريت في الماضي عدداً من التجارب على بعض الأشخاص الذين كانوا يقصدونني لتعلم ما يسمى بالقضايا الروحانية، كاستحضار خدام الآيات والسور والأسماء المنتشرة في كتب السحر والروحانيات.

كنت أعطي أحدهم ورداً معيناً، ثم أخبره أنه إذا اعتزل الناس وكرر هذا الورد عدداً محدداً من المرات، فسيظهر له خادم اسمه كذا، وهيئته كذا، وصفته كذا.

والحقيقة أنني كنت أتعمد في بعض الأحيان اختراع هذه الأسماء والصفات من مخيلتي في اللحظة نفسها، دون أن تكون موجودة في أي كتاب أو موروث سابق.

وبعد أيام أو أسابيع من الخلوة والتكرار والإرهاق الذهني، كان بعض هؤلاء يعودون إليّ وهم في غاية الحماسة، ويؤكدون أنهم رأوا ذلك الكيان كما وصفته لهم تماماً.

لقد رأوا الصورة التي زُرعت في أذهانهم مسبقاً.

فالذهن، حين يُدفع إلى حالة من التركيز المفرط والإجهاد والرغبة الشديدة في رؤية شيء ما، يبدأ بإخراج محتوياته الكامنة إلى سطح الإدراك. وعندما يجد قلباً جاهزاً سبق أن زرع فيه، فإنه يصب تلك التجربة في ذلك القلب ويجسدها على هيئة صورة أو كيان أو مشهد يبدو لصاحبه واقعياً تماماً.

ومن هنا جاءت قناعتى بأن كثيراً مما يُنسب إلى الجن والملائكة والخدام والأرواح ليس سوى نتاج التفاعل بين الطاقة الداخلية والبرمجة الذهنية المسبقة.

وقد يسأل سائل: إذا كانت هذه الصور والكيانات التي يراها بعض الناس ناتجة عن البرمجة الذهنية المسبقة، فلماذا يترجم العقل ما يمر به بهذه الصورة بالذات؟

والجواب أن العقل الباطن لا يعمل في فراغ، بل يعمل وفق ما أُودع فيه من صور ومفاهيم ومعتقدات وخبرات متراكمة. فالإنسان الذي نشأ في بيئة تؤمن بالجن والشياطين والملائكة، وتربى منذ طفولته على ربط الظواهر الغامضة بهذه الكيانات، يحمل في أعماق عقله مخزوناً هائلاً من تلك الصور والتفسيرات. وعندما يتعرض لحالة نفسية أو إدراكية غير مألوفة، فإن عقله لا يجد أمامه إلا القوالب المخزنة فيه مسبقاً، فيفسر التجربة من خلالها ويكسوها بالهيئة التي اعتادها.

ولهذا لا يصح أن يُستغرب من العقل الباطن أن يعمل بهذه الطريقة، تماماً كما لا يُستغرب من الحاسوب أن يعطي النتائج التي بُرِج عليها. فالحاسوب لا يختار طريقة عمله من تلقاء نفسه، بل يعمل وفق النظام المزروع فيه. فإذا كانت برمجته معينة، جاءت مخرجاته منسجمة مع تلك البرمجة. وكذلك العقل الباطن؛ فإنه يقرأ الإشارات والتجارب وفق الخرائط الذهنية الراسخة فيه، ثم يعيد إنتاجها بالصورة التي توافق تلك الخرائط.

ومن هنا فإن الطريق إلى التحرر من هذه الأوهام لا يكون بمحاربة الصور نفسها، بل بإعادة النظر في البرمجة التي تولدها. فكلما اتسعت معرفة الإنسان، وتحرر من الموروثات غير الممتحنة، وراجع أفكاره ومعتقداته على ضوء العقل والتجربة، بدأت الخرائط القديمة بالتغير، وبدأ العقل الباطن نفسه يفسر العالم بطريقة مختلفة. ولهذا كانت المعرفة الحقيقية إحدى أهم وسائل التحرر؛ لأنها لا تضيف معلومات جديدة فحسب، بل تعيد تشكيل الطريقة التي يرى بها الإنسان نفسه والعالم من حوله.

وهكذا فإن القضية ليست في إثبات وجود الجن والملائكة أو نفيها فحسب، بل في فهم الإنسان لنفسه وآليات إدراكه. فكلما ازداد وعياً بطريقة عمل عقله، تضاءلت سلطة الأوهام عليه، وقلّ استعداده لإسقاط مخاوفه الداخلية على العالم الخارجي. إن تحرير الإنسان من الخوف يبدأ بتحرير فهمه، ويبدأ تحرير فهمه حين يتعلم التمييز بين ما يراه الواقع فعلاً، وبين ما تصنعه التوقعات والبرمجيات الراسخة في أعماق ذهنه.

ومن هنا يصبح البحث عن الحقيقة رحلةً إلى الداخل بقدر ما هو رحلةً إلى الخارج، لأن كثيراً من الأشباح التي طاردت البشر عبر التاريخ لم تكن تسكن العالم من حولهم، بل كانت تسكن خرائط عقولهم أولاً.

والخلاصة هنا: إن العقل البشري مستجيب على نحو مدهش لما يُغرس فيه من صور ومفاهيم. وما دام الإنسان يحمل في داخله موروثات الخوف والأسطورة والترهيب، فسيستمر عقله في إنتاج الصور التي تنسجم مع تلك الموروثات. وللنهوض بهذا العقل والارتقاء به في مدارج «روح الحياة»، ينبغي إعادة بناء منظومته الفكرية وتحريره من الأوهام المتراكمة، لا عبر القمع أو الإنكار، بل عبر المعرفة والفهم والمراجعة الصادقة.

فالتحرر من الخوف لا يكون بمطاردة الأشباح، بل بفهم النفس وآلياتها، ولا يكون بمحاربة الصور التي ينتجها العقل، بل بإعادة تشكيل الأسس التي تنتج تلك الصور. وحين يتحرر الإنسان من أسر الموروث غير الممتحن، ويصبح أكثر وعياً بذاته وبالعالم من حوله، يقترب خطوة أخرى من الحكمة والاتزان والانسجام مع «روح الحياة» وسنن الوجود.

وهم الأذكار وسر التردد الذهني

طبيعة التفاعل في الأذكار والمانترا

سؤال: كيف تُفسر لنا تأثير "الأسماء الحسنى" والأذكار التي يُرددّها أصحاب الطرق الصوفية (كالقادرية، والرفاعية، والشاذلية، والدرأويش) بآلاف المرات؟ وكيف تُفسر ما يعتريهم من حالات "الوجد" والخفة والسعادة التي يعتبرونها دليلاً قاطعاً على صحة طريقتهم ودينهم؟

وجوابي على ذلك هو:

إن ما يشعر به هؤلاء من خفةٍ وسعادةٍ وحالات وجدانية هو أمرٌ حقيقي واقع، لكن تفسيرهم له تفسيرٌ باطل وخاطئ تماماً؛ فهم ينسبون هذا الأثر إلى "قداسة الاسم" أو "صحة المعتقد"، بينما هو في حقيقته مجرد تفاعل دماغ و طاقة ذهن.

ولكي نفكك هذا الوهم، يجب أن نعلم أولاً أن تكرار الكلمات بآلاف المرات ليس ابتكاراً إسلامياً، ولم يأت من أصل الدين، بل هو تقليدٌ عُرف في مدارس روحية وفلسفات شرقية قديمة، ولا سيما في بعض التقاليد الهندوسية والبوذية. فهؤلاء يمتلكون طقوساً تُعرف بـ "المانترا" (Mantras)⁵²، حيث يقوم الراهب أو الممارس بترديد كلمات وعبارات معينة آلاف المرات. والمفارقة هنا، أن البوذيين أنفسهم يعترفون بأن

⁵² المانترا (Mantra): كلمة أو عبارة قصيرة (مثل صوت "أوم") تُكرر مراراً أثناء التأمل لتركيز ذهن ومنع تشتت الأفكار، وتعود أصولها للتقاليد الشرقية كالهندوسية والبوذية.

بعض هذه الكلمات التي يُرددونها ليس لها أي معنى مفهوم أصلاً! ومع ذلك، فإن ترديدها يمنحهم الطاقة نفسها، والخفة ذاتها، والنشوة عينها التي يجدها المتصوف المسلم. والسر في ذلك لا علاقة له بالدين، ولا بقداسة المسميات، ولا بإثبات النورانية، بل يرجع إلى قانون طاغوي عصبي دقيق: إن الدماغ يتفاعل مع التردد الواحد المستمر الذي يتكرر عليه بصورة منتظمة ومكثفة.

ولأقرب لكم الصورة أكثر، فإنني أتحدث هنا من واقع تجربة شخصية عشتها بكل جوارحي. ففي صباي الأول، اتخذتُ طريقي في هذه المسالك؛ سلكْتُ أولاً الطريقة الرفاعية، ثم انتقلتُ إلى الطريقة القادرية⁵³. وكنتُ أقرأ الأذكار التي يوزعونها علينا في أوراق، كترديد (لا إله إلا الله) أو (يا حي يا قيوم) لآلاف المرات يومياً. وبعد أيام من هذه المواظبة الكثيفة، كنتُ أشعر بطاقةٍ هائلة، وخفةٍ عجيبة في الجسد، وسعادةٍ غامرة. بل وصل بي الأمر إلى حالةٍ فقدتُ فيها النوم المطلق؛ فقد كان يتيأ لي وأنا في فراشي أن هناك شيئاً في داخلي لا يزال يردد هذه الأسماء دون توقف، وكنتُ أفسر ذلك حينها — بحسن نية — بأن "قلبي قد استنار وأصبح ينطق بالذكر وأنا نائم!"

لكن، بعد أن استنار الوعي وتجلت لي نواميس «روح الحياة»، أدركتُ أن الحقيقة مختلفة تماماً. إن ما حدث لم يكن كرامةً غيبية، بل هو "استفحالٌ ذهني"؛ فعندما تُعود ذهنك على تردد واحد، وتجبر دماغك على الانصباب والتركيز المطلق على نقطة طاغوية وكلمة واحدة تلتفت إليها باستمرار، فإن هذا التكرار الكثيف يفتح منافذ معينة في

⁵³ الطريقة القادرية والرفاعية: من أقدم وأشهر الطرق الصوفية في العالم الإسلامي. تُنسب القادرية إلى عبد القادر الجيلاني، والرفاعية إلى أحمد الرفاعي. تتميز هذه الطرق، وتحديدًا الرفاعية، بطقوس الذكر الجماعي العنيف التي تُدخل الأتباع في حالات "استفحال ذهني" تمكنهم من القيام بأفعال قاسية (كالضرب بالسيوف أو ابتلاع الزجاج) دون شعور بالألم.

الدماغ. وهذا الانحصار الذهني يولد شعوراً متزايداً بالطاقة الجسدية، والراحة النفسية، وارتفاع الهمة، والخفة في البدن.

إن الدماغ يعمل كآلة استقبال، متى ما حصرت تردده في موجة واحدة، استجاب لها فيزيائياً ونفسياً. وبالتالي، فإن هذا الأثر سيقع لأي إنسان يمارس هذا التركيز، سواء كان مسلماً، أو بوزياً، أو هندوسياً، أو طاوياً، بل وحتى لو كان ملحداً لا يؤمن بشيء! لو أخذ الملحد كلمة ما — سواء كان لها معنى أو كانت بلا معنى — وكررها بتركيز لآلاف المرات، فسيشعر بالنتيجة ذاتها. ويتضاعف هذا التفاعل العضوي وأثره الجسدي والطاقي إذا كانت الكلمة تحمل إيقاعاً معيناً، أو غنةً وموسيقى رنانة على اللسان؛ لأن الذبذبة الصوتية تتناغم مع الذبذبة الدماغية فتزيد من قوة التأثير.

وهذا يفسر لنا بوضوح كيف أن الأثر لا يتبع العقيدة التي يحملها الإنسان، بل يتبع آلية العمل الذهني ذاتها. فالدماغ لا يسأل عن هوية الكلمة التي يكررها صاحبها، ولا عن الدين الذي ينتمي إليه، وإنما يستجيب لدرجة التركيز والانحصار والاستمرار. ولهذا نجد آثاراً متشابهة عند شعوب متباعدة، وأديان متعارضة، ومدارس فكرية متناقضة، رغم اختلاف معتقداتها اختلافاً جذرياً. فلو كان هذا الأثر مرتبطاً بصحة العقيدة وحدها، لما تطابقت النتائج بين هذه المسالك المتباينة. أما تشابه الأثر رغم اختلاف المعتقد، فهو دليل على أن العامل المشترك ليس العقيدة نفسها، بل الطريقة الذهنية التي جرى بها توجيه الانتباه وحصر التردد الفكري في مسار واحد بصورة منتظمة ومكثفة.

وخلاصة القول هنا: إن تكرار الأذكار والمانترا قد يمنح الإنسان شعوراً جسدياً ونفسياً بالراحة والخفة والطاقة، نتيجة التركيز الذهني المستمر وما يصاحبه من انحصار للانتباه

وتكرار منتظم. لكن هذا الشعور الممتع لا يعني بحالٍ من الأحوال أن صاحبه قد بلغ المراتب النورانية العليا. فتكرار الكلمات لا يحل المسائل الوجودية العويصة، ولا يجب عن الأسئلة الكونية الكبرى التي حيرت العقول، ولا يمنح الإنسان الحكمة الحقيقية بذاته. إنما هو أثر من آثار توجيه الانتباه وترويض الذهن، وقد يمنح خفة مؤقتة، بينما الارتقاء الحقيقي في مدارج «روح الحياة» لا يكون بقلقلة اللسان، بل بانفتاح الوعي، واتساع البصيرة، والتناغم العميق مع نوااميس الوجود.

وهم "الجن العاشق": صرخة الكبت وجلد الذات

سؤال: تنتشر في مجتمعاتنا ظاهرة ما يُسمى بـ "الجن العاشق"، وتكثر بشكل خاص بين النساء، حيث يشتكين من تشنجات، وأحاسيس غريبة ويسقطن مصروعات. فكيف يمكن تفسير هذه الظاهرة ؟

وجوابي على ذلك هو:

إن هذه الظاهرة المؤلمة تمثل واحدة من أوضح الأمثلة على كيفية تحوّل المعاناة النفسية والبيولوجية⁵⁴ إلى أوهام ماورائية حين يغيب الفهم وتضعف المعرفة. ولتفكيك جذور هذا اللغز، ينبغي أن نضع أيدينا على المسبب الحقيقي الذي يتجنب المجتمع مواجهته: وهو حالة الحرمان العميق والكبت المتراكم في طاقات الإنسان العاطفية والنفسية والجنسية.

⁵⁴ المقصود بـ "المعاناة البيولوجية" في هذا السياق هو الحرمان الجسدي العضوي، واضطراب الوظائف الحيوية الناتجة عن الكبت وقمع الغرائز الفطرية (وتحديداً الدافع الجنسي والهرموني الطبيعي للإنسان).

فالدماغ ليس عضواً معزولاً داخل الجمجمة، بل هو مركز القيادة الذي تمتد منه ملايين الوصلات العصبية إلى أنحاء الجسد كافة. وهو يحتاج إلى قدر من التوازن بين حاجاته المختلفة. فإذا تعرض الإنسان لضغط شديد، أو حرمان طويل، أو كبت متراكم لفطرة أودعتها فيه «روح الحياة»، فإنه لا يبقى صامتاً، بل يبدأ في التعبير عن هذا الاضطراب بطرائق متعددة نفسية وجسدية.

وعندما تحرم المرأة من حقها الطبيعي والبيولوجي، وتعيش زمناً طويلاً تحت وطأة الكبت، فإن هذه الطاقة المقهورة لا تختفي ولا تتلاشى، بل تبحث عن منفذ للتعبير عن نفسها. وحين لا تجد مسارها الطبيعي، قد ترتد إلى الجسد في صورة توترات واضطرابات وأحاسيس غامضة يصعب تفسيرها. فتظهر تشنجات عضلية، أو حالات تشبه نوبات الصرع النفسي، أو إحساس مفاجئ بخدر يسري في الأطراف، أو شعور بمرور موجة كالكهرباء داخل الجسد، ولا سيما في أوقات الاسترخاء ومحاولة النوم. وهذا التفاعل الدقيق هو ما يُعرف طبيّاً وعلمياً بـ «الكبت الفسيولوجي»، حيث تتحول الطاقات والمشاعر المقهورة إلى اضطرابات نفسية وجسدية. فاستمرار هذا الكتمان يُبقي الجهاز العصبي في حالة استنفار مستمر، مما يستهلك الطاقة الحيوية للجسد ويُترجم عضوياً إلى تلك التشنجات والأعراض الغامضة.

وهنا تقع المأساة الحقيقية؛ إذ إن المرأة التي تمر بهذه التجربة، وكذلك من يحاول مساعدتها من أصحاب التفسيرات التقليدية، قد يجهلون طبيعة هذه التفاعلات النفسية والعصبية، فيسارعون إلى إلباسها ثوباً غيبياً، ويطلقون عليها اسم "الجن العاشق". وهكذا

يتحول عرض نفسي أو فسيولوجي⁵⁵ إلى كيان متخيل يُنسب إليه كل ما تعانيه النفس والجسد.

ولقد كنتُ أنا شخصياً، في مرحلة سابقة من حياتي، أفسر هذه الظواهر تفسيراً قريباً من هذا الفهم الشائع. لكن مع التجربة الطويلة والتأمل والبحث، وصلت إلى قناعة مفادها أن الأمر لا يخرج عن حدود الدماغ وآليات عمله، وكيفية تعامله مع الطاقات والانفعالات والرغبات المكبوتة.

ولما أدركتُ، من خلال متابعتي وتجربتي، أن ما يحدث لبدن المرأة من صرع وتقلصات أو توهّمات بـ "الجن العاشق" إنما هو وليد هذا الكبت، ونتيجة حرمانها من المسار الطبيعي الذي يطلبه جسدها المهيم كونيّاً وبيولوجياً؛ أصبحتُ أنصح العائلات التي تأتيني طلباً للعلاج بأن هذه المرأة إذا تزوّجت وسلكت مسارها الفطري، فإن كل ما تعانيه سيزول من تلقاء نفسه. وفعلاً، بمجرد الزواج وزوال العراقيل المانعة لفطرتها، كانت تتلاشى جميع تلك الأعراض التي كانوا ينسبونها للجن.

غير أن الأمر لا يقف عند هذا الحد؛ فإذا تعرضت هذه المرأة بعد زواجها لضغوط نفسية أخرى بسبب الزوج أو البيئة العائلية، فإن جسدها — المهيم أصلاً للتعبير العضوي عن الضغط — سينتج أعراضاً جديدة. لكن هذه الأعراض لن تعود لتشبه أعراض "الجن العاشق" المرتبطة بالكبت الجنسي والعاطفي، بل ستنقل وتتحول إلى أمراض

⁵⁵ **فسيولوجي**: نسبة إلى علم الفسيولوجيا (*Physiology*) وهو علم وظائف الأعضاء، وتعني "**الجسدية الحيوية**"؛ ويُقصد بها هنا تحول التفاعلات الذهنية والنفسية إلى تغيرات حيوية ووظيفية داخل الجسد — سواء أكانت سلبية كالجهد واستجابة الكر والفر وما يتبعها من ردود فعل ضارة كاللشجات والتقلصات الشديدة وتأثيرها على وظائف الأعضاء كالكد عند الخوف، أم إيجابية كالارتخاء والتوازن عند الطمأنينة — يترجم بها الجسم المشاعر والأفكار المخزنة في العقل الباطن في الحالتين على حد سواء.

واضطرابات جسدية ونفسية مختلفة، تعكس طبيعة الصراع والضغط الجديد الذي تعيشه. وهذا التغير في شكل الأعراض يُعدّ برهاناً ساطعاً على أن المحرك الأساس لكل تلك الحالات كان دائماً الصراع والكبت النفسي والجسدي، وليس كياناً غيبياً يتلبسها.

المأساة المزدوجة للمرأة المتدينة

وهنا تظهر نقطة بالغة الأهمية، وهي سبب شيوع هذه الظاهرة بين بعض النساء المتدينات بصورة أشد وأقسى.

فالمرأة غير المتدينة، إذا عانت من الكبت، قد تجد وسائل مختلفة للتعامل مع مشاعرها أو تفريغ جزء من ضغوطها النفسية، ثم تمضي في حياتها دون أن يطاردها شعور دائم بالإثم. أما المرأة المتدينة، فإنها تعيش غالباً صراعاً مضاعفاً؛ فهي لا تواجه الكبت وحده، بل تواجه معه شعوراً مستمراً بالذنب والخوف.

وحتى إذا حاولت في لحظة ضعف أن تتعامل مع هذه الطاقة الفطرية بصورة ما، فإنها قد تصطدم فوراً بتأنيب الضمير والخشية من العقاب والشعور بأنها اقترفت إثماً عظيماً. وهنا يتحول الصراع من مجرد كبت غريزي أو نفسي إلى معركة نفسية داخلية شرسة.

إن هذا المزيج من الكبت وتأنيب الضمير يخلق بيئة خصبة لظهور التفسيرات الوهمية. فالعقل الباطن قد يعمد إلى إسقاط هذه المشاعر والرغبات على كيان خارجي متخيل، وكأنه يقول لصاحبه: "لست أنا من يحمل هذه الرغبات أو يشعر بهذه الأحاسيس، بل

هناك قوة خارجية تفعل ذلك بي". وبهذه الطريقة يخفف الإنسان عن نفسه وطأة الصراع الداخلي، ولو بصورة مؤقتة.

المرأة ومساراتها البيولوجية

وهنا أود أن أوضح جانباً آخر أراه مهماً في فهم هذه الظاهرة من جذورها. فالمرأة تختلف عن الرجل في بنيتها العضوية ومساراتها الحيوية. فجسدها، منذ المراحل الأولى لتكوينه، يُهيأ ضمن نظام متدرج لمسار الأمومة وما يرتبط به من تحولات متعاقبة. فالدورة الشهرية، والتغيرات الهرمونية، والاستعدادات الجسدية والنفسية المختلفة، وما يصاحبها من أحاسيس وتقلصات وتبدلات مستمرة، ليست أحداثاً منفصلة، بل حلقات مترابطة في سلسلة طويلة تُعد المرأة لوظيفتها البيولوجية⁵⁶ الكبرى المتمثلة في الحمل والولادة.

ومن هذا المنظور، أرى أن النساء اللواتي يعشن فترات طويلة من الحرمان والانقطاع عن هذه المسارات الطبيعية، قد ينشأ لديهن اضطراب داخلي عميق ينعكس على الجسد في تلك الصور الحادة من التشنجات والانهيارات التي يصعب على أصحابها تفسيرها.

إنني أنظر إلى هذه الحالات بوصفها تعبيراً عن مسارات حيوية لم تسر في مجاريها الطبيعية، فبقيت محتبسة داخل الجسد والنفس، ثم أخذت تبحث عن منافذ أخرى

⁵⁶ المقصود بالوظيفة البيولوجية هنا هو العمليات الجسدية الحيوية المادية المبرمجة تلقائياً داخل الكائن الحي لإتمام وظيفة طبيعية.

للتعبير عن نفسها. ولذلك فإن كثيراً من الأعراض التي تُفسر شعبياً بأنها مسّ أو جن عاشق، قد تكون في حقيقتها انعكاساً لصراع حيوي ونفسي عميق مرتبط بطبيعة المرأة وتكوينها ومسارها الحيوي.

دلالة المخاض والتهيئة الطويلة

ولكي تتضح الفكرة أكثر، يكفي أن نتأمل واحدة من أعظم الظواهر الحيوية في حياة المرأة، وهي ظاهرة المخاض عند الولادة.

فالمخاض من أشد الآلام التي يمكن أن يمر بها الإنسان، ومع ذلك فإن المرأة تتحمّله لأنها لم تصل إلى تلك اللحظة فجأة، بل جاءت إليها عبر رحلة طويلة من التهيئة الجسدية والهرمونية والنفسية امتدت منذ تكوينها الأول. فالمرأة لا تبدأ قصتها مع الولادة يوم الحمل، بل تبدأ منذ نشأتها الأولى، ثم تمر بمراحل النمو والبلوغ والحيض وما يرافقه من تغيرات متواصلة، ثم المعاشرة وما يرتبط بها من استجابات جسدية وعصبية، وصولاً إلى الحمل وما يفرضه من تحولات عميقة في الجسد.

ولهذا أرفض تماماً تلك المقارنات السطحية والساذجة التي تحاول فيها بعض التجارب محاكاة آلام مخاض المرأة على الرجل. فالمسألة ليست مجرد مقدار الألم في لحظة معينة، بل هي مسار بيولوجي كامل أُعد له الجسد عبر سنوات طويلة. والرجل، مهما بلغت قدرته على التحمل، لم يمر بذلك التدرج الجسدي والوظيفي الذي مرت به المرأة، ولم يُبنَ جهازه الحيوي أصلاً لهذا الغرض. وبالمثل؛ فإن حرمان هذا الجسد الأثوي المعقد

من مساره الفطري لن يمر دون "ثورة" بيولوجية قاسية، يترجمها المجتمع خطأً على أنها مسّ أو جن عاشق.

ومن هنا أستدل على أن الجسد لا يعمل بمعزل عن مساراته الطبيعية. فكما أن المخاض يأتي في نهاية سلسلة طويلة من التهيئة والتطور، كذلك فإن تعطيل بعض المسارات الحيوية أو حرمانها من ظروفها الطبيعية قد ينعكس على الجسد والنفس في صور متعددة من التوتر والاضطراب والتقلصات التي يسيء الناس أحياناً تفسيرها، فينسبونها إلى قوى غيبية أو كيانات متخيلة، بينما قد تكون جذورها كامنة في طبيعة الإنسان نفسها وفي تكوينه البيولوجي العميق.

التشافي والعلاج

إن علاج هذه الحالات لا يكون بالرقى، ولا بالتعاويد، ولا بمطاردة كيانات غيبية صنعها الخيال، بل بالفهم لطبيعة الجسد ومعرفة احتياجاته الحيوية والنفسية، والوعي بطبيعة هذه الأعراض وأسباب ظهورها.

فعندما تدرك المرأة أن ما تعيشه هو تفاعل نفسي وبيولوجي طبيعي، وأن ما تشعر به ليس اعتداءً من كائن خفي، بل انعكاساً لصراعات وضغوط داخلية، يبدأ الوهم بالتلاشي تدريجياً.

إن أول خطوة نحو الشفاء هي أن يفهم الإنسان ما الذي يحدث له حقاً. فحين يحل الفهم محل الخوف، وتسقط التفسيرات الخرافية، ويتصالح المرء مع طبيعته البشرية،

ينهار وهم "الجن العاشق" من أساسه. وعندها يكتشف الإنسان أن المعركة لم تكن يوماً مع كائن خفي، بل مع الجهل بطبيعة نفسه، وبالآليات العميقة التي يعمل بها عقله وجسده.

وهم السحر واستنطاق العقل الباطن

وامتداداً لما مضى من بيان، تبرز ظاهرة أخرى لا تقل خطورة عن "الجن العاشق"، وهي ما نشهده من حالات تُنسب زوراً إلى "السحر". فكما أن الكبت البيولوجي يُنتج وهماً غيبياً، فإن الضغوط الاجتماعية والعداوات العائلية تُنتج وهماً مشابهاً.

لقد لاحظتُ، من خلال تجربتي الواسعة وتعاملي المباشر مع نساء كُنَّ يسقطن مصروعات، أن الدماغ المُثقل بالضغوط والعداوات يخلق آليات دفاعية ويُسقطها على الواقع بصورة متوهمة. فالمرأة التي تعيش صراعاً مريراً أو كراهية شديدة تجاه شخصية معينة في محيطها — كأم الزوج (الحماة) أو أختها أو غيرها — وتُعاني من عجز عن المواجهة أو التعبير، يتدخل عقلها الباطن ليجعل من هذه الشخصية المكروهة سبباً لكل أذى يلحق بها. (وهذا الأمر قد يقع للرجال أيضاً لكن بصورة نادرة جداً).

وحين تبلغ الضغوط مبلغها وتُصاب المرأة بنوبة الصرع النفسي والتشنج، يبدأ العقل الباطن بالباس تلك الشخصية المكروهة ثوب "الساحرة" التي جلبت لها الضرر. ولقد كنتُ شخصياً، في مرحلة سابقة، أستخدم بعض الطرائق لمعالجة هذه الحالات وإدخال هؤلاء النسوة في حالة من الصرع والغياب الإيحائي (وهي طرائق كثيرة مبثوثة في

الكتب لكيفية صرع المصاب ولا يتسع المقام لذكرها هنا). وحين تسقط المرأة في هذه الحالة، وتبدأ بالتحدث لتفريغ كوامنها المكبوتة، تصرّح فوراً بأن فلانة (أم الزوج أو أخته) هي من عملت لها السحر!

وهنا تقع الكارثة؛ إذ يظن المعالج التقليدي - القاصر عن فهم آليات النفس - أن "الجن المتلبس" هو من ينطق على لسانها، فيُصدّق هذه الهلوسات. وهكذا تُتهم نساء بريئات بممارسة السحر بناءً على خطأ فادح في التشخيص.

إن ما يُسمى شعبياً بـ "استنطاق الجن المتلبس" ما هو إلا "استنطاق العقل الباطن" المتأزم والمثقل بالصور المتناقضة والمضطربة. فالدماغ المهيأ للتفاعل مع هذه الضغوط يخلق هذه المسرحية الوهمية، وينطق بها على لسان المصروع بكيفيات مختلفة، ليُفرّغ شحنة الكراهية أو يُبرر عجزه. ولقد وقفتُ على حالات كثيرة، بل واطلعتُ على حالات مقربة مني، كادت أن تُدمر فيها عائلات بسبب هذا الجهل، حيث تُتهم أم الزوج بأنها سحرت زوجة ابنها بناءً على هلوسات عقلٍ باطنٍ مكوم ومحتقن.

إن الحقيقة الناصعة هي أن الدماغ هو من يحمل هذه الصورة ويُخرجها. وكل ما نراه هو استجابة نفسية وعصبية معقدة تحتاج إلى فهم وتفكيك، لا إلى اتهامات باطلة تُدمر الروابط وتُغرز الجهل.

أذى الطاقات الخفية: كيف نعالج الحسد اللاإرادي؟

سؤال: أشعر أحياناً بضيقٍ خفي وحزن حين أرى الخير والسعادة على الآخرين، حتى لو كانوا أصدقاء أو مقربين. أنا لا أكرههم، ولكن ما مررتُ به في حياتي من فقرٍ وشدةٍ وابتلاءات ترك في داخلي أثراً. ألاحظ أن طاقتي السلبية تضرهم عن غير قصدٍ مني، كيف أبعد طاقتي السيئة عن أهلي وأحبتي وعن الآخرين؟

وجوابي على ذلك هو:

إن ما تمر به ليس دليلاً على أنك إنسان شرير، بل هو انعكاس لتراكمات الماضي، وندوب الحرمان والشدة التي حفرت آثارها في أعماق اللاوعي. فالإنسان ابن تجاربه، وما يمر به من آلام ومحن لا يختفي بانتهاء الحدث، بل قد يبقى كامناً في داخله على هيئة مشاعر دفينية وانفعالات خفية تظهر في مواقف لا يتوقعها.

وفي قوانين التشابك الكوني، يجب أن ندرك أن بعض البشر — حتى وإن كانوا طيبين في جوهرهم — يمتلكون تأثيراً طاقوياً قوياً على من حولهم. وما كان القدماء يسمونه "الأنفاس" أو "إصابة العين" ليس في حقيقته، وفق هذه الرؤية، سوى انبعاثات وذبذبات تصدر من المشاعر العميقة والأنماط الفكرية الراسخة، فتنعكس آثارها على الحقل الطاقي المتشابكة بين البشر.

ولذلك أقول: إن علاجك لا يبدأ بالخوف من نفسك، بل يبدأ بإعادة توجيه الطاقة التي تنبعث منك. فعندما تشعر بهذا الضيق الخفي تجاه شخص رأيت عليه نعمة أو خيراً، توقف للحظة، وأغمض عينيك، واستحضر صورته في ذهنك بوضوح، ثم أرسل إليه من

أعماقك مشاعر السلام والمحبة والتقدير، وبارك له فيما أوتي، وتمنّ له دوام الخير والازدهار. ثم وأنت مغمض العينين، ردد في داخلك بيقينٍ وهدوء:

"أنا سعيد بما عندهم من خير، وهم يستحقون ما نالوه، وأتمنى لهم المزيد من النور والبركة. وأنا أيضاً في خير وعافية، وأشكر روح الحياة على ما لدي من نعم ظاهرة وخفية."

إن هذا التحويل الواعي للمشاعر يغير اتجاه الطاقة في داخلك. فبدلاً من أن تبقى أسيراً للضيق والانقباض، تبدأ ببث مشاعر الامتنان والمحبة والرضا. وعندما تتكرر هذه الممارسة، فإن الذهن يتعلم نمطاً جديداً من الاستجابة، وتضعف تدريجياً تلك الرواسب القديمة التي كانت تولد الإحساس بالنقص أو الحرمان.

لذلك، ينبغي أن تدرك أن الإنسان إذا ترك انفعالاته السلبية تنمو في داخله دون مراجعة أو تهذيب، فهو أول من يكتوي بنارها. فالنفوس المأسورة في دوامة الحسد، والضيق، والمقارنة المستمرة، تستهلك طاقاتها في صراع عبثي، وتفقد قدرتها على التذوق الحقيقي للحياة. أما حين يبارك الإنسان للآخرين، فهو في الحقيقة يحرر نفسه أولاً قبل أن ينفع غيره.

أما إذا تجاوزت هذه المشاعر حدودها لتتحول إلى حسد مقصود ورغبة متعمدة في زوال النعمة عن الآخرين، فإن الأمر يصبح أشد خطورة؛ إذ يغذي الإنسان داخله بترددات الهدم والكراهية، ليجعلها جزءاً من بنيته النفسية والفكرية. وحينئذٍ لا يكون الضرر موجهاً إلى الخارج فحسب، بل يبدأ بالتآكل والتلاشي من الداخل قبل أن يطل أي أحد سواه.

لذلك أقول دائماً: "طَهَّرْ فؤادَكَ من هَوَى الأرجاس".

والمقصود بذلك أن يطهر الإنسان وعيه من رواسب الحرمان، وأحزان الماضي، ومشاعر المقارنة، وكل ما يعكر صفاء النفس ويمنعها من الانسجام مع الوجود. فتى ما تنقى الذهن، وصفاء القلب، أصبحت أنفاس الإنسان وطاقاته مصدر راحة وسلام لمن حوله، وتناغم مع روح الحياة بدلاً من أن يضطدم بها.

إن الطريق إلى النور لا يبدأ بمحاولة تغيير الآخرين، بل يبدأ بتنظيف الداخل. فمن أصلح ما في نفسه، انعكس أثر ذلك على العالم من حوله، وأصبح وجوده بركةً لنفسه وللناس.

وهم الحسد وقوة التحصين الذاتي: كيف نغلق منافذ الوهم؟

سؤال: كيف أحمي نفسي من الحسد والطاقات السالبة التي يرسلها الآخرون؟

وجوابي على ذلك هو:

لا بد هنا من مقدمة تأسيسية؛ فالبشر مختلفون في طبائعهم وتكوينهم النفسي والطاقوي. فمنهم من يؤثر أكثر مما يتأثر، ومنهم من يتأثر أكثر مما يؤثر، وهناك من تكون قوة حضوره وانبعائه النفسي أشد من تأثير المؤثرات المحيطة به.

وهنا أستحضر كلمة قرأتها في إحدى رسائل الفيلسوف ابن سينا، أراها دقيقة في وصف هذا المعنى، حيث يقول:

"إن قويَّ النفس يؤثر في ضعيف النفس."

وهذه العبارة لا تتحدث عن السحر والخوارق بقدر ما تتحدث عن سلطان النفس وقوة اليقين. فكما أن الأوهام إذا تمكنت من العقل سيطرت عليه وأفسدت حياته، فإن الحقائق الراسخة والقناعات القوية تستطيع أن تنقذ الإنسان من كثير من المخاوف التي تستنزف روحه.

ومن هنا أصل إلى القضية التي أراها جوهر المسألة كلها: إن التصديق بالحسد هو البوابة الأولى التي تسمح له بالدخول إلى عالمك النفسي.

فإذا آمنت إيماناً عميقاً بأن هناك قوى خفية تترصد بك في كل لحظة، وأن أعين الناس تلاحقك لتفسد عليك حياتك، وأنت كائن هش يمكن لأي شخص أن يحطملك بمجرد نظرة أو شعور، فإنك تكون قد فتحت أبواب عقلك لهذه الفكرة، وجعلت وعيك مستعداً لاستقبال آثارها والتفاعل معها.

أما إذا حسمت الأمر مع نفسك، وأيقنت أنك أقوى من هذه التصورات، فإنك تغلق الباب الذي تتسلل منه تلك المخاوف.

ولهذا أقول دائماً: يجب أن يخاطب الإنسان نفسه بوعي وثبات قائلاً:

"أنا لا أصدق بالحسد، ولا يوجد شيء في الخارج يمتلك سلطة أذيتي. أنا أقوى من الحسد، وأقوى مما يسمى بالجن والسحر. طاقتي متينة، ووعيي ثابت، ولا يمكن أن يؤثر في شيء، وكل أذية ترسل لي ترتد على صاحبها."

إن قيمة هذه الكلمات لا تكمن في مجرد ترديدها، بل في تحويلها إلى قناة راسخة تستقر في أعماق النفس.

ودققوا النظر معي في حياة كبار المفكرين والعلماء والمبدعين والقادة الذين انشغلوا بالمشروعات الكبرى والأفكار العظيمة. ستجدون أن كثيراً منهم لا يقضون حياتهم في التفكير بمن حسدهم أو من أرسل إليهم طاقة سلبية، بل تكون عقولهم غارقة في البحث والإبداع والاكتشاف والعمل.

ولذلك فإنهم يغلقون - من حيث يشعرون أو لا يشعرون - منافذ كثيرة يمكن أن تتسلل منها هذه المخاوف. فهم منشغلون بالبناء أكثر من انشغالهم بالخوف، وبالإنجاز أكثر من انشغالهم بالمراقبة، وبصناعة الأثر أكثر من انشغالهم بتوقع الأذى.

أما الإنسان الذي يراقب كل إشارة، ويفسر كل تعثر بأنه حسد، وكل تعب بأنه عين، وكل مشكلة بأنها طاقة سلبية، فإنه يفتح أبواب وعيه لهذه الأفكار على مدار الساعة، حتى تصبح جزءاً من طريقته في تفسير الحياة.

ومن هنا أقول إن الحل الأمثل هو غلق هذه الأبواب؛ فالعقل يشبه بيتاً له نوافذ ومنافذ كثيرة، وما يدخل إليه باستمرار يتحول مع الزمن إلى جزء من بنيته الداخلية. فإذا سمح الإنسان لذنبه الخوف والترقب أن تستقر في داخله، فإنه هو نفسه من يغذيها ويمنحها

الحياة، حتى تكبر شيئاً فشيئاً وتغدو كأنها "شيطان مريد" صنعه العقل من أوهامه ومخاوفه المتراكمة. أما إذا أغلق هذه الأبواب أمام الوهم، وأيقن أن السحر والحسد لا يملكان سلطة ذاتية عليه، فإن دماغه يكون حالة من التماسك والثقة تشبه الدرع الواقي. وعندها يصبح العقل أكثر قدرة على مقاومة الذبذبات السلبية والأفكار الهدامة؛ لأنه لم يعد يتفاعل معها بوصفها حقائق مطلقة، بل حسم أمرها بقوة وعيه وثباته.

لذلك أقول: قوّ وعيك، واملاً عقلك بما يبينك لا بما يهدمك، وأغلق منافذ الوهم باليقين، فإن كثيراً مما يخشاه الناس لا يستمد قوته من الخارج، بل من مقدار السلطة التي يمنحونها له داخل عقولهم.

حقيقة السحر والجن: بين وهم الأديان وغلبة الإرسال الذهني

وربما يفهم من حديثنا السابق عن الحسد والطاقات السالبة أنني أوّمن بالسحر والجن بالصورة التي تطرحها الأديان الإبراهيمية، وتحديدًا في الموروث الإسلامي. وهنا أقول بوضوح لا لبس فيه: إنني لا أوّمن بذلك إطلاقاً.

فأنا لا أرى أن هناك جيوشاً من الجن تتسلط على البشر، ولا شياطين خفية تدخل الأجساد وتخرج منها، ولا أعتقد بوجود ذلك العالم الذي صورته الروايات الشعبية والدينية على أنه يحيط بالإنسان في كل لحظة ويتحكم في مصيره.

لكن رفضي لهذه التصورات لا يعني إنكار وجود التأثيرات النفسية والطاقوية بين البشر. فالنفوس تحمل انفعالات وقوى كامنة قد تؤثر في نفسها وفي غيرها، وهذا ما يقترب جزئياً مما يسمى في ثقافتنا بالحسد، وإن كنت أراه أوسع وأعمق من المفهوم التقليدي المتداول.

فالإنسان لا يضر الآخرين فقط، بل قد يضر نفسه أيضاً من خلال ما يرسله إلى ذاته من رسائل ذهنية وإيحاءات متكررة. فكم من إنسان كان يعيش في صحة وعافية، ثم بدأ يحدث نفسه بالمرض، فيمرض، ثم يشتد عليه المرض لشدة حديثه النفسي!

بل يوجد ما هو أشد غرابة من ذلك، وهو "استدعاء المرض بمجرد تذكره". فتجد الإنسان يحدث نفسه بأنه لم يمرض أو لم يصبه الصداع منذ أيام، ثم لا يلبث أن يجد نفسه قد أصيب به فعلاً! فيتعجب من ذلك، ويتمنى لو أنه لم يستحضر الفكرة في ذهنه أصلاً.

إن مثل هذه الحالات لا أراها دليلاً على وجود قوة غيبية خارجية، بل أراها مثلاً على قدرة الذهن على التأثير في ذات الإنسان عبر الإيحاء والتركيز والاستفحال النفسي. فالإنسان قد يصبح مرسلًا ومستقبلًا في الوقت نفسه؛ يرسل الفكرة إلى عقله، ثم يتفاعل عقله معها وكأنها حقيقة واقعة.

أما ما يسمى بالسحر، فأنا لا أراه كما تصوره الأديان والموروثات الشعبية، بل أرى أن حقيقته تكمن في غلبة الوهم واستحواذ الفكرة على الذهن.

فبعض الناس يقومون بما يمكن أن نسميه الإرسال الذهني؛ فيركزون على شخص معين، أو يرددون كلمات وعبارات طويلة مرتبطة باسمه أو صورته، وهم يحملون في داخلهم

نية سلبية أو رغبة في الإضرار به. وفي هذه الحالة تنبعث منهم مشاعر وانفعالات سالبة قد تصل آثار تردداتها إلى الآخر، إذا كان مستعداً نفسياً لاستقبالها والتفاعل معها.

فالضرر الحقيقي هنا لا ينشأ من قوة هذه الرسائل وحدها، بل من قابلية المتلقي لتصديقها. فإذا شعر هذا الإنسان ببعض الطاقات العابرة، والتي أرسلت إليه من ذهن آخر، وكان هذا الإنسان ممثلاً بالخوف والرعب، ومقتنعاً بأنه محاصر بقوى خفية، ومؤمناً بأن هناك شياطين وجن يترصدون به، فإن الدماغ يبدأ بترجمة ما أحس به من طاقات عابرة وذبذبات مرسلّة على أنها جن أو شياطين جاءت لتدمر كيانه، فيُعظم خطرهما ويثبت فيها روح القوة بسبب هلعه وخوفه منها وتفسيره لها تفسيراً خاطئاً. ثم يزيد عليها من اضطراباته النفسية وأوهامه الداخلية ويتفاعل معها على أنها هجوم خارجي. وهكذا تتحول المخاوف إلى صور، والصور إلى يقين، واليقين إلى معاناة حقيقية يعيشها الإنسان بكل جوارحه. فتقلب هنا الذبذبة البسيطة المرسلّة من ذهن آخر إلى عفريت عظيم جاء ليلكه.

فهو هنا لا يرى العفريت لأنه موجود في الخارج، بل لأنه هو من صنع صورته في داخله ثم آمن بها فعظمت بوهمه وشدة هلعه. وكلما ازداد خوفه منها، ازدادت رسوخاً في وعيه حتى تغدو كأنها حقيقة لا تقبل الشك.

ولهذا أقول إن الإنسان الجاهل بهذه القوانين يعين الآخرين على نفسه. فلو حاول شخص أن يضره بانفعالاته السلبية أو بإرسالاته الذهنية، فإن الخطر لا يكمن في تلك الإرسالات وحدها، بل في استعداده هو لاستقبالها والتفاعل معها. إنه يترك أبواب عقله مفتوحة، ثم يتعجب من دخول المخاوف إليها.

أما الإنسان الواعي، فإنه يدرك طبيعة هذه العمليات النفسية، ويفهم كيف يعمل
الذهن، فلا يمنح هذه التأثيرات سلطة مطلقة عليه. إنه يغلق الباب أمام الوهم قبل أن
يتسلل إليه، ويمنع الخوف من أن يتحول إلى عقيدة راسخة في داخله.

ومن هنا أقول إن غلبة الوهم لا تُقهر إلا بغلبة الوعي. فكما ازداد الإنسان فهماً لنفسه،
وإدراكاً لآليات عقله، وتحرراً من الموروثات المرعبة التي سكنت وجدانه، ضعفت
سلطة هذه التأثيرات عليه.

فمن تحصّن بوعيه، وأغلق منافذ الخوف في نفسه، لم تضره رسائل الواهمين، ولم تستطع
أوهام الآخرين أن تجد طريقها إلى عقله.

حقيقة السعادة والحزن: بين وهم الموافقة واتساع البصيرة

سؤال: ما هو تفسيرك الحقيقي للسعادة والحزن؟

وجوابي على ذلك هو:

لقد عرّف بعض الحكماء والفلاسفة القدماء هذين الشعورين بتعريفٍ شهير، فقالوا: "السعادة هي إدراك الملائم، والحزن هو إدراك المخالف". ويعنون بذلك أن الإنسان، عندما يسمع أو يواجه ما يلائم أفكاره ويوافق ما في نفسه، فإنه يشعر بالسعادة. في المقابل، إذا واجه ما يخالف قناعاته — كأن تنتقد عقيدته أو طائفته — فإنه ينزع ويحزن.

لكنني، ومن منظار الوعي والتفكير، أرى أن هذا التعريف غير مكتمل؛ بل هو تعريفٌ سطحي يصف (الانزعاج والضيق) في مقابلة (النشوة والفرح اللحظي)، أكثر مما يصف حقيقة السعادة والحزن الوجوديين.

إن هذا التعريف القديم ينطبق فقط على "العقل المبرمج"، فالإنسان العادي يفرح ويستبشر عندما يتحدث معه بكل ما يلائم ذهنه، حتى لو كان كلامك باطلاً ومخالفًا للحقيقة! فإذا جئت لإنسانٍ غارقٍ في الخرافات، والأساطير، وتقديس الشخصيات، فخدمته بكرامات أوليائه، وقدّست معه أصنامه الفكرية، فإنه سيظهر فرحاً ويشعر بنشوة غامرة؛ ليس لأنك نطقت بالحق، بل لأن كلامك — كما يُقال — (وافق شئ طبّقه)، أي أنه دغدغ أوهامه وأراح "الأنا" المبرمجة عنده.

وعلى العكس تماماً؛ حين تصدم هذا الإنسان المغيب بنقد أساطيره، وتفكيك دينه، ومساءلة شخصياته المقدسة، فإنه سيشعر بانزعاجٍ شديد واضطراب قد يولد لديه الحزن والغضب. هل حزن هنا لأنه فقد الحقيقة؟ لا، بل انزعج لأنك زلزلت المنطقة المريحة في عقله الباطن.

أما أبناء النور، الذين اتسعت دوائر وعيهم ولم يعودوا أسرى لما اعتادوه أو ورثوه، فإن السعادة عندهم لا تُقاس بمقدار ما يوافق أفكارهم المسبقة، بل بمقدار ما يكشف لهم من حقيقة ويضيف إلى بصيرتهم من نور.

الإنسان الواعي المستنير، لو تحدث معه بأمرٍ "يخالف" ما استقر في ذهنه مسبقاً، ولكنه أدرك بحكمته وتجرده أن كلامك هو الحق، أو أنه الأقرب للصواب؛ فإنه لن يحزن أو ينزعج! بل على العكس، سيتقبل هذا الهدم لمعتقداته القديمة، وسيفرح فرحاً عميقاً بولادة حقيقة جديدة في وعيه. وفي المقابل، لو جاءه من يُطلق عليهم لقب "حكاء" أو "سادة"، وحدثوه بكلامٍ لا يقبله منطق النور، فإنه سيرفضه ويتضايق منه، مهما كانت مكانة المتحدث. ولن يشعر بأي سعادة في مجاملة الباطل.

إن السعادة والحزن أعقد من أن يُختزلا في مجرد موافقة الأفكار أو مخالفتها. فكم من إنسانٍ يفرح بما يوافق معتقداته وهو غارق في الوهم، وكم من إنسانٍ يتألم من حقيقة تصدمه اليوم ثم يكتشف لاحقاً أنها كانت باباً لنضجه واتساع وعيه.

إن الإنسان لا يسعد دائماً بما هو حق، ولا يحزن دائماً مما هو باطل؛ بل كثيراً ما يسعد بما ألفه واعتاده، ويحزن مما يهدد البنية الفكرية التي بنى عليها عالمه الداخلي. ولهذا فإن

السعادة القائمة على مجرد الموافقة سعادة هشة، تزول بزوال أسبابها، أما السعادة النابعة من الفهم والاتساق الداخلي فهي أعمق وأبقى.

وكلما اتسع وعي الإنسان، وازداد تحرراً من أسر الموروثات والانفعالات الآنية، أصبح أكثر قدرة على استقبال الأفكار الجديدة دون خوف، وأكثر استعداداً لمراجعة نفسه دون انقياد. وعندها لا يعود يبحث عمن يؤكد له ما يؤمن به، بل عمن يقربه من الحقيقة، حتى لو خالفت ما اعتاده سنوات طويلة.

ومن هنا أرى أن السعادة الحقيقية ليست في أن نجد من يوافقنا دائماً، ولا في أن نحيط أنفسنا بأصداء أفكارنا الخاصة، بل في أن نبغ حالة من السلام الداخلي والانسجام مع ذاتنا ومع الوجود. فكل معرفة توسع الأفق، وكل حقيقة ترفع حجاباً من الجهل، وكل خطوة تقرب الإنسان من فهم نفسه والعالم من حوله، هي في ذاتها صورة من صور السعادة العميقة.

أما الحزن الحقيقي، فليس مجرد مخالفة الرأي أو اضطراب المزاج، بل هو انغلاق الوعي، واستسلام الإنسان لأوهامه ومخاوفه، وعجزه عن رؤية آفاق أوسع من تلك التي اعتادها. ولذلك فإن السعادة والحزن ليسا حدثين عابرين فحسب، بل هما انعكاس لطريقة الإنسان في فهم ذاته وتعاطيه مع الوجود كله.

قلق الوجود وسكينة اللحظة: كيف نعيش بلا إله الأديان؟

سؤال: أنا لا أتحمل أن أعيش الحياة، وهناك اعتقاد أحمله أنه لا يوجد إله منفصل ولا رعاية إلهية غيبية تتدخل في هذا الكون لتنقذنا. هذا الفراغ يخيفني. فما نصيحتك لي؟

الجواب: لك السلام والمحبة. يا صديقي، يؤمني أن أراك متعباً إلى هذا الحد. سواء كنت تؤمن بوجود إله أم لا، وسواء كنت تؤمن بوجود حياة أخرى أم لا، فإن معاناتك تستحق أن تؤخذ بجدية. ليس من الضروري أن تمتلك جميع الإجابات الكونية حتى تسمح لنفسك بأن تعيش، وأن تبسم، وأن تستمتع بما في الحياة من جمال.

مهما كانت نظرتك إلى الحياة، ومهما كان اعتقادك الفكري أو رؤيتك الوجودية، فاحرص على أن تعيش حياتك بسعادة، بعيداً عن الهموم والغموم، وبعيداً عن التفكير المفرط الذي يرهق الذهن والنفس. لا تجعل أفكارك المعقدة عن أصل الكون أو عن المصير المجهول تحرمك من فرصة أن تعيش يوماً جميلاً.

إذا كنت تتمتع بصحة جيدة، أو بقدرٍ معقول من العافية يمكنك من الحركة والعمل وقضاء شؤونك، ولديك دخل أو مورد يكفيك للعيش الكريم، أو تملك ما يغنيك عن سؤال الناس، فهذه نعم عظيمة تستحق الامتنان العميق. بل إن النعم لا تقتصر على ذلك وحده؛ فوجود شخصٍ يحبك، أو صديقٍ صادقٍ يقف إلى جانبك، أو بيتٍ يأويك، أو قدرةٍ على القراءة والتعلم والتأمل، كلها عطايا قد يغفل عنها الإنسان لأنه اعتاد وجودها.

وكثيراً ما ينشغل الناس بما ينقصهم حتى يعجزوا عن رؤية ما يملكونه بالفعل.
فيطاردون أموراً بعيدة، بينما تحيط بهم أسباب الراحة من كل جانب. لذلك حاول أن
تنظر إلى حياتك بعين أكثر اتزاناً، وأن تلتفت إلى ما هو حاضر بين يديك قبل أن
تنشغل بما ليس عندك. فليس شرطاً أن تمتلك كل شيء حتى تعيش بسلام، بل يكفي
أحياناً أن تدرك قيمة ما تملكه بالفعل.

فاستغل وجودك في هذه الحياة، واستمتع بها بقدر ما تستطيع، وامنح نفسك فرصة أن
تفرح بما هو متاح لك اليوم، بدلاً من أن تؤجل سعادتك إلى مستقبلٍ قد لا يأتي
بالصورة التي تتخيلها.

إن هذا العمر القصير الذي وُهب لك لا يستحق أن تضيعه في القلق والحزن. لا تُفرط
في التفكير، وكن صاحب خلق كريم، طيب القلب، محباً للسلام، متقبلاً للآخرين،
واسع الصدر، واستمتع بكل لحظة من وجودك. ابدأ بالأشياء الصغيرة التي تمنح الحياة
طعمها: مارس المسير متأملاً في الطبيعة، اقرأ كتاباً، تعلّم شيئاً جديداً، اقترب من
الأشخاص الذين يمنحونك الطمأنينة، ولا تجعل ذهنك سجيناً لك.

سافر كلما استطعت، ولو إلى مدينة قريبة. وإن تيسّر لك السفر إلى دول أخرى فلا
تردد، ولو كان ذلك للسياحة فقط. تعرّف إلى الشعوب والثقافات المختلفة، ولتكن
رحلاتك فرصة لاكتشاف العالم واكتشاف نفسك؛ فلا تجعل جسدك سجيناً بين أربعة
جدران، كما لا تجعل ذهنك سجيناً للمخاوف. عش لحظتك؛ فالإنسان ابن لحظته، ولا
تدع الخوف من المجهول يحرمك جمال الحاضر.

عش هذه الحياة بحكمة وسلام، وأحسن إلى الناس ما استطعت. نحن لا نستطيع أن نغيّر الكون بأسره، لكننا نستطيع أن نجعل أيامنا أقل قسوة، وأن نكون أكثر رحمة بأنفسنا وبالآخرين، وأن نترك أثراً طيباً في كل من نلقاه.

لا أحد يعلم على وجه اليقين المطلق ما وراء الأفق الأخير، لكن كل إنسان يعلم يقيناً أنه يملك هذه اللحظة الحاضرة. فلا تُبددها في الخوف والخصام، بل املأها بالعلم، والمحبة، والعمل الصالح، والابتسامة، والسلام.

فإن كانت الحياة رحلةً واحدة، فقد عشتها بكرامة وسلام.. وإن كانت بعدها رحلة أخرى في مسارات الوجود، فلعل ما زرعت من خير يكون خير زادٍ لك.

وختاماً يا أخي، يا ابن «روح الحياة»، لا تجعل الأسئلة التي لم تُحسم إجاباتها بعد تحرمك من الحياة التي بين يديك الآن. ابحث، وتأمل، وتعلم، وافتح عقلك لكل معرفة جديدة، لكن لا تؤجل سعادتك إلى اليوم الذي تظن أنك ستجد فيه جميع الأجوبة؛ فربما لا يملكها أحد.

إن رؤية «روح الحياة» لا تدعوك إلى الهروب من الواقع، ولا إلى انتظار خلاصٍ غيبي، بل تدعوك إلى أن تتصالح مع وجودك، وأن تفهم نفسك والكون من حولك فهماً أعمق، وأن تعيش بوعي ومحبة وسلام. فكلما اتسع وعي الإنسان، ضاقت مساحة الخوف في داخله، وكلما ازداد فهماً لنواميس الوجود، ازداد طمأنينةً وانسجاماً مع الحياة.

فامضِ في طريقك مطمئن القلب، واسع الأفق، محباً للخير، مستمتعاً بما أُتيح لك من أيام. ولا تجعل المجهول يسرق منك الحاضر؛ فالحياة التي تملكها الآن هي الحقيقة الأقرب إليك، وهي الفرصة التي تستحق أن تُعاش بسلامٍ وكرامةٍ ومحبة.

المناجاة: بين الاستجداء والتناغم الكوني

سؤال: ما الفرق الجوهرى بين مفهوم "الدعاء" كما نفهمه من الأديان، ومفهوم "المناجاة" والامتنان في رؤية «روح الحياة»؟ وإذا كانت «روح الحياة» ليست إلهاً مشخّصاً يجلس على عرش ويتدخل لإنقاذ المتألمين، فما الفائدة من مناجاتها أو توجيه الشكر لها؟ أليس ذلك ضرباً من العبث؟

وجوابي على ذلك هو:

إن مفهوم المناجاة في رؤية «روح الحياة» يفترق جذرياً عن مفهوم "الدعاء" الشائع في الأديان الإبراهيمية. ففي تلك الأديان، يُصوّر الإله ككيانٍ منفصلٍ ومُشخّصٍ يجلس في السماء، يُطلب منه ويُستجدى بتذلّل، طمعاً في استجابة تدخلية، سحرية، ومباشرة (كن فيكون). أما في رؤيتنا، فإن «روح الحياة» ليست كياناً منفصلاً عنا ننتظر منه الهبات؛ بل نحن أجنتها، وخلايا في بدننا النوراني، وقطراتٌ متصلةٌ في محيطها العظيم.

وإذا سألت: لماذا نناجيا إذن، إذا كانت لا تتدخل استجابةً لعاطفةٍ لحظيةٍ لإنقاذ طفل متألم أو منع حيوان مفترس؟

وجواب ذلك يكمن في إدراك أنها "طاقة تفاعلية".

إن المناجاة الحقيقية هنا ليست استجداءً لفظياً لكيان منفصل، بل هي «تناغم طاقوي».

عندما نناجي روح الحياة، فنحن في الحقيقة نقوم بضبط ذبذباتنا الداخلية لتتوافق وتتجاذب مع طاقتها الكونية. إن البيئة المشبعة بالقمع والظلم والخوف تُنتج تشوهات طاقوية وأمراضاً، بينما المناجاة القائمة على الطمأنينة تفتح مسارات الخير، وتُفعل الطاقات الإيجابية في الكون لتنعكس سلاماً وانسجاماً ووفرة على حياة الإنسان. لذلك نحن دائماً نوصي بتصحيح المشاعر قبل الدعاء.

خطر «الدعاء المسموم»

إن جهل الكثيرين بقوانين التفاعل الكوني مع الدعاء، يجعلهم يؤذون أنفسهم ومحبيهم من حيث يظنون أنهم ينفعونهم! ولنأخذ مثلاً حياً: دعاء الأم لابنها بالحفظ والسلامة. إذا كان هذا الدعاء مشبعاً بطاقة الخوف، والقلق، والشك، والآلام النفسية؛ فإنه يتحول فوراً إلى «دعاء مسموم» وطاقة سلبية تجر على ابنها الويل والعراقل بدلاً من أن تحفظه! إن الكون لا يستمع إلى الكلمات المنطوقة، ولا يكثرث لزخرفة النصوص، بل يتفاعل بصرامة مع الذبذبة المنبعثة من الوجدان.

كثيراً ما كانت تأتيني أمٌ مشغولة الفكر بابنها، تتوقع له السوء في كل طريق، وتترقب المصيبة في كل ساعة، ثم ترفع يديها وتقول: "يا رب احفظه، سلّمه، لا يصيبه مكروه". وهنا كنتُ أصدّمها قائلاً: إن دعاءك هذا قد يكون بلاءً على ابنك أكثر منه حمايةً له! لأن وعيك الباطني يصرخ في الوقت نفسه: "أنا أخشى أن يقع له مكروه". فإذا كان ذهنك غارقاً في الخوف، فإنك لا ترسلين إلى ابنك صورة السلامة، بل ترسلين إليه صورة الخطر ذاتها.

ولو قارنّا بين امرأة تدعو لابنها بلسانها وقلبها غارق في الرعب، وبين امرأةٍ أخرى نسيت أمر ابنها تماماً ولم تنشغل به بهذا القدر من القلق؛ فإنني أرى أن الحالة الثانية أفضل وأكمل. فالمرأة التي نسيت، لم ترسل ذبذبات مضطربة، والسكوت الذي لا يرافقه اضطراب، أقل ضرراً من كلمات جميلة تحمل في أعماقها ذبذبات الرعب والشك.

أما الحالة الأكل والأرق، فهي أن تطهر الأم نفسها من الخوف أولاً، وتملاً وجدانها بالطمأنينة، ثم تستحضر صورة السلامة والنجاح لابنها. عندها فقط يصبح اللفظ امتداداً لحقيقة مستقرة في النفس، لا قناعاً يخفي وراءه القلق. فالمناجاة في رؤيتنا ليست استجداءً يُبنى على الرعب والطلب برهبة وخوف، بل حالة من التناغم مع الخير الذي نريد له أن يتجلى، وهو كالتغني بـ «روح الحياة» أمنا المقدسة، والترنم بشكرها والامتنان لجمل مظاهرها التي هي رداء حقيقتها وتجلياتها العظيمة.

سرُّ المناجاة وقوة الامتنان: لماذا نُخاطبُ روح الحياة؟

أما الشق الثاني من السؤال؛ فلماذا نشكر «روح الحياة» إن لم تكن إلهاً يعاقب ويُثيب؟ أقول: إن التواصل مع «روح الحياة» ليس عملاً ساذجاً، ولا طقساً قائماً على الاستجداء، بل هو من أرق صور الانسجام مع الوجود. ولفهم ذلك بعمق، نلخصه في أربعة أبعاد رئيسية:

- أولاً. إعادة تشكيل العقل الباطن: المناجاة ليست كلمات باللسان، بل توجيه للوعي. عندما يمتلئ الإنسان بالامتنان، يزرع في لاوعيه صوراً إيجابية. وكلما كرر معاني السلام والمحبة، بدأ ينظر للعالم باتزان. فالمناجاة تعيد ترتيب الداخل، وتساعد الإنسان على الانسجام مع قوانين الوجود، لا أن تخرقها لأجله.
- ثانياً. تلبية الحاجة الوجودية: يبحث الإنسان دائماً عن الانتماء لقوة أعظم. وفي رؤيتنا، لا تأتي المناجاة من رغبة في استرضاء قوة غاضبة، بل من الشعور بالانتماء للأصل الكوني الذي خرجنا منه جميعاً. إنها شبيهة بامتنان الابن البار لأمه وأبيه؛ لا خوفاً من عقاب ولا طمعاً في مكافأة، بل إدراكاً لفضلهم في رحلة وجوده.
- ثالثاً. الامتنان كحالة وعي يومية: وسّع دائرة شكرك لتشمل كل شيء. اشكر الماء، والطعام، والهواء. اشكر الشجرة التي تمنحك الأكسجين؛ فلاشجار ذبذبات وأسرار طاقوية لا يحس بها الماديون المنشغلون بكثافة الأرض. بل وامتد بشكرك للجمادات؛ اشكر الكرسي الذي يحمل جسدك المتعب، والسيارة التي تختصر مسافاتك، والحاسوب الذي تكتب عليه أفكارك! ليس هذا تقديساً للأشياء، بل

هو تنمية لحالة من "الوعي" ترى الترابط العميق بينك وبين كل ما سُخِّرَ لخدمتك.
الامتنان يحول العالم من "أشياء صامتة" إلى "شبكة من العطايا".

- رابعاً. أثر الامتنان في السكينة: حين تعتاد الامتنان، تتوقف تدريجياً عن التركيز على "المفقود"، وتبدأ برؤية "الموجود". كثيرون يعيشون حرماناً مستمراً لأن أبصارهم لا تقع إلا على النقص. الامتنان يعيد توجيه الانتباه نحو الوفرة، وكلها اتسعت دائرة امتنانك، اتسعت سكينتك.

وخلاصة الجواب: نحن نُظهر الامتنان لـ«روح الحياة» لا خوفاً من جحيم، ولا طمعاً في جنة، بل لأن الامتنان نفسه يغيّرنا؛ يعيد تشكيل وعينا، ويحررنا من السخط والخصومة والاعتراب. وإنني أجزم يقيناً أنك لو جعلت الامتنان عادةً يومية في تفاصيل حياتك الصغيرة قبل الكبيرة، ستكتشف تحولاً عميقاً؛ ستشعر بانفتاح في البصيرة، وخفة في الروح، وسعادة لا تنبع من كثرة ما تملك، بل من حُسن اتصالك بالحياة ذاتها. فكلما ازداد الإنسان امتناناً، شعر بأنه أقرب إلى روح الحياة، وأكثر انسجاماً مع النور الكامن في الوجود كله.

خاتمة الأسئلة: أين سأجدك يا أبت؟

سألني ابني ذات يوم: أين سأجدك يا أبت بعد موتك وكيف سأراك؟

فقلت له: ستجدني في كُلِّ قطرةٍ مطرٍ تهطلُ لتحييَ الأرض، وتوقظَ البذورَ من سُباتها، وستشعرُ بي مع كُلِّ نسمةٍ فجرٍ باردةٍ تلامسُ خَدَّكَ في صباحٍ هادئٍ.

ستراني في خُضرةِ الأشجار، وتسمعي في زقزقةِ العصافير، وخَفَقِ أجنحةِ الطيورِ وهي تعانقُ السماء. وستحسُّ بي في دِفءِ أشعةِ الشمسِ حينَ تنسابُ على جسدِكَ في يومٍ باردٍ، فتخفُفُ عنك قسوةَ الشتاء ووحشته.

وستراني في كُلِّ مشهدٍ جميلٍ يبعثُ الطمأنينةَ في نفسك، ويوقظُ الحبَّ في قلبِكَ. ستشعرُ بي أينما توجَّهت، فأنا لن أغيبَ عنك؛ بل سأبقى أثراً في الحياة، ونبضاً في الجمالِ الذي ستشاهده، وسأبقى ذكراً في قلبِكَ لا تزول.

يا بُنَيَّ، إنِ اشتقتَ إليَّ فالتفتْ إلى قلبِكَ وتحدَّثْ معه، فأنا هو أنت، وأنت هو أنا. انظرْ لوجهِ أخيك وعانقه؛ فهذا هو عناقِي، وسأكونُ معكَ في البدءِ والمُنتهى.

خلاصة الرؤية الكونية لروح الحياة

بعد هذه الرحلة الطويلة بين أسئلة الوجود والحياة والإنسان والوعي والمجتمع، قد يكون من المفيد أن أختصر جوهر هذه الرؤية في كلمات قليلة تجمع أطرافها وتوضح مقصدها النهائي.

إن «روح الحياة» كما أفهمها ليست إلهاً شخصياً يجلس خارج الكون ويراقبه من عليّ، وليست مادة صماء عمياء تتحرك بلا معنى أو غاية. إنها الأصل الكوني الأول الذي انبثق منه الوجود، والحقيقة الحية التي ظهرت بها الموجودات وتنوعت في رحلتها الطويلة عبر التكوين والتطور والتحول.

في هذه الرؤية لا يوجد خالق منفصل ومخلوق منفصل، بل يوجد أصل واحد انبثقت منه الكثرة، كما تنبثق الأغصان من الشجرة، والأمواج من البحر، والشرارات من النار. نحن لسنا شيئاً غريباً عن هذا الأصل، ولسنا غرباء في هذا الكون، بل نحن امتداد له، ومظهر من مظاهره، وصورة من صوره التي لا حصر لها.

ومن هنا فإن الحياة لم تبدأ بقرار مفاجئ قيل فيه للوجود: «كن». بل بدأت كعملية انبثاق طويلة ومعقدة، تحركت عبرها الإمكانات الكامنة حتى ظهرت الكائنات وتنوعت أشكالها ودرجاتها. وما نسميه تطوراً ليس صناعةً للصفات من العدم، بل كشفٌ تدريجي لما كان كامناً في أعماق البذرة الأولى.

وكما أن الحياة ليست حادثة عابرة، فإن الوعي أيضاً ليس شرارةً وُلدت صدفةً في دماغ الإنسان. فالوعي، في هذه الرؤية، جزء من نسيج الوجود نفسه. إنه يتجلى بدرجات

ومستويات مختلفة، من أبسط أشكال الاستجابة في الكائنات الحية إلى أرقى مستويات التأمل والإدراك في الإنسان. وما العقل البشري إلا إحدى القمم التي بلغت رحلة الوعي في روح الحياة وفي هذا الطور من أطوارها.

ولأن الإنسان بلغ هذه الدرجة من الإدراك، فقد أصبح الموضع الذي ينظر فيه الوجود إلى ذاته. ففيه تتأمل الحياة نفسها، وتسأل عن أصلها، وتحاول فهم مسارها. ولهذا فإن قيمة الإنسان لا تنبع من كونه موجوداً مختاراً فوق بقية الموجودات، بل من كونه مسؤولاً عن هذا القدر من الوعي الذي أتيح له.

أما «روح الحياة» نفسها، فهي واعية، لكن وعيها ليس نسخة مكبرة من وعينا البشري. فهي لا تفكر كما نفكر، ولا تتفعل كما نفعل، ولا ترضى وتغضب كما ترضى وتغضب الكائنات البشرية. إن كل تصور يجعل الحقيقة الكونية عقلاً بشرياً عملاقاً إنما يسقط الصفات الإنسانية على ما يتجاوز الإنسان. إنها حقيقة واعية على النحو الذي يليق بها، كما أن للبحر طبيعته التي تختلف عن القطرة، وللمجرة طبيعتها التي تختلف عن الذرة. ولذلك لا يصح أن نحكم الوعي الكوني بمقاييس الوعي الإنساني المحدود. فمع أن وعي الإنسان متطور ومتقدم من جهة ما، لكنه محدود وقاصر من جهات عديدة، لذلك يُسقط وعيه الخاص على عَظْمَةِ وعي روح الحياة.

ومن هنا أيضاً لا نفهم «روح الحياة» بوصفها قوة تتدخل كل لحظة لتعطل قوانين الوجود أو تبدل مجراه. فهي لا تعمل من خارج الكون، بل من خلاله. ولا تتحرك ضد القوانين، بل عبرها. إن مسارات الحياة والتاريخ والوعي تجري ضمن شبكة هائلة من

الأسباب والتفاعلات والتأثيرات المتبادلة، وروح الحياة حاضرة في هذه الشبكة كلها بوصفها أصلها الحي وحقيقتها العميقة.

ولهذا فإن التفاعل معها لا يشبه العلاقة التقليدية بين العابد والمعبود، ولا بين المؤمن المطيع وإله الأديان. فالأمر لا يتعلق بأوامر فورية أو استجابات سحرية أو معجزات متكررة، بل بفهم السنن العميقة التي تتحرك بها الحياة. وكلما ازداد الإنسان انسجاماً مع هذه السنن، ازداد قرباً من الحكمة والسلام والاتزان.

كما أن هذه الرؤية لا تقدم نفسها ديناً جديداً، ولا شريعة بديلة، ولا مؤسسة تحتكر الحقيقة. فهي لا تقوم على نبي معصوم، ولا على كتاب مغلق لا يُناقش، ولا على طبقة كهنوتية تمتلك مفاتيح الخلاص. إنها دعوة إلى البحث لا إلى التبعية، وإلى التفكير لا إلى الإذعان، وإلى توسيع مساحة السؤال لا إلى إغلاقها. ولهذا فإن أكبر خطر يهدد «روح الحياة» هو أن تتحول هي نفسها إلى عقيدة جامدة تخاف النقد وتمنع المراجعة. فكل فكرة تتوقف عن مراجعة نفسها تبدأ بالتحول إلى سلطة، وكل سلطة تخاف السؤال تحمل في داخلها بذور انحطاطها.

إن الغاية النهائية من هذه الرؤية ليست أن تمنح الإنسان يقيناً مغلقاً، بل أن تمنحه أرضية أوسع للفهم، وسكينة أعمق في مواجهة الوجود، وشعوراً بالانتماء إلى هذا الكون العظيم. فنحن لسنا أبناء الخوف، ولسنا أسرى الذنب الأبدي، ولسنا كائنات أُلقي بها في عالم معادٍ لها، بل نحن أبناء الحياة نفسها، خرجنا منها، ونحيا بها، ونعود إليها.

ومن هنا يمكن اختصار رؤية «روح الحياة» كلها في عبارة واحدة:

"لسنا منفصلين عن أصل الوجود، بل نحن أحد تجلياته؛ ولسنا غرباء في هذا الكون، بل نحن جزء من رحلته الكبرى نحو الوعي والانكشاف."

ولأجل الوصول إلى هذه الرؤية، كان لا بد من رحلة طويلة عبر طبقات متعددة من الفهم؛ فتأملنا الوجود والحياة والوعي والإنسان والمجتمع، وحاولنا إزالة الحجب التي تحول بين الإنسان وبين رؤية نفسه والكون بوضوح أكبر. ولم تكن تلك الرحلة غاية في ذاتها، بل كانت سعيًا إلى بناء فهم أكثر اتساعاً، وسكينة أكثر رسوخاً، وعلاقة أكثر انسجاماً مع الحياة.

خاتمة الكتاب

الحاضنة الآمنة

إن ما طرحناه في هذا الكتاب من رؤية كونية وفلسفية، ليس مجرد ترفٍ فكري، ولا تنظيراً مجرداً يُقرأ ثم يُطوى. بل هو في جوهره "علاجٌ نفسي وروحي واجتماعي"، يهدف إلى سد الفراغ العاطفي في قلوب البشر، ومنحهم سكينَةً ووضوحاً في مواجهة المعضلات الكبرى.

إن الإنسان، بطبيعته وتكوينه، كائن اجتماعي يبحث عن الانتماء؛ فنحن لا نعيش كأفراد معزولين، وأبناءؤنا لا يترعرعون كالذئاب المنفردة. وإن الخطر الأكبر الذي يواجه مجتمعاتنا اليوم هو "الفراغ الروحي". فإن نحن اكتفينا بهدم أصنام الخرافة دون أن نوجد البديل النقي، وتركنا أطفالنا وشبابنا بلا انتماء روحي واجتماعي نظيف ومستنير، فإننا بذلك نتركهم كالأغنام الشاردة المتفرقة في صحراء الحياة، لتنهشها ذئاب الأديان المهلكة والمذاهب المتطرفة.

إن الفراغ الروحي قاتلٌ يسلب الإنسان توازنه؛ وحين يجوع الكائن البشري للانتماء، فإنه قد يلتجئ إلى أديان ومذاهب — لا لكونها صالحة في جوهرها، ولا لأنها مقنعة لعقله — بل لمجرد سد تلك الفجوة المظلمة في نفسه، وللحصول على مجتمع يُشعره بالألفة والمشاركة، حتى وإن كان ثمن ذلك استعباد عقله وخنقه بالكهنوت.

لذلك، فإن التجمع حول فكر نافع ورؤية عظيمة كـ «روح الحياة» ليس تقوقعاً طائفياً أو حزبياً، بل هو "ضرورة نفسية واجتماعية قصوى". نحن بحاجة ماسة إلى التواصل والتكافل والتعاون والتساند بين أبناء هذا النور. وأبناؤنا يحتاجون إلى مواسم وطرائق يجتمعون فيها، ليتبادلوا المحبة ويشعروا بالانتماء ضمن بيئة تحترم عقولهم وتغذي أرواحهم، بعيداً عن كهنوت التخويف وسلطة التكفير.

إنّ بناء هذا المجتمع المستنير هو الحماية الحقيقية لهم من الانزلاق في هاوية التطرف، أو الضياع في تيه العدمية. وينبغي للعقول النيرة أن تتلقى هذا الطرح بحبة، وأن تساهم بشجاعة في نشره ودعّمه، لنبني معاً تلك "الحاضنة الآمنة" التي تُشبع حاجتنا للانتماء، وتُتير مسار أجيالنا القادمة.

غايتنا الكبرى: تهيئة الوعاء للتناغم الكوني

إن الغاية من كل هذا التفكيك الفلسفي والنفسي في فصول هذا الكتاب لم تكن يوماً الوصول إلى العدمية أو الجفاف الروحي، بل كانت "عملية تطهير" للوعاء الإنساني. فعندما يُفرغ الإنسان عقله من أوهام الكيانات السفلية والعلوية، ويُطهر وجدانه من الخوف الإبراهيمي، ويضبط حديثه الداخلي على ترددات السلام والمحبة؛ فإنه يصبح مؤهلاً لأرقى درجات الاتصال المتناغم بروح الحياة، ويصبح الإناء قابلاً ليستقبل نورها العظيم.

لقد أسقطنا وسائط الخرافة، وأزحنا طبقات الخوف، وفتحنا نوافذ الوعي على اتساعها، لنقف أمام روح الحياة بقلوب أكثر صفاءً وعقول أكثر حرية. ومع هذا الصفاء الذي سعيينا إليه عبر صفحات هذا الكتاب، نطوي رحلة السؤال والتفكير، ونهتياً لرحلة أخرى أعمق وأهدأ؛ رحلة الامتنان والمناجاة. فلندخل معاً إلى حضرة «روح الحياة»، ولنرفع أصواتنا بالسلام والمحبة، شاكرين هذا الوجود الذي منحنا فرصة أن نكون جزءاً من جماله العظيم.

في حضرة «روح الحياة»

(المناجاة الكبرى)⁵⁷

مُنَاجَاةُ الْاِمْتِنَانِ: أَيُّهَا الْأُمُّ الْمُقَدَّسَةُ، يَا رُوحَ الْحَيَاةِ وَسِرَّ الْإِيحَادِ. أَيُّهَا الْمُرِيَّةُ الْقَاضِلَةُ وَالْمُنْعِمَةُ عَلَيَّ بِالنِّعَمِ فِي جَمِيعِ عَوَالِي وَمَسَارَاتِ حَيَاتِي. أَشْكُرُكَ وَأُظْهِرُ لَكَ الْمَحَبَّةَ وَالْاِمْتِنَانَ، أَيُّهَا النُّورُ الْمُبْدَعُ. سَلَامٌ وَمُنَاجَاةٌ وَامْتِنَانٌ لَكَ، مِنْ مَظْهَرٍ مِنْ مَظَاهِرِكَ، الْمُنْعَمِ بِذَاتِكَ وَالظَّاهِرِ بِكَ.

⁵⁷ هامش إرشادي: قبل الشروع في المناجاة، لزم التنويه إلى أن الألفاظ والمسميات الواردة فيها كـ (الأم، الأب، القدّوس، روح الحياة، النور) ما هي إلا إشارات لغوية لمعنى واحد؛ وهو النور الظاهر به كل موجود، أي «روح الحياة» التي أحيت بحياتها كل حي. ولكي تبلغ المناجاة أثرها الطاقوي، ردد هذه الكلمات بحبة، وزد عليها من فيض روحك كل كلام لطيف في أوقات متعددة، متسلحاً بصفاء ذهنك وإحساس ذاتك لتغمرك طاقتها الموجبة؛ فالكون وروحه المقدسة إنما يستجيبان لصدق المشاعر وذبذبات اليقين.

آيَتِهَا الْأُمُّ الْمُبَارَكَةُ الَّتِي بَارَكْتَ بِوُجُودِهَا الْمَوْجُودَاتِ، فَتَعَدَّدَتْ بِهَا الْأَعْدَادُ،
وَتَنَوَّعَتْ بِهَا الْأَنْوَاعُ، وَاخْتَلَفَتْ بِهَا الْأَجْنَاسُ. آيَتِهَا الْأُمُّ الْخُنُونَةُ الَّتِي زَرَعَتْ مَحَبَّتَهَا
وَعَطَفَهَا فِي أُمِّي وَأَيِّي، فَتَكَفَّلًا بِمَحَبَّةٍ وَمَوَدَّةٍ رِعَايَتِي وَنَشَأَتِي. لَكَ مِنِّي الْأَمْتَانُ يَا
أُمَّ جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ، وَلَكَ الْمَحَبَّةُ وَالسَّلَامُ آيَتِهَا الْمُقَدَّسَةُ.. آمِينَ.

مُنَاجَاةُ التَّوْحِيدِ وَالشُّهُودِ: آيَتِهَا الْمُتَجَلِّيةُ فِي كُلِّ صُورَةٍ، وَالْوَاضِحَةُ فِي كُلِّ مَعْنَى،
وَالظَّاهِرَةُ فِي كُلِّ حَقِيقَةٍ. آيَتِهَا الْأُمُّ الْمُقَدَّسَةُ الْأُولَى الَّتِي انْبَثَقَتْ بِهَا وَمِنْهَا كُلُّ
الْمَوْجُودَاتِ، وَأَحْيَتْ بِحَيَاتِهَا كُلَّ ذِي حَيَاةٍ. بِكَ آمَنْتُ، وَعَمَّنْ سِوَاكَ أَعْرَضْتُ،
وَلَيْسَ جَوْهَرٌ ظُهُورَاتِكَ عَرَفْتُ، وَلِبْدِيعٍ صَنِيعَ أَيْادِكَ فَهَمْتُ. تَبَارَكْتَ وَتَقَدَّسْتَ
عَمَّا يَدَّعِيهِ الْمُبْطُلُونَ الْمَدَّعُونَ.

مِنْكَ وَبِكَ حَقِيقَتِي وَظُهُورِي، وَإِلَيْكَ وَمَعَكَ — بَعْدَ مَسِيرِ حَيَاتِي هَذِهِ — تَوَحُّدِي
وَحُضُورِي. فَتَفَضَّلِي عَلَيَّ وَعَلَى عَائِلَتِي، وَعَلَى مَنْ يَهْمُنِي أَمْرُهُ وَيَهْمُهُ أَمْرِي، بِالْحَفِظِ
وَالسَّلَامَةِ، وَجَنِّبِينَا بِرُوحِ حَيَاتِكَ الْغَمَّ وَالنَّدَامَةَ، يَا أُمَّ جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ. آيَتِهَا
الْمُقَدَّسَةُ الْفَاضِلَةُ، يَا سِرَّ الْحَيَاةِ وَيَا رُوحَ الْوُجُودِ الْمُقَدَّسِ.

وَبِكَ يَا أُمَّ جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ،

يَا سِرَّ الذَّاهِبِ وَالْآتِ،

يَا مَظْهَرَ ذَاتِي وَوُجُودِي،

يَا حَضْرَةَ غَيْبِي وَشُهُودِي..

أَشْهَدُ أَنَّكَ فَوْقَ جَمِيعِ الْإِدْرَاكَاتِ؛

فَالْمُدْرِكُ وَالْمُدْرَكُ أَنْتَ، وَكَذَا الْإِدْرَاكُ..

يَا أُمَّ جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ.

وَبِكَ يَا أُمَّهُ أَقُولُ:

هَذَا مِيرَاثِي لِلْمُحِبِّينَ، وَزَادِي لِطُلَّابِ الْمَعْرِفَةِ،

وَوَصِيَّتِي لِلْسَّائِرِينَ فِي دُرُوبِ النُّورِ..

وَلَا سِيَّمَا لَوْلَدَيَّ إِيَّاسَ وَإِدْرِيسَ، وَأَقُولُ لَهُمَا:

إِنِّي لَمْ أَتْرُكْ لَكُمَا إِرْثًا مَادِيًّا، بَلْ أَظْهَرْتُكُمَا فِي هَذَا الْوُجُودِ بِنُورِ «رُوحِ الْحَيَاةِ»..
فَلْتَكُنْ هِيَ حَاضِنَتُكُمَا، وَلْيَكُنْ هَذَا الْوَعْيُ هُوَ إِرْثُكُمَا الْحَقِيقِيُّ الَّذِي لَا يَزُولُ.

تَمَّ بِاتِّمَامٍ وَالْكَامِلِ كِتَابُ النُّورِ.. كِتَابُ «رُوحِ الْحَيَاةِ»

مِنَ الْخَلِيَّةِ الَّتِي فِي الْبَدَنِ، وَالذَّرَّةِ الَّتِي فِي الْمُحِيطِ، وَالْقَطْرَةِ الَّتِي فِي بَحْرِ أَمْنِ
الْمُقَدَّسَةِ «رُوحِ الْحَيَاةِ».. أَهْدِي أَبْنَاءَ النُّورِ وَطُلَّابَ الْمَعْرِفَةِ هَذَا الْكِتَابَ، وَهُوَ سِفْرٌ
تُنَالُ بِهِ الْمَعْرِفَةُ، وَيُسْتَنَارُ بِهِ الْفِكْرُ، وَتُحْفَظُ بِهِ الْأَذْهَانُ، نَحْوُ أَفُقٍ رَحِيبٍ. وَلَكُمْ
السَّلَامُ وَالْمَحَبَّةُ يَا أَبْنَاءَ «رُوحِ الْحَيَاةِ».. فَكُلُّ أَبْنَاءِ الْأَرْضِ نَبْتُهَا. بِهَا وَمِنْهَا وَإِلَيْهَا،
فَتَبَارَكْتَ أُمُّنَا الْمُقَدَّسَةُ.

— شَمْسُ الدِّينِ الْمُحْسِنُ

فهرس الكتاب

0.....	رُوح الحَيَاةِ
1.....	إهداء..
2.....	شكر وعرفان..
1.....	توطئة: رؤيةٌ حفزتني لنشر الكتاب
3.....	مقدمة الكتاب: نحو رؤية كونية لأبناء النور
7.....	الفصل الأول
7.....	من العَمَاء إلى الصادر الاول
7.....	تنويه وتنبيه لا بد منه:
8.....	في البدء لم تكن الكلمة
12.....	الأصل السابق على الصورة المادية
13.....	حالة العماء الأول
14.....	بين العدم المحض والعماء
16.....	المصدر والصادر الأول
19.....	الصادر الأول والعجينة الأولى
21.....	روح الحياة لا تقبل للشيء كن فيكون
25.....	الصادر الأول ومسألة الزمن
28.....	الإنسان والحيوان في رحم الوجود
30.....	الهيولى والهوية
32.....	سر الانبثاق: لماذا تجلّت روح الحياة؟

34.....	خلاصة الفصل الأول
36.....	الفصل الثاني
36.....	الانبثاق والتنوع والإبداع والتطور
36.....	روح الحياة: والمصطلحات البشرية
39.....	ليست هناك صدفة في روح الحياة
42.....	خرافة "الصدفة العمياء": من العشوائية المطلقة إلى الترقيع الأيديولوجي
42.....	تطور المفهوم: كيف تغيرت قواعد اللعبة؟
44.....	الهروب من الغائية: غياب الشجاعة الفكرية
44.....	التستر بعباءة العلم
47.....	الكون في روح الحياة بين الكمال والنقص
50.....	التطور بوصفه سمة من سمات روح الحياة
52.....	التطور والتكيف
54.....	لماذا توقف التطور المادي الكثيف؟ (من الفوران إلى الانتظام)
55.....	انتقال مسار التطور: من قوالب المادة إلى مدارج الوعي
57.....	الأرض والتلاحق البشري
61.....	فلسفة التطور: بين عشوائية داروين وحكمة «روح الحياة»
61.....	أولاً: محرك التطور (بين العشوائية العمياء والبذور الكامنة)
62..	ثانياً: أصل النشأة (بين الأصل الجغرافي الأوحـد وتعدد حواضـن الانبثاق)
63.....	ثالثاً: ديمومة التطور (بين الوتيرة الواحدة وانقضاء حقبة الرحم الكوني)
64.....	رابعاً: آلية البقاء (بين وهم الانتخاب الأعمى وقصدية التنوع)
65.....	السر الأعظم: البذور الكامنة وإرادة الطينة الأولى

69.....	روح الحياة بين التغير ومسيرة الوجود
70.....	خلاصة الفصل الثاني
73.....	الفصل الثالث
73.....	الأنوثة ووحدة الوجود
73.....	روح الحياة والأنوثة الكونية
77.....	الجدور التاريخية: من «الأم الحاضنة» إلى سلطة «الإله المحارب»
78.....	شواهد تقديس الأنوثة الكونية عبر التاريخ
80.....	الإله ووحدة الوجود
80.....	التناقض الصوفي ووحدة الوجود الحقيقية
83.....	روح الحياة وعاطفة التدخل المباشر
84.....	التواصل مع روح الحياة: حكمة التناغم لا وحي النبوة
85.....	خلاصة الفصل الثالث
87.....	الفصل الرابع
87.....	الوعي والضغط وسر التلاحق
87.....	الوعي وإدراك الوجود
89.....	الوعي درجات لا صورة واحدة
91.....	من أين جاء الوعي؟
93.....	الضغط البيئي مُحفِّز لا خالق: نقد التفسير المادي الخالص
96.....	التلاحق البشري وسر انفتاح الذهن
98.....	وقفَةٌ أخرى مع الفكر المادي: العقل بين داروين وألفريد
101.....	الإنسان مرآة الوجود

104.....	خلاصة الفصل الرابع
107.....	الفصل الخامس
107.....	تأملات: في العقل الباطن، المكبوتات، وأوهام الغيب
107.....	إعادة قراءة الظواهر الماورائية في «روح الحياة»
107.....	مسرح العقل الباطن وصناعة الكيانات
108.....	الماورائيات في رؤية روح الحياة
110.....	العقل الباطن بين الإسقاط الذهني وقوانين الوعي
110.....	أولاً: هندسة العقل ومخزن الموروثات
111.....	ثانياً: الكيانات الغيبية كإسقاطات ذهنية
113.....	ثالثاً: الكبت النفسي وتشخيص الوهم (المس والجاثوم)
114.....	رابعاً: قوة الإيهام وسطوة الطاقة في المحيط المادي
119.....	وهم المكاشفات
119.....	وجوه الشياطين بين خرافة الكرامة والاضطراب العصبي
119.....	قصة التستري: من هلوسة المنبر إلى أسطورة الكشف
120.....	مشرط العلم: تفكيك المكاشفة المزعومة
122.....	طريق الشفاء: من سراب الوهم إلى يقين الوعي
124.....	صدى الوعي: كيف ينحت الحديث الداخلي واقعنا؟
126.....	لغة التعافي: كيف تشكّل كلماتك الصامته عالمك الخارجي؟
127.....	قانون التجاذب الكوني: حين تتحول المشاعر إلى واقع ملموس
129.....	السر الكوني العجيب: تجلي المرادات على حين غفلة
130.....	الوعي الكوني واستظهار الأجوبة الخفية

132.....	«الطباع التام» وتجليات الوعي عند الحكماء
139.....	التفاعل الكوني: بين حظوظ المادة ونقاء البصيرة
142.....	التصادم الطاقوي وخلل الاستحقاق
143.....	لصوص الحكمة وتعثر المسارات
145.....	محراب المعرفة وطريق الخلاص
146.....	خلاصة الفصل الخامس
148.....	الفصل السادس
148.....	الإنسان والمعنى والأخلاق في روح الحياة
148.....	الإنسان ليس ذرة غبار
150.....	الإنسان والمعنى والانتفاء
151.....	إظهار الامتتان
154.....	الكون بدن واحد ونحن خلاياه
156.....	القيم الأخلاقية في روح الحياة
158.....	الأخلاق بوصفها فطرة كامنة
164.....	أثر الأخلاق الفاضلة في الإنسان ومساره الوجودي
166.....	خلاصة الفصل السادس
168.....	الفصل السابع
168.....	السياسة وبناء الدولة
168.....	القيادة والمجتمع في ميزان الوعي
169.....	القائد العظيم: بين وهم البطولات واستبداد الأنا
171.....	المجتمع الواعي: دولة الخبراء وتجاوز نخ الأغلبية

172.....	حامية العقل ودستور الاختصاص
173.....	الحياة المدنية والفرد الحر
173.....	تجاوز نخ "الديمقراطية العددية"
176.....	البديل الواقعي: "المستبد الحكيم" وضرورة المرحلة
178.....	استعادة التوازن: تحرير المرأة من أسر الكهنوت
179.....	الطفل: البذرة الأولى للمجتمع الواعي
182.....	المراسم والأعياد: بين التناغم الكوني والتنظيم المدني
184.....	خلاصة الفصل السابع
186.....	الفصل الثامن
186.....	الموت ومسار الحياة المستقبلي
186.....	ما بعد الموت: انتقال طاقوي، لا بعثٌ جسدي
189.....	البراهين الذوقية والتجارب الشخصية
195.....	الموت بين التردد واختلاف المسار
199.....	الذاكرة بين المادة والوعي: ردُّ على اعتراض الزهايمر وتلف الدماغ
201.....	سيكولوجيا الرهبة: لماذا يخاف الإنسان من الموت والظلمة؟
204.....	الإنسان في أطوار روح الحياة
207.....	خلاصة الفصل الثامن
209.....	الفصل التاسع
209.....	أجوبة معرفية في دروب النور- فصل الختام ونهاية الكلام
209.....	مقدمة وتنويه
210.....	إيقاع الزمن في ميزان الوعي: بين رحابة الطفولة ونهر العمر الجارف

212.....	فن التعامل مع الأفكار وتحقيق التوازن الداخلي
213.....	أما الطريق الأول فهو إظهار الامتنان.
214.....	أما الطريق الثاني فهو إفراغ الوعاء أو السكون الذهني.
216.....	الإنسان والكون: ذرة في الجسد وعالم في الوعي
218.....	التخاطر بين قراءة الأفكار وإرسال الترددات
223.....	قوة التركيز، شهادة شخصية على إرسال الترددات الذهنية
225.....	الحديث لغة اللاوعي في قراءة مسارات الوجود
228.....	قانون الجذب الكوني بين حقيقة التجلي و وهم التفاؤل
231.....	كيف أفعل قانون التجاذب وأنا من أصحاب النحوسات؟
234.....	وحدة الوجود: بين شطحات المتصوفة ورؤية «روح الحياة»
240.....	مسألة الجبر والاختيار: بين الوعي واللاوعي
245.....	وهم التناسخ وتقمص الأرواح: بين الخلل الفلسفي وعبقرية اللاوعي
249.....	الجاثوم والتشافي بالامتنان: كيف نروض طاقاتنا الشاردة؟
252.....	الجن والملائكة: بين أوهام الموروث وبرمجة العقل الباطن
259.....	وهم الأذكار وسر التردد الذهني
259.....	طبيعة التفاعل في الأذكار والمانترا.
262.....	وهم "الجن العاشق": صرخة الكبت وجلد الذات
265.....	المأساة المزدوجة للمرأة المتدينة.
266.....	المرأة ومساراتها البيولوجية.
267.....	دلالة المخاض والتهيئة الطويلة.
268.....	التشافي والعلاج

269.....	وهم السحر واستنطاق العقل الباطن
271.....	أذى الطاقات الخفية: كيف نعالج الحسد اللاإرادي؟
273.....	وهم الحسد وقوة التحصين الذاتي: كيف نغلق منافذ الوهم؟
276.....	حقيقة السحر والجن: بين وهم الأديان وغلبة الإرسال الذهني
280.....	حقيقة السعادة والحزن: بين وهم الموافقة واتساع البصيرة
283.....	قلق الوجود وسكينة اللحظة: كيف نعيش بلا إله الأديان؟
286.....	المناجاة: بين الاستجداء والتناغم الكوني
287.....	خطر «الدعاء المسموم»
289.....	سرُّ المناجاة وقوَّة الامتنان: لماذا نُخاطَبُ روح الحياة؟
291.....	خاتمة الأسئلة: أين سأجدك يا أبت؟
292.....	خلاصة الرؤية الكونية لروح الحياة
296.....	خاتمة الكتاب
296.....	الحاضنة الآمنة
297.....	غايتنا الكبرى: تهيئة الوعاء للتناغم الكوني
298.....	في حضرة «روح الحياة»
298.....	(المناجاة الكبرى)
301.....	تمَّ بِاتِّمَامٍ وَالْكَامِلِ كِتَابُ النُّورِ.. كِتَابُ «رُوحِ الْحَيَاةِ»
302.....	فهرس الكتاب